حدائِقُهُنَّ المُعَلَّقة

نَجَمَة إِدريس

نجمة إدريس

حدائقهن المعلقة

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة©

«لا يمكن كتابة الحياة، ومن المستحيل أن نرويَها. يمكننا، في أفضل الأحوال، أن نقبضَ على معناها».

«أحبُّ الخِيارات التي تمنحُنا إيَّاها الذاكرةُ. أحبُّ تلك الحرِّيَّةَ التي تُتيحُها لنا؛ حرِّيَّةَ أن نعيدَ اختراعَ الحياة، وأنْ نغيِّرها».

الكاتب الإيطاليّ: أنطونيو تابوكي

شخصيَّات الرواية وأحداثها من نَسج الخيال. وأيّ شبه بينها وبين الواقع هو صدفةٌ محضة.

from: manal_mosayyan@hotmail.com

to: sihamnahhas@yahoo.com

العزيزة سهام

أفكِّر في الكتابة، ثمَّ أجبن وأعجز.

أفكِّر في أن أستخدم الفِصَ الأيمن من دماغي، أبحث فيه عن كلِّ ما يخصَ المشاعر والذكريات والأحلام. هذا الجزء شبه المعطَّل طوالَ سنوات عملي في المعامل والمختبرات، أشمَ رائحة المحاليل، وأشرِّح الخلايا تحت المجهر، وأشقَ أفئدة الحشرات وبطونَ الزواحف بحثًا عن معنًى ما يختفي وراء أحشائها؛ عن إشارات تصلح لأن تدوَّن في قاعدة البيانات، ثمَّ تُدرَج تحت فرعٍ ما في علم البيولوجيا.

الآن، أفكِّر في أن أكتب عن شيء آخر لا يمت إلى ذلك بصلة؛ أن أكتب عنَّا وعن سِيَر حيواتنا وهي تعبُرنا بلا رجعة. أحاول أن أصطاد الأيَّام وأجمعها في شبكة؛ أُحصيها وأصفها في ذاكرتي كمسبحة، ثمَّ أتأمَّلها بحبٍ وعلى مهل. تلك الأيَّام التي نَصَلت من أعمارنا وغادرتْنا سريعًا كأشجار طريقٍ تركض القهقرى خلف حافلة مسافرة.

لكنَّني أشعر بالعجز كلَّما فكَّرتُ في هيكل الكتابة وبناء الكلمات، فرحتُ أبحث عن قدوة من عالمي أقلِّده وأتعلَّم منه، وأنظر إليه من منظور آخر بعيدًا عن شريحة المجهر وعيِّنات التَّجارب المخبريَّة. كانت العنكبوت موضوعًا لأحد أبحاثي منذ بضع سنوات. وكنتُ عمياء وأنا أتناولها وأشرِّحها وأدرس خلاياها وأنسجتها، لأنَّني لم أكن أرى غير ذلك. ولكنَّني الآن، وأنا في صدد هذه الكتابة الحميمة، بدأتُ أغبط العنكبوت وهي تغزل، ثمَّ وهي تصنع تلك المساحات الهندسيَّة كبيوت مرهَفة تتراصَ جنبًا إلى جنب، كلِّ بيت بحدود مدروسة: بيت صغير وبيت كبير؛ بيت في بؤرة النَّسيج وبيت نحو الخلاء البعيد. ولكلِّ بيت حكاية تتأرجح كلَّما لامسه الهواء، وكلَّما شاغبته أجنحة الفراشات المتعَبة وجثمت فيه كمثوَى أخير. للعنكبوت فطرة الإتقان؛ فكلِّ خيط بمقياس، وكلِّ بيت بمساحة، وكلِّ مساحة بمدًى تهوي إليه مطمئنة متأنِّية، مستسلمة للدأب والدبيب.

أغبط العنكبوت لأنَّني لا أستطيع أن أجاري فطرتها؛ فطرةَ النَّسج المتقَن الذي عَبَر خيالها آتيًا من عالم المُثُل، حيث الصُّور الأصيلة للأشياء حين بدأ الكون، كما يقول أفلاطون. في رأسي تشوَّشت جواهر

الأشياء وغطّاها الغبار، وتراكمت الهواجس والحسرات وأنا أراها تنزلق نحو حضيض النّسيان والوَهم. تنزلق كما ينزلق ماء البيضة من دون أن يحبل بجنين طائر أو حتّى دجاجة بيتٍ مدجّنة. فأجلس في الظلّ أراقب العنكبوت وأصفّق لها، مجتهدةً في أن أجد لنفسي انعكاسًا ضئيلًا لما تفعل، حتّى لو كان كَنسًا لأجنحة الهوام.

جميل أن أجد لنفسي مهنة كمهنة جمع الفراشات الهاجعة في الغبار؛ غبار أبيض هشّ يثير التذكُّر ويشاغب مهارة جمع النثارات وقصاصات الورق، ورقةً لصق ورقة، ووجهًا تلو وجه، وزمنًا في إثر زمن، كقطار أطفال ملوّن لا يُخرجك عن سكّته، بقدر ما يأخذك إلى طفولتك وسذاجاتك المزمنة ودوائرك التي لا تدعوك إلّا إلى مزيد من الدَّوَران واللّعب، ثمّ التَّوَهان في أحجية المتاهة، وقطف ثمار حكايات مموّهة بغبار ذاكرة خائنة.

تستعين العنكبوت بلُعابها الأبيض الشفيف لتشيد مجدها الصغير المُعجِز، وأستعين بالكتابة لأخرج من كينونتي البشريّة المتهاوية. لكأنّ الكتابة سُلّمي اللَّولبيّ نحو الغيمة، أو نحو كهف، أو نحو ماء مراوغ ينسكب في العراء، فأنشغل عن ذاتي باصطياد الغيم ومراودة العتمة، ورؤيةِ كيف يفرّ الماء لامباليًا كما يفرّ الزمن. الكتابة قارب اللّانجاة، ويكفي أنّه قارب يحمل أوزارنا وحماقاتنا وغبارنا البشريّ إلى وِجهة ما، حتّى لو كانت بحجم وُرَيقة تجثم على رفّ.

أكتب هذه الكلمات لكِ، عزيزتي سهام، لعلّك تُعينني عن مهمّة ترتيب ما سقط منّا في الطريق من أيّام ووجوه وأشياء أخرى. تعالي نعكفْ معًا كطفلتين تنسّقان قطع ال (jigzo) قطعةً هنا وقطعةً هناك، وقطعًا أخرى متناثرة ومربكة لا نعرف مواقعها. ولا بأس في أن تكون هناك قطع ضائعة، تمامًا مثل أيّ مشهد من مشاهد الحياة في جَرَيانها، حين تقتنص لحظة ما وتطلق سراح غيرها غير مبالية. سأكتب لكِ، واكتبي لي، أو سجّلي لي صوتك إذا كانت الكتابة تُتعبك أو يتوه منك الحرف. فلطالما كنتِ سيّدة الحَكْي، تتحدّثين بشغف وأناة، وتُدَوْزنين الحكاية على مهل. لكأنّكِ وأنت تصوغين الأحداث، تهبينها حياة أخرى وتنحتينها كما يليق بعين فنّان ترى ما لا يراه العابرون والمتعجّلون.

نحن لن نجترح المعجزات ولن نأتي بما لم يأتِ به الأوائل فيما نكتب أو نقول. نحن الكائنات الرَّخوة اللَّطيفة المنطلقة في دوائرها المبهمة، المستسلمةُ لسَيَّال الوقت يشكّلنا كيفما يريد. قد نتعارك مع ما

تهيِّئه لنا الأيَّام، ظنًّا أنَّنا قادرون على أن نُصلح الكون أو نصوِّب مساراته نحو ما نريد ونهوى، وقد نشتطّ بذلك ونحرن مثل حمار عنيد، ثمَّ نكتشف أنَّنا لا نختلف عن تلك العنكبوت التي ذكرتُها آنفًا، وأنَّنا محكومون بتلك الرِّحاب المقنَّنة، نغزل وقتنا وبيوتنا الرَّهيفة بما هو متاح في جعبتنا من شغف وكدح ووهم. هكذا نندفع بالغزل يومًا بعد يوم، وسنةً بعد سنة، وعمرًا بعد عمر، إلى أن تكتمل تلك الشبكة المعجزة، الممتلئة بالثقوب والرُّتَق والأخطاء الجميلة، لنركن بعدها إلى تأمُّل هذه الشبكة من الخيوط، ونشرها فوق شرفاتنا العَليَّة في الشمس والهواء الطلق، وملاحقة أجنحتها وهي تنداح في فضائها البعيد.

عزيزتي سهام

هذه الرِّسالة تخصّ شغف الكتابة الحميمة، وتخصّ موضوع الذاكرة التي سرعان ما تخون وتتلاشى، وتخصّ الرَّغبة في المناورة بشأن سِيَر حيواتنا بما فيها من بساطة وارتباك، وعثرات ومُتَع صغيرة، وأوجاع عابرة وتطلُّعات مراوحة. أعني حيواتنا نحن، أنا وأنتِ ومَن نعرف من ثلَّة الصداقة والصحبة: سميحة، هشام، أروى، يوسف، فايزة، نجوى، لبنى، ياسر... وغيرهم. فلكلٍّ حكايةٌ قد تكون قصيرة أو طويلة، منفردة أو مندغمة بحكايات آخرين، مكتملةً أو لا تزال، ولكنَّها بلا شكّ مشغولة كبيت العنكبوت بالمنحنيات والزوايا والخيوط والعُقَد، التي أحسنت الظروف نسجَها وتنسيقها كيفما تشاء هي، وكيفما يشاء صاحب المشيئة ومدبِّرها.

هذه مجرَّد فكرة أوَّليَّة، قد تُنفَّذ أو قد يطويها الإهمال؛ قد تكتمل أو قد تبقى مجرَّد قصاصات لا تدلّ على شيء. ولكنَّ الفكرة تلحّ عليَّ، وقد تأتي على شكل رواية تتنامى من حكايات مبعثرة؛ حكايات تحتاج إلى جسور وخيوط تلمّ شتاتها كما تلمّ آصرةُ النَّسَب المنفيِّين في الأرض. وما دامت الكتابة استبطانًا واسترسالًا لصور وذكريات، فأنا محتاجة إلى ذكرياتك ومخزونك الذهنيّ والقلبيّ أنتِ أوَّلًا، والذي لا يزال يأسرني بغناه وزَخَمه، والذي، وإن كنتُ أعرف معظمه، إلَّا أنَّني أحتاج إلى تنشيط ذاكرتي مرَّة أخرى. وأملي، إذا وافقتِ على الفكرة، أن تسجِّلي لي بصوتك ما يعنّ لك من تفاصيل هذا المخزون، سواءً ما له علاقة بكِ أنتِ شخصيًا، أو ما يتفرَّع منه نحو آخرين لهم صِلَة ونصيب في حياتك وذكرياتك. وليس بالضرورة الترتيب الزمنيّ، أو النِّظام في الأحداث والسَّرد، وإنَّما اتركي نفسك على سجيَّتها، فأجمل الحديث ما

جاء على السَّجيَة، وأتى عفوَ الخاطر.

عزيزتي...

قد تكون هذه الرِّسالة إحدى شطحاتي، أو إحدى نوبات الجنون المؤجَّل، ولكنَّها بالتأكيد فكرة تحتاج إلى العناية والحبّ.

لكِ المودة الدائمة

منال مسيَّان

الكويت، 10 تموز/

يوليو 2017م

from: sihamnahhas@yahoo.com

to: manal_mosayyan@hotmail.com

منال... يا صديقتي

لو كانت فكرة الكتابة عنّا وعن أيّامنا مجرّدَ شطحة أو جنون، كما تقولين، فما أجمل هذا الجنون حين يتبلور في عمل ينبثق من الشغف والمعايشة، ثمّ يُكمِل مسيرته ليضع نقاطنا على حروفنا. هذا العمل، إن قُدّر له أن يتمّ، فسيكون مصدر سعادة خالصة، ليس لنا فقط، وإنّما لكلّ من يشبهنا في السّعي في مناكب هذه الحياة، ممّن نعرف من النّاس وممّن لا نعرف؛ أولئك المشغولين بأمانيهم ومسرّاتهم الصّغيرة وأوجاعهم العابرة وكدحهم الجميل.

حسنًا أنّك عُدتِ إلى استخدام الفِصّ الأيمن من دماغك، كما يعود الطير إلى بستانه. فلطالما كنتِ شغوفة بما وراء الظواهر من معنًى، تنظرين إليه تلك النّظرةَ البعيدة المستشفّة التي أعرفها. ولا أخفيكِ أنّني لطالما فكّرتُ في هذا التدوين وتقتُ إليه، وها أنتِ تكفينني المؤونة، وسأبذل ما أستطيع لتجميع شتات الذاكرة، أدوّن أو أسجّل أحاديث و«سواليف»، كما تفعل الجدّات الصالحات.

الكتابة يا عزيزتي خَلْق آخر، تناصّ مع الواقع وليست الواقع ذاته. تقولين إنّنا نتحرّك بمشيئة عليا، وربّما لا نستطيع أن نقبض على حياتنا ونهندسها كما نشاء. هذا صحيح إلى حدّ ما، ولكنّ الكتابة خطوة أخرى أبعدُ من الحياة، وأفق مبذول للمجتهد الفنّان، يشكّلها بمشيئة الخيال والتصوّر، ويشحنها بما يهوى ويتمنّى. وأنتِ، إن نقلتِ حياتنا كما هي، فلن تضيفي جديدًا، وستكون أشبه بفيلم قديم يثير السأم. وأنا أعرف (والشكر موصول لِفِصّك الأيمن)، أنّ جعبتك الفنّيّة لا تخلو من الشغف بالتّشكيل والنّحت لنمط حياتك ومفرداتها وتفاصيلها، فما بالك بكتابة يحرّكها الحبّ وتثيرها الرّغبة الجامحة. أنا واثقة بأنّني سأستمتع بخيالك الطليق؛ بلُعِبك بالأحداث والشخصيّات، وبهندستك لحياتنا من منظور آنيّ، فيه الكثير من الكذب على حياة ماضية مليئة ب «الرُّتَق والعُقَد والأخطاء الجميلة»، كما نوّهتِ أنت.

ابعثي إليّ أوراقك الأولى، ولنظلّ على تواصل ونقاش كلّما تطلّب الأمر ذلك.

لكِ خالص محبتي ودعواتي

سهام نخاس

لندن، 12 تموز/يوليو 2017م

تطلق سهامُ سؤالها وهي في الخامسة والستين، جالسةً في شقّتها المطلّة على أحد منعطفات «نوتنغ هيل» في لندن، عمّا يمكن أن تفعله بأكوام الصُور التذكاريّة والرَسائل القابعة في مخبئها تحت «الكنبة» ذات الأدراج الوسيعة؟ مستذكرة أن ليس هناك من بنات العمومة أو أبناء الأخوة أو أحفادهم مَن له صلة بذكريات لا تخصُه، أو بالأحرى لا تعنيه. كانت الفكرة أن توزّع هذه المقتنيات على الأصحاب ومن تبقّى من أصدقاء العمر المتناثرين هنا وهناك. شيء ما أوجعها وهي تدير كلمة «أصدقاء» في رأسها المسترخي على ذراع مقعدها المفضّل في غرفة جلوسها الممتلئة بضوء الشمس، وبعدد لا يُحصى من نثار الأواني، والكوشيّات، وعُلَب الحلويّات المنسيّة، والصُور القديمة التي بهتت وراء الزجاج ومالت بعض أطرها على بعض، صانعةً مجموعةً مختلطة من مشاهد وقف عندها الزّمن. أدارت كلمة «أصدقاء» في رأسها مرّة أخرى، ورأت أنّ تعبير «ظلال» ربّما يبدو أكثر صدقًا الآن، بعد أن بعُد عهدها بهم، وخلت شقّتها المتواضعة من صَخَبهم وعنفوانهم القديم، كما خلت من أرواحهم وروائحهم، ومن تحلُقهم في المساء حول أطباقها الفائحة برائحةِ رؤوم، تشبه رائحة أمّها حين تطبخ «المقلوبة»، أو تسكب «الكبّة باللّبن» في بيتهم البعيد المشلوح وراء طفولة غاربة، وصبًا مموّه بالضباب.

تذكّرت لبنى التي ماتت بسرطان الرئة منذ ستّة أشهر، وأروى التي هجرت لندن إلى منفًى آخرَ حاملةً انكساراتِها المستعصيةَ على الترميم. وداهمتها سيرة سميحة وهشام ويوسف ونجوى ومنال وسائر الوجوه التي تتزاحم كغصون في زهريّة من الأنتيك المعتّق، يأخذ بعضها برقاب بعض، وقد اختلط العَبَق برائحة تحلّل حامضة. أوقفت استرسال المشاهد التي ستجرَ بعضها بعضًا كقطار فائر بالضّجيج وطعم الصدأ، وضغطت الريموت كنترول على محطّتها المفضّلة لتواصل المسلسل التركي في حلقته الخامسة والعشرين.

غفت على «الكنبة» كعادتها في العصر، والمسلسل لا يزال دائرًا، وهواء المساء يلعب بشيفون النافذة المشرّعة على صيف لندني مملّ. اختلطت في غفوتها أضغاثُ الأحلام بصور باهتة: لاح لها الفتى الذي سيأتي لتغيير اللّمبات المحروقة، والتي لم تعد تستطيع الوصول إليها صعودًا على السُلّم، ورأت نفسها توبّخه على التّأخير، على الرّغم من أنّها لا تملك لمبات جديدة في الأصل! ثمّ رأت نفسها، أو ما يشبه ظلالها، تنزل

مسرعة على الدرج لتلحق بموعد عمل من دون أن تعيقها ركبتها المعطوبة؛ تنزل قفزًا كحمامة فزّت نحو الضوء. يتداخل في الغفوة مشهدُ آخر لسفح أخضر تقف بين أزهاره البرّيّة المتراقصة في الرّيح، كأنّها جولي أندروز في فيلم «صوت الموسيقى» وهي تغنّي بتنُورتها الواسعة الممتلئة بالهواء. وفي معيّتها الوجوهُ إيّاها في تلك الرّحلة الخلويّة على سفح «هامستيد هيث»: لبنى ووليام وأروى ويوسف ومنال والبقيّة، يتحلّقون حول بعضهم البعض في صورة تذكاريّة، تقبع الآن في المخبأ تحت «الكنبة» منذ ثلاثين عامًا، أو ربّما خمسة وثلاثين، ممتلئين بالنضرة لا يزالون!

رنّت نغمة الموبايل لتوقظها من غفوة سانحة، لطالما تكرّرت مشاهدها أو ما يشبهها في الآونة الأخيرة، ولطالما استغربت ذلك الإلحاح الذي يداهمها لترتيب بيت الذاكرة، الذي تبعثرت أشلاؤه ما بين إربد والكويت ولندن. مُبدّدةٌ ذاكرتُها في الهواء والغفوات، كزهرة تنفخ الرّيحُ حبوبَ لَقاحها، فلا تدري إلى أين تسافر وعلامَ تحط. وهذه المكالمة المقتحمة تأتي الآن فتتطاير فتافيتُ الصُور وتضمحلّ. ليتها وضعت جهازها على وضع الصمت وكَفَتْ نفسَها مؤونةَ الردّ على المكالمات التي يمكن أن تؤجّل.

للتوّ عادت من موعد مع مُراجع من مُراجعي مستشفى «كرومويل»، يستعينون بها لترجمة أعراض أمراضهم لأطبّاء مشغولين بتدبيج أرقام الفواتير الدسمة، أكثر من انشغالهم بأعراض مرضاهم. وهي التي خبرت، بعد طول ممارسة لمهنة الترجمة، ما وراء الأعراض من قلق وهموم نفسيّة ومخاوف عالقة، غَدَتْ أشبه بمعالج نفسيٍ واجتماعيٍ من دون رخصة، تستقبل ضمن تفاصيل يومها الشكاوى والطلبات وآهاتٍ من كلّ نوع. وهذه المكالمة الواردة، والتي لم تردّ عليها بعدُ، لن تخرج عن دموع مريضة لم يَزُرها زوجها؛ أو مريضٍ يعاني فوبيا العمليّة الجراحيّة الوشيكة ويفكّر في الفرار؛ أو موظّفٍ في المحاسبة لم يستطع أن يُقنع أحدهم بتسوية فاتورة علاجه الباهظة. لكأنّها تحوّلت إلى الأم تيريزا رغمًا عنها. وهي، بمزاجها المتقلّب مؤخّرًا، ما عادت تستسيغ هذا الدّور الذي لطالما أدّته بأريحيّة وتفانٍ نادرَين، حتّى اعتبر معظم المرضى أنفسهم من زمرة أصدقائها، يوجّهون إليها الدّعوة إلى الزيارة، ويطلبون مشورتها ورأيها فيما يستجدّ لهم من ظروف، سواءً في أثناء سياحتهم في لندن، أو بعد العودة إلى بلادهم. لكنّها اليوم تشعر بانحراف في مزاجها ورغبة في الشجار مع أحد. والأفضل ألّا تردّ على مثل هذه المكالمات المرهِقة التي تستهلك طاقتها

خارج دائرة العمل الرسميَّة.

تقلَّصت لغتها الإنكليزيَّة وانكمشت في دائرة الترجمة للمرضى.عرفت المصطلحات الطبِّيَّة وأسماء الأمراض والأجهزة، وكذلك الإجراءات الطبِّيَّة والإداريَّة اللَّازمة لكلّ مريض. ومهرت في نقل شكاوى المرضى إلى الأطبَّاء الإنكليز، في عدد من الجُمَل المباشرة والدَّقيقة، بعد حذف ما ليس له داعٍ من هذر أو ثرثرة تفهمها هي وتعرف جذورها اللُّغويَّة والنَّفسيَّة، ولكن لن يكون لها محلّ من الضرورة في مقام التَّشخيص. وبدا لها الآن، وهي تتأمَّل حدود لغتها الإنكليزيَّة، كيف تتحوَّر اللُّغة وتستجيب لدواعي المهنة، وليس لدواعي الحبّ أو الشَّغف بها. كانت لغتها مختلفة حين كانت تعمل في البنك العربيّ إيَّاه قبل ردح من الزمن، تتكلَّم بالمصطلحات البنكيَّة المتعارَف عليها مع زملاء المهنة بإنكليزيَّة مقتصِدة مباشرة، وتتكلَّم العربيَّة مع الزبائن العرب، ومعظمهم من السُّيَّاح المهتمِّين بالسَّحب والتَّحويل، وإصدار الشيكات، ومتابعة كشوف الحسابات المتغيِّرة.

أمَّا التحاقها بكورسات الأدب الإنكليزيّ مساءً في «البوليتكنك» في بداية عهدها بلندن، فقد مكَّنها من أن تنفّي لغة النقاش والتحاور، وأن تستمتع بجلسات حميمة تجمعها بأناس من مشاربَ شتى، إنكليزًا وأجانبَ، ظلَّت المسافات بينها وبينهم تبتعد وتقترب تبعًا للظروف والمناسبات، ولكنَّها لم تتماسّ قطُّ. وبعد ما ينوف على ثلاثين عامًا من العيش في لندن، لا تزال اللُّغة الإنكليزيَّة وأصحابُها بالنِّسبة إليها جزيرةً عائمة وحدها، تقترب منها حينما تريد، وبالقدر الذي تريده، وتبتعد عنها كلَّما آنست قربًا من الجذور، التي لا تنفكّ تضرب عميقًا في وجدانها المتيقِّظ دائمًا.

كان زملاؤها في البنك في ذلك الزَّمان خليطًا من العرب والإنكليز، لا تربط بينهم غيرُ المهنة وغيرُ ثرثرات مقتضَبة في «اللَّانش آوَر»، عن الطقس ومانشيتات الصُّحف أيَّام مارغريت تاتشر وحرب فوكلاند وحزب المحافظين. وحين يغلق البنك أبوابه في الرَّابعة عصرًا، تذوب لغة المهنة وتتقلَّص إلى مفردات الحياة اليوميَّة، التي تحتاج إليها في الحافلة أو السوبرماركت، أو في أثناء الردّ على الهاتف. وأخيرًا، تضمحلُّ إلى أدنى المستويات حينما تعود في المساء إلى شقَّتها في «بارك هاوس»، لتستأنف لغتها العربيَّة مع زميلات سكن الفتيات: فايزة الفلسطينيَّة، وروز اللبنانيَّة، وصفاء العراقيَّة، والمصريَّتين سميحة ونجوى، وبشرى الإماراتيَّة، وأخيرًا الوافدة الجديدة من الكويت منال. لم تخرج من البنك بأصدقاء حقيقيِّين

من زملاء المهنة سوى أروى، الفتاة اليمنيّة ذات الملامح الطفوليّة العذبة، والتي ظلّت بالنّسبة إليها طفلة أبديّة في الآتي من الأيّام والسّنوات، وكلّما جاءت إلى بيتها لاجئة منتحِبة تبكي لوعات الحبّ وخيباته.

لم يكن «بارك هاوس» مطلع الثمانينيّات سَكنًا للفتيات العربيّات فقط، وإنّما كان، في هيكله وارتفاعه الذي يزيد على ثمانية طوابق، أشبهَ بهيئة الأمم المتّحدة، تجتمع فيه الجنسيّات والأعراق من أقطار شتّى: فتياتٌ من إيران وشرق آسيا والهند وأفريقيا، وحتّى من جامايكا وجزر موريشيوس. ويبدو أنّ فكرة تصميمه وتقسيمه شققًا ذاتَ غرف خاصّة ومَرافق مشتركة، كانت تخدم هدف تخصيصه للفتيات الشابّات فقط، ممّن تتراوح أعمارهنّ بين العشرينيّات والثلاثينيّات؛ أولئك الحديثات العهد بلندن من طالبات العلم في الجامعات، أو من الموظّفات الوافدات المتطلّعات إلى الكسب والاستقرار. و«بارك هاوس»، بنظامه الصارم وقوانينه التي تقنّن الزيارات، وتُقفل أبوابه في الحادية عشرة مساءً، غالبًا ما يشكّل، بالنّسبة إلى ساكناته، المرحلةَ الأولى في التأقلم مع الحياة اللّندنيّة، وتجربة العيش باستقلاليّة بعيدًا عن الوطن. فمعظمهنّ يغادرن خلال أشهر قليلة إلى أحياء أخرى وبيوت ملائمة أكثر، بعد أن يتّسع أمامهنّ أفقُ المعرفة بمدينة لندن وأجوائها ومعالمها.

ولكن يبقى «بارك هاوس» في ذاكرتها كطفولة غاربة، تنبعث منه رائحة أليفة، وأطيافُ لحياة مَوّارة تضجّ بالعافية. فكم كانت شقّتها مليئة بالحركة كعشّ مفتوح الجهات، تأتيه زائرات السّكن من كلّ غرفة وطابق، حتّى أصبح مرورهنّ عليها في المساءات، أو صباحات «الويك إند»، أشبهَ بطقس من طقوس حياتها اليوميّة في لندن، بل قد يتّسع المكان في ساعات الزّيارة التي تسمح بها قوانين «بارك هاوس»، لاستضافة هشام ويوسف وغيرهما من زملاء العمل والمعارف أو الأقرباء، الذين تحوّلوا، بدوام العِشرة، إلى أصدقاء حقيقيّين يُعتمَد عليهم في مواقف الحياة وطوارئها. وما بين أكواب شاي النعناع والنسكافيه وأقراص المعمول بالتمر والجوز، كانت النفوس تتجاذب، وتتفتّح القلوب، وتذوب الحكايات الصغيرة في مزيج من اللّهجات والنكهات.

وعلى قَدر ما كان المكان يتّسع للتّجمّعات، كان أيضًا مأوًى أليفًا للجَلَسات الفرديّة الحميمة، وللفضفضة، وللحكايات المبلّلة بالدّموع، وللمُتَع الصغيرة، والثرثرات السانحة. وحين تطول الجلسة، لا بدّ من أن يحضر طبق «مقلوبة» الدجاج بالقرنبيط وسلطة الخيار باللّبن، وتفوح رائحة

«كفتة البرغل» التي تستوي في الفرن على مهل. كانت روائح الطبيخ حينها جزءًا لا يتجزأ من طقس الصحبة واللّفة، وعاملَ ارتباط وثيق الصلة بصورة أمّها، التي لطالما احتفت بمن يأتي من أصحاب أخوتها وصويحبات طفولتها وصباها، هناك في بيتهم في إربد، ولطالما نشطت في تجهيز المائدة وإعداد عصير اللّيمون بالثلج، لأولئك العائدين من مشاويرهم الصيفيّة مبلّلين بالعرق ورائحة البساتين.

إن كان «بارك هاوس» أشبه بهيئة الأمم المتّحدة لتعدُّد أعراق نزيلاته، فقد كانت شقّةُ سهام ببابها المفتوح دائمًا للزائرات، والذي لا يُقفَل بالمفتاح إلّا قرابة الثانية عشرة ليلًا، أشبهَ بجامعة الدول العربيّة بلا بروتوكولات وجداول أعمال، وبلا بيانات وخُطَب. ولم تكن المسألة ضيافة مكانيّة فقط، أو مقاعدَ بسيطة متناثرة ترتخي فوقها السيقان والأجساد، وإنّما كان المكان يمتلك جاذبية روحيّة خاصّة، ورائحة لطيفة منعشة ممتزجة بهواء نظيف، هي خليط من رائحة اللّاڤندر، وبودرة تالك، ومنقوع ميراميّة، وخيار مخلوط بأوراق النعناع، وأشياء أخرى لا أسماء لها. في شقّة سهام تحضر الجذور بقوّة، وتحضر إربد وعمّان والسّلط في خزين المطبخ ومؤونته، في الزعتر المحضّر بالسمسم والسمّاق، وفي اللّبنة المكوّرة، وفي زيت الزيتون البكر، ومكدوس الباذنجان بالجوز، وفي صنوف البقلاوة والبرازق التي يحملها الزائرون لها من البلد. وتغيم لندن وملامحها، اللّهمّ إلّا في الشذرات الصّغيرة التي تدلّ على ذوق صاحبة المكان ورهافته، مثل مفارش الدانتيل الصّغيرة التي تفرشها في صينيّة التقديم، وقطع الصابون المعطّرة، وأُصص الزّرع، والتماثيل التذكاريّة المصغّرة لمعالم لندن ورموزها.

هكذا بقيت سهام مغروسة في جذورٍ تتبعها أينما حَلّت؛ جذور ملحاحة كظلّ ممتدّ بلا نهايةٍ من زمن أو مكان، ولكنّها جذور مريحة وأليفة كملمس وسائدها وفراشها حين تأوي إليه بعد يوم طويل. ولعلّها، بهذا التوحُّد بالجذور، بدأت تدرك سرّ علاقاتها بصداقات لا يُفنيها الدّهر: صداقات طفولة وصبا في الأردن، ثمّ صداقات الكويت، وصداقات لندن. بل بدأت تدرك، بشكل أكثر وضوحًا، من أين يأتيها ذلك الفَوَران القوميّ كلّما حاجّت في الحقّ الفلسطينيّ، أو حلّلت ما وراء مأساة مجزرتَي صبرا وشاتيلا، أو تحدّثت عن مآزق التّطبيع مع إسرائيل مثلًا، أو عارضت نجوى المصريّة في رأيها بشأن جمال عبد الناصر والجدل الدائر عن حقبته المليئة بالمتناقضات.

لا تدري لمَ كانت تشتطّ وتحتدم لأمور تخص الفلسطينيّين أو المصريّين، وهي الأردنيّة التي تمتدّ جذورها ما بين إربد والزرقاء، وتجري في عروقها أعرافُ البيئة وميراثها العشائريّ القحّ، بقِيَمه المحافظة التي لم تستطع أن تتحرّر منها قطّ، حتّى الآن، وهي في الخامسة والستّين. فقد بقيت منذ أن غادرت إربد في العشرين من عمرها، بصحبة شقيقها للعمل في الكويت، ثمّ إلى لندن على مشارف الثلاثين، رَهْنَ أعراف العشيرة والعائلة، هكذا بتلقائيّة مطلقة، من دون صِدام أو مساءلة: ملابس محتشمة لا تُظهر أكثر من نصف الذّراع ولا أعلى من الرُّكبة، وياقة عالية لا تكشف النّحر أو الصّدر، وعلاقات أكثر احتشامًا ومحافظة لا تسمح بالزّواج من غير الملّة، أو حتّى التّفكير في الاقتراب من هذا المحظور الذي انضمّ إلى جُملة المسلّمات الناجزة، التي حوّرت شخصها مع مرور الوقت إلى قدّيسة جميلة تُعشَق عن بُعد، وتُستلهَم منها معاني الحنان والاحتواء، من دون محاولة للعبور إلى ضفّة أخرى.

انتهت حلقة المسلسل التركي الخامسة والعشرون، ولا يزال نهار العصر اللندني طويلًا ومملًا. تتناول سهام جهاز «الآي فون» لتفحص المكالمات التي لم تردّ عليها. هذا اسم نجوى وأمامه ما يدلّ على مكالمتين لم تردّ عليهما. تتحامل على نعاسها وتطلب الرّقم، وفي ذهنها سبب للاتّصال المتكرّر، لن يخرج عن طلب لتبادل مواعيد المرضى، أو تبادل مواقع العيادات بما يتناسب وأيّ ظرف مستجدّ. ضغطت على اسم نجوى ولم يَطُل الانتظار أكثر من رنتين. أطالت الإصغاء إليها وهي تُسهب في الحديث عن عبد المنعم، أو الدكتور عبد المنعم، أستاذها في «البوليتكنك» سابقًا أيّام الدّراسة، ثمّ صديقِهما الحميم فيما تلا من سنوات في تجمُّعات المناسبات وملتقيات النادي الثقافيّ العربي.

استعادت ملامحه السّمراء المائلة إلى الخمرة، وعينيه البنيّتين الضيّقتين، واللّتين تزدادان ضيقًا كلّما أطلق قفشاته وطرائفه بلهجته المصريّة الدّارجة، وكلّما داعبهما بمسفيات محبّبة، هي مزيج من الغزل العفيف والمودّة القلبيّة الرّاقية. لم يكن جديدًا عليها حديثُ نجوى عن عبد المنعم الذي نيّف الآن على عتبة الرّابعة والسبعين ولا يزال أعزب يعيش وحيدًا. كما أنّ حكاية تدهور حالته، صحيًا وجسديًا، وإهماله شؤون بيته ونظافته، حكايةٌ تعرفها، وربّما رأت بعض مظاهرها حين زاروه في بيته الذي يقع على أطراف لندن، منذ شهور قليلة، الأمر الذي دفع بعض الأصحاب، بعد هذه الزيارة، إلى إخراجه عنوةً من البيت، وإجراءِ تنظيف شامل للمكان الذي لم يعد بيتًا. وكانت الحصيلة أكوامًا من القمامة والوجبات الفاسدة والملابس المتّسخة والمرافق البيتيّة التي تحتاج إلى إعادة تأهيل. الجديد الآن في حديث نجوى هو أنّ الأصحاب يحاولون التواصل مع أبناء أخيه في مصر، تمهيدًا ل«شحنه» إلى القاهرة عنوةً إن لزم الأمر، بعد أن باءت بالفشل محاولاتُ إقناعه بالعودة إلى بلده. وامتدّ بهما الحديث موزّعًا بين الحسرات والشجن، إلى أن انتهت المكالمة بضرورة المحاولة مع عبد المنعم من جديد، فالمرحلة التي وصل إليها تحتاج إلى حسم، ولندن لم تعد مكانًا ملائمًا لشيخوخته ووحدته.

انتهت المكالمة ولم تعد سهام راغبة في فحص ما تبقّى من قائمة المكالمات التي لم يُرَدَّ عليها. أحقًّا تجاوز الدكتور عبد المنعم الرّابعة والسّبعين؟ تذكّرت الجدل الذي دار في ذكرى مولده السّبعين، وهم يتحلّقون حول «الكيكة» المتقشّفة التي جُهّزت كيفما اتّفق، بعد أن ذكّرهم

يوسف بهذا اليوم، وضرورة المرور على الدكتور لتبديد وحدته وإنعاش سنوات شيخوخته الزاحفة. ليلتها، راوغ عبد المنعم بشأن احتماليَّة عدم الدِّقَّة في تحديد سنة الميلاد، ولعلَّه أصغر بسنة أو سنتين، ممتنًا، عبر قهقهة طويلة، لقلَّة الحرص على تسجيل يوم مولده الميمون في قريته الصَّغيرة في حينه. ثمَّ أردف لجعل القهقهة الطويلة ذاتَ مغزى، قائلًا إنَّ «خصم» سنة أو سنتين ربَّما ينفع، وخصوصًا أنَّه لم يجد العروسة بعد.

بدا لسهام أنَّ موضوع «العروسة» لم يعد موضوعًا يصلح للمزاح، أكثر من كونه مدعاة إلى الرِّثاء والقلق. ووجدت نفسها متحفِّزة للسُّؤال عن أماندا التي ترعرعت في يوركشير، ثمَّ قَدِمت إلى لندن لبدء مشروعها الصَّغير في تأسيس محلّ للكتب والقرطاسيَّة والهدايا الصَّغيرة. بهذا التَّعريف، قدَّمها عبد المنعم إليها، حين كانت حديثة عهد به وبلندن وبشلَّة الأصحاب، وكأنَّه يقدِّم في أماندا أجملَ ما يبهره فيها: إنكليزيَّتها الصافية العريقة، وطموحها، وكونها امرأة عمليَّة وعصريَّة متوَّجة بالشقرة والبياض. لا تذكر كم مرَّ من سنوات على صحبة عبد المنعم لأماندا ومساكنتها، ثمَّ اختفائها وظهور ليز في حياته، والتي قدَّمها بعبارة واحدة: «ليز: تصغير إليزابيث»، ثمَّ أردف: «يعني زيّ الملكة إليزابيث، وهي ملكة قلبي». وبدا لهم جميعًا أنَّ استمرار عهد المَلكيَّة على قلب عبد المنعم قد لا يطول، على الرَّغم من أمانيهم الحارَّة بعكس ذلك، وهذا ما كان. تُرى، كم مرّ من سنوات على وحدته المُذقِعة، وخلوّ بيته الرِّيفي الصَّغير من رائحة امرأة؟

مَن يقترب من عبد المنعم، أو يحلِّل أحاديثه المتناثرة عن نشأته المحافظة والمحاطة بالرعاية، وعلاقته الحميمة بأمِّه وأَخَواته، أو يتفحَّص مكتبته التي اختلطت فيها الكتب العربيَّة بالإنكليزيَّة والفرنسيَّة، فسوف يدرك مدى حرصه على أناه المصريَّة المتأصِّلة من التبعثر أو الاهتزاز، على الرَّغم من أنَّه في الضِّفَّة الأخرى يتوق إلى التَّجريب والانطلاق، وتذوُّق ما يتيحه له المهجر من حرِّيَّة الفكر والسلوك والاعتقاد. وبين هاتين الضفَّتين، تعقَّدت مسألة الزواج، وتعرَّضت طوال سنوات للتَّسويف والتَّأجيل. يتوق إلى أماندا وليز، ويحبّ فيهما صورةَ المرأة القويَّة الطَّموحة، التي تُعِين على الحياة العمليَّة، وتحسّن النسل، وترفع مستوى تطلُّعاته وإحساسه بذاته أمام أهله في مصر، ومَن بقي من أسلافه وأبناء عمومته في القرية، فيغشاه شيء من الزهوّ، لو على سبيل الافتراض قدَّمها إليهم: «ليز: تصغير إليزابيث. يعني زيّ ما أكون تجوزت ملكة بريطانيا». ولكن أماندا لن تطبخ له «الملوخية»، أو تكوي قميصه وتلمِّع حذاءه قبل الخروج. ولا ليز ستفهم

لهجة أمه ودعواتها الصالحات له بالتّوفيق، أو تضحك على نكاته اللّاذعة وقفشاته. أمّا مناداتها له باسمه بلكنتها الأجنبيّة فسيكون مدعاة لغمزاتٍ لا تنتهي، حين تتقلّص الحروف التّسعة لاسمه المفخّم إلى ثلاثة حروف مندغمة في «مِنم»! وهو بعد هذا العمر الذي أمضاه هنا، بين القطارات ومحطّات الأندرغراوند، ومسارح ليستر سكوير ووست منيستر، والكليّات البريطانيّة ومكتباتها ومراكز أبحاثها، لم يعد يصلح لزينب بنت خالته، أو صفيّة زميلته أيّام الجامعة، ويعتقد أنّ أيًا منهما لم تعدَ قيد الاعتبار، أو حتّى في قيد الحياة.

لا تدري سهام ما الذي يجعل خيالها يفترض إمكانيّة استقامة حياة عبد المنعم في حالة زواجه بأماندا أو ليز؟ وهو سؤال لا يزال مطروحًا من دون إجابة قاطعة؛ سؤالٌ ينبش في مسائل تتعلّق بحواجز وعوائق ثقافيّة ونفسيّة غائرة الجذور. لا تدري إذا كانت قد طرحت هذا السّؤال على نفسها قطُّ، أو تخيّلت يومًا إمكانيّة ارتباطها بزوج بريطاني؟ صفاء، زميلتهم العراقيّة في «بارك هاوس»، فعلتها، وتزوّجت ببريطاني. كان زواجًا مدنيًا، لم يُثر تساؤلًا أو نبشًا للموانع والزواجر؛ إذ ماذا يمكن أن تفعل وقد سُدّت أمامها أبواب الحيلة؟ غادرت صفاء العراق في مطلع الثمانينيّات، ولا نيّة لها للرّجوع، كما يغادر الناجون، بأعجوبة، سفينةً آخذة بالغرق. لم تحمل معها من عدّة الرحيل، حين غادرت السّجن الكبير نحو المنفى، سوى المرارات القديمة والمخاوف الغامضة، وغيرَ التوجُس الحَذِر من كلّ ما هو «بعثي» أو له صلة بالسّفارة العراقيّة. بقيت صفاء هنا وهي تتشبّث بالإقامة الهشّة التي تحصل عليها من عملها في السّفارات العربيّة كموظّفة، ما تكاد تستقرّ في إحداها حتّى تنتقل إلى غيرها، بحسب الفرص المتاحة. وعلى الرّغم من ضآلتها وهدوئها الظاهر، فإنّها كانت تنطوي على عصاميّة واضحة وحسن تدبير، واكتفاء بما تتيحه حياتها المتقشّفة من معارف وأصدقاء، أغلبهم عراقيُون مهاجرون.

لم يكن يخطر في بال أحد أنّ صفاء كانت تنظر إلى ما هو أبعد من دائرة المعارف، أو أنّها من الممكن أن تعقد علاقة حميمة تصل إلى مرحلة الارتباط الزوجي ببريطاني، وهي التي لا تدور إلّا في دائرة السّفارات العربيّة، ودائرة علاقاتها بمواطنيها، التي حرصت على أن تكون «أخويّة» محضة. حين حضروا حفل زواجها كانت تبدو سعيدة ومرهَقة في الوقت ذاته، تتشبّث بذراع العريس الذي سمح لنفسه في يوم زفافه ببضع كؤوس إضافيّة من النّبيذ، لعلّه يكون أكثر انشراحًا وهو يدعوها إلى الرّقص

المنفرد، أمام أخلاط من المدعوّين الذين انقسموا بعدها مجموعتين، كلّ مجموعة تعبّر عمّا يناسبها من أهازيج وأغانٍ، اختلطت فيها الأصواتُ واللّهجات وأنماط الرّقص. وهي في تلك الدّائرة لا تزال تتعلّق بذراع العريس الذي اختلط عليه أمر الغناء والرّقص، كأنّها تتعلّق بقشّة أخيرة نحو الحرّيّة والكينونة الإنسانيّة المتمثّلة في الجنسيّة البريطانيّة. رأتها سهام مصادفة منذ سنوات في أحد المجمّعات التّجاريّة، وكان بصحبتها صبيّان جميلان في سنّ المراهقة. لم يظهر الزّوج في الصّورة، وبدا الحديث عنه مشوبًا بالغموض، غير أنّ صفاء بدت قانعة بإنجازها، فقد غدت بريطانيّة الجنسيّة، وأمًّا لولدين بريطانيّين، وهذا يكفي.

ماذا يفعل بها تراسُلُ الخواطر اليوم، وكيف تأتي مفردات يومها لتضع شذرات السوانح في أماكنها الصحيحة. ثمّ كيف تأخذها هذه السوانح قُدُمًا موجةً في إثر موجة، وحلقةً في إثر حلقة. عاودتها اللّوعة وهي تسترجع وجه لبنى التي ماتت بالسرطان منذ ستّة أشهر. ما علاقة لبنى بعبد المنعم... بصفاء؟ لم تستوعب بعدُ كيف اختُطفت لبنى اختطافًا. كأنّهما لا تزالان تتحدّثان عبر الهاتف تلك الأحاديثَ المسائيّة الطويلة التي تمتدّ حتّى ساعة متأخّرة. سهام تصغي ولبنى تسترسل متحدّثةً عن اكتئابها، وعلاقتها الزوجيّة المتوتّرة بوليام، ثمّ انفصالها عنه في غرفة منفردة. لم تستطع الصّغيرة إيما أن تردم الفجوة بين أبويها. تذكّرت أنّ إيما لم تعد صغيرة الآن بعد أن التحقت بالجامعة وكبرت، وهي تتنفّس رائحة الصمت والكلمات المقتضبة الباردة التي لا تعني شيئًا. لم تفهم سهام كيف يمكن أن تتحوّل شعلة الحبّ إلى هذا المَوات، وكيف يمكن أن يكون وليام اللّطيف و«الجنتلمان» مصدرَ إرهاق وزهق للبنى.

تذكّرته وهو يجزّ أعشاب المرجة الخلفيّة لبيتهما الجميل عند أطراف لندن، ثمّ وهو يرقص لابنته رقصته المضحكة في عيد ميلادها الثامن، على أنغام أغنية بوب مشهورة حينذاك. تتنهّد سهام وتستعيد حكاية الشابّ البريطاني الذي جاء إلى مدينة الزرقاء في الأردن في مهمّة عمل، تتعلّق بشغفه في إعداد دراسة ميدانيّة عن المحميّات الطبيعيّة في المنطقة. ثمّ كيف تحوّل ذلك إلى شغف آخر بتعلُّم اللّغة العربيّة، من خلال كُورس مكثّف في الجامعة الأردنيّة. هناك كانت لبنى تعمل سكرتيرة مبتدئة، وهناك تعلّق قلبه بها. ربّما أعجب بشَعَرها الفاحم المموّج وعينيها السّوداوين، وبسحرها الشرقي المختلف. وأعجبت هي بقامته الفارعة وأنفه الدّقيق وخُصلة شعره الكستنائي التي تلوح على جبينه كلّما حرّكها

النَّسيم. تزوَّج وليام بعد ذلك بلبنى كونهما على دِين واحد، على الرَّغم من معارضة عائلته الأرستقراطيَّة هذه الزيجة المختلطة الدِّماء. وبدا الاثنان ثنائيًا منسجمًا، يتبادلان اللَّمسات والنَّظرات والاهتمام في كلّ جَمع ومناسبة. ولا يزالان في صورة «هامستيد هيث» إيَّاها منطلقين في ضحك ممتدّ عبر الزمن... ما أجملَهما! فماذا حدث لتكتئب لبنى وتنفصل، ثمَّ لتدخل في مساومات بشأن بيع بيت الزوجيّة، ثمَّ لتعود إلى الأردن بعد عمر مديد من الزواج، لتشتري شقَّة خاصَّة بها في عمَّان وتستقرَّ هناك؟ وأخيرًا، تقع ضحيَّة لسرطان الرِّئة وتموت خلال ثلاثة أشهر. تتساءل سهام إن كان ثمَّة علاقة بين السَّجائر والاكتئاب وزيجة تعاني الصَّقيع والصَّمت؟ أم هي الدِّماء المختلطة التي تأسن في العروق، ويُمرضها البؤس، فتعود إلى جذورها؟

ستأتي اليوم فايزة حاملةً بعضًا من طبخة الأمس التي أعدّتها لعيد ميلاد ابن أخيها. تقول إنّها أتقنت الطّبخة، على الرّغم من أنّها مستاءة من أخيها وزوجته اللّذين لا يُقيمان لها قَدرًا، ولم يربّيا أبناءهما على البِرّ بها. حسنًا تفعل بجلب ما يمكن أكله معًا، وخصوصًا أن الطبخ قد تقلّصت أولويّته في حياة سهام، وما عادت الروائح المرحّبة تفوح من مطبخها الصّغير. باتت تكتفي الآن بحبّة فاكهة كلّما عادت جائعة من الخارج، موزة أو نصف تفاحة، أو تجلس لتقشّر لنفسها برتقالة، مع الحرص على بقاء أكبر قدر من لبّ القشرة من أجل الألياف المفيدة كما ينصح خبراء التغذية. وإذا عاودها الجوع اكتفت بالقليل من الفاصوليا الخضراء، تشوّحها بالثوم وزيت الزيتون، وحبّة طماطم مع قطعة خبز محمّصة، أو تبتكر لنفسها لقمة «على الطاير» ممّا تيسّر في الثلّاجة أو الفريزر.

لمن تطبخ الآن؟ وقد خفّت أرجل الزائرين وتلاشى الأصحاب في منعطفات حيواتهم المتغيّرة. لم يتغيّروا هم فقط، وإنّما هي أيضًا تغيّرت وتصالحت مع العزلة والهدوء، وشاشة الفيسبوك، ومسلسلات الميلودراما، وطلّات فايزة المتقطّعة. تذكّرت أنّ فايزة لم تكن ضمن الوجوه في صورة «هامستد هيث» التي راودتها في غفوة الظهيرة، ربّما لأنّها لم تكن بالقرب مقارنة بهم حينذاك، مع أنّها كانت تقطن معهم في «بارك هاوس»، ولكنّها ظلّت منعزلة نوعًا ما، ومفضّلة الانكفاء على شؤونها. أمّا الآن، فلم يبقَ غيرها. تتّصل لتلقي جملتين أو ثلاثًا عن مُزعجات يومها، أو تخبر عن صحّة أمّها التي لا تبشّر بخير، أو تمرّ آخر النّهار لتغفو فوق الكنبة بعد أن يطول الصّمت بينهما، ولا يبقى غير صوت التلفزيون يعرض ما تبقّى من المسلسل التركي أو نشرة الأخبار. حين تغفو فايزة تشعر سهام بسلام عابر وهي تتابع أنفاسها المتردّدة، وتبدو لها أكثر استسلامًا، وملامحها أكثر رقّة وتسامحًا.

اعتادت سهام في السّنوات الأخيرة مزاج فايزة المتوتّر وكلماتها القاطعة، حين تعلّق أو تنهي حوارًا لا يعجبها. واعتادت أكثر طريقتها السلبيّة في التّفكير والتّعبير، وتنهّداتها التي غدت جزءًا من إيقاع صوتها، تُطلقها آتيةً من ماضٍ، لا تريد أن تغادره؛ ماضٍ مُتعِب ومشوّش تجد لذّة في اجتراره من دون دواعٍ مُقنعة. وهي التي اعتادت استقبال الشكاوى في محيطها العملي وتفاصيل يومها، باتت تأخذ مزاج فايزة وطباعها على محمل المسلّمات والقضاء الذي لا رادّ له. بل، في أحيانٍ كثيرة، تشعر بأنّها

أصبحت تشبهها، لا في الظّرف والعمر فقط، وإنّما أيضًا في ملامحها، ونبرة صوتها وقَرَفها من الحياة. هل القرب مُعْدٍ إلى هذه الدّرجة؟ أطلقت هذا التّساؤل وهي تستخير نفسها بشأن المتغيّرات الآخذة في التشكُّل. كيف أصبحت نافدة الصبر، متحفّزةً، تميل إلى المواجهة والحدّة، وغالبًا ما تتحوّل مكالماتها الهاتفيّة مع موظّف البنك الذي غفل، أو سائقِ التاكسي الذي تأخّر، إلى مشروع مشاحنة وشجار!

تسألها فايزة عبر الموبايل، وهي تدير سيّارتها اللّانسر بعنف، باحثةً عن موقف رصيف مناسب، عمّا يمكن أن تجلبه معها من السّوبرماركت القريب، وهي في صدد الصعود إلى شقّتها في الطابق الأوّل. باتت زيارات فايزة لها أشبهَ بالهروب المهذّب من أجواء مرض أمّها المقعدة، ومن الجدل المتكرّر مع أخيها بشأن تقاسم المسؤوليّات. بدأت سهام تدرك معنى ذلك الجدل وتلك الشكاوى بعد معرفتها العميقة بفايزة، التي ستفقد شخصيّتها الاعتباريّة بلا شك، لو سلخت نفسها من هذا الإطار. تتخيّل سهامُ فايزةَ وقد خلعت كلّ شيء: مسؤوليّة أمّها؛ دفع قسط البيت من راتبها؛ توتُّرها بشأن إعداد غداء الأسبوع عند زيارة أسرة أخيها؛ ماضي الشّتات الذي عانته كفلسطينيّة بين لبنان وليبيا ولندن، وكلّ ما تعلّق به من ذكريات وصُوَر غدت غذاءً يوميًا يصلح للاجترار في كلّ شاردة وواردة. وكأنّها لا تزال بعد هذا العمر تلك الصبيّةَ الموزّعة الفؤاد، الباحثةَ عن مستقرّ. ويبدو أنّ مستقرّ لندن، على الرّغم من الجنسيّة البريطانيّة، وفرصِ العمل، وتوفُّر السكن، ولين العيش مع مَن تبقّى من العائلة، لم ينجح في تحوير شخصيّتها وإخراجها من تمثُّل دور الضّحية التي جارت عليها الأيّام. لم تحاول سهام أن تؤدّي دور المعالج الرّوحيّ مع فايزة، على الرّغم من أنّ ذلك كان سِمَة أصيلة فيها، ولطالما شعرت، وهي تأسو القلوب المنكسرة وتطبطب على كواهل المتعبين من رفاق الدّرب والحياة، بأنّ اللّه قد خلقها لهذه المهمّة في المقام الأوّل، وأنّها حتّى لو خرجت بعد مشوار الحياة بلا شيء يخصّها، فيكفيها أنّها قامت بهذا الدّور بحبّ وتفهُّم كبيرين.

مع فايزة لن ينفع هذا الدّور، تُسِرّ سهام هذا اليقين في نفسها؛ إذ ماذا سيتبقّى لفايزة كي تعرّف به نفسها وتعيش عليه ما تبقّى من الحياة. ليس من اللّائق أن تُحرَم فكرتَها عن نفسها، كونها مكافحةً وكادحة وفلسطينيّة ومسؤولة، وما يجرّ ذلك من صفات تراها أصيلة ولازمة من لوازم تكوينها النّفسيّ. هي لم تتزوّج ولم تنجب، والاقتراب من أيّ علاقات حميمة ماضية تخصُّها يبقى غامضًا ومشوّشًا على الرّغم من القرب. ترى

سهام أنّها وصلت مع فايزة إلى مرحلة من القبول، وبات التعامل معها اعتياديًا ويمكن احتماله على الرّغم من المطبّات والمُزعجات. ترى نفسها راضية ومتسامحة ولامبالية، ويمكن لها الآن أن تمرّر الأشياء والأشخاص بقَذرٍ من التحمُّل بعد أن انعدمت البدائل، أو كادت.

كعادتها كلَّ صباح، تستيقظ سهام لتضع رأسها تحت «الشّاور»، تاركةً رائحة الشامبو تعبق في الشُّقّة الصّغيرة مع البخار المتسرّب في الأنحاء. خفيفةٌ هي هذا الصّباح على الرّغم ممّا ينتظرها من مشاوير متضاربة، ومن صعود وهبوط في الباصات وسيّارات الأجرة. ترى نفسها قادرة على الرّغم من ركبتها المعطوبة التي تستعين عليها بالعكّاز حينًا، وحينًا يأخذها العناد فتسير من دون عصا. اليوم، تشعر ببهجة طارئة، وهي تشمّ رائحة النّظافة تفوح من قطع السّجاد، وترى رفوف المطبخ وقد عاد إليها شيء من التّرتيب بعد فوضى جامحة، وتراكمِ أوانٍ لم يعد لها فائدة، ومعلّبات انتهت صلاحيّتها، وزجاجات توابل تحوّلت محتوياتها إلى تراب. فكّرت في شطارة العاملة التي استدعتها بالأمس للتّنظيف الأسبوعي، وبدا لها أنّها تشتغل بضمير وفنّ. تناولت الورقة المسجّل عليها رقم العاملة ونقلته إلى قائمة الأرقام المحفوظة في هاتفها النقّال تحت اسم «لهلوبة»، لئلّا تخلط بينها وبين أسماء القائمة الطويلة التي تحتاج إلى جلسة تنقيح، بعد أن مات منهم مَن مات، واختفى مَن اختفى، وتلاشى مَن تلاشى في ضباب النّسيان، حتّى ما عادت تعرف مَن هم هؤلاء القابعون في ذاكرة هاتفها النقّال.

غاص وجهها في المنشفة وهي تدلّك فروة رأسها تاركة عبق «الكومفورت» يطيّر ما تبقّى من نعاس البارحة. استقبلت المرآة المستديرة لتطلق بضع نفخات من مجفّف الشعر على خصلات قليلة بدأت تتفرّق وترق كريش طائر. حانت منها التفاتة إلى الكوميدينة المستطيلة حيث اعتادت أن ترصّ عليها منمنماتٍ تذكاريّةً، وأنتيكاتٍ مصغّرةً انتقتها في جولات غابرة من «بورتابيلو رود» أيّام السبت، وصُوَرًا عائليّة، وأيقونةً فنّيّة لمريم العذراء والطفل يسوع تتدلّى فوقهما سلسلة بصليب مصغّر، أهدتها إيّاه خالتها ذاتَ عيد غابر. أمّا الزّهريّات الصّغيرة، فلطالما اجتهدت في أن تطعّمها ببضع زهرات طازجة تشتريها من السوبرماركت مع حاجاتها اليوميّة من حليب وعصير وخبز. تقول إنّ الزهور الطازجة هي ما تكافئ به نفسها، بالإضافة إلى ما تُضفيه على المكان من بهجة وأنس. اعتادت أن تقرّب باقة الزهرات الرّقيقة إلى إطار صورة أمّها وتضعهما في زاوية محدّدة، كأنّهما معًا، باقة الزهرات والصّورة، تصنعان لقطة فنّيّة تُرضي الذّوق وتريح النّظر. ولكن، ماذا فعلت عاملة التّنظيف؟ ولمَ أزاحت الصُّورة إلى الوسط، وليس إلى الزاوية؟

نهضت قبل أن تطفئ مجفِّف الشعر لتعيد الأشياء إلى سابق عهدها. أمسكت الإطار ونظرت مليًا إلى الوجه الذي جعَّده الزمن. كانت أمُّها في السَّادسة والأربعين تقريبًا حين التقطت لها هذه الصُورة بالأسود والأبيض من أجل استخراج وثيقة جواز سفر. كانت حينها تهيِّئ نفسها للسَّفر إلى الكويت مطلع السبعينيَّات لزيارة ولديها سهام ورياض، فكانت هذه الصُورة التي أبرزتْ أهمَّ ملامحها بلا افتعال: المهابة الممزوجة بالرِّقَّة مع ظلِّ ابتسامة، وعينين بحزنٍ شفيف ونظرة بعيدة، كأنَّهما تستبصران الآتي من رحيل وشيك، فتجلس باستسلام أمام الكاميرا وتنتظر. كان قدومها للزيارة حدثًا مبهجًا هشَّ له الأصدقاء الذين استقبلوها بحفاوة في المطار كأنَّها أمُّهم جميعًا. جاءت حاملة ما استطاعت حمله من مؤونة المطبخ وحوائجه، فائحةً برائحة أمومتها المتحفِّظة المتقشِّفة. وحين يخرج ولداها للعمل كلَّ صباح، يعاودها الشعور بطفولتهما البعيدة، فتنشط لترتيب الأسرَّة وغسل الصحون وصفِّ الأحذية والتَّفكير في طبخة اليوم. ولولا تلك البلكونة التي تطلُّ على الشارع العامِّ من الطابق الثاني، ولفحاتُ الحرّ التي تأتيها من النَّافذة، لَظنَّت أنَّها لا تزال في إربد، تنتظر عودة أبنائها الأربعة، ثمَّ الخمسة، ثمَّ الستَّة، من المدرسة، وقد فاحت رائحة قلي الباذنجان وفرم البقدونس في مطبخها المطلِّ على البستان.

تفكِّر في أمِّها مليًا هذا الصَّباح؛ في انكفائها على الصَّمت والصَّبر؛ في ابتساماتها القليلة المتحفِّظة؛ في غموضها الشفيف، وتنهُّداتها التي تنطلق من قعر روحها في محاولة لإزاحة الجبل الذي يتَّكئ على قلبها، كما تقول. لم توفِّر لها أجواء الصَّخب في أسرتها المكوَّنة من ثمانية أشخاص فرصةَ القرب من أمِّها. كانت هناك دائمًا تلك الفجوةُ أو الحائط. وكان هناك الأخوة والأخوات الذين جاءت هي في منتصف عِقدهم. وكان هناك الحزم الذي لا يقارب الشدَّة أكثر ممَّا يقارب الحرص. وكان هناك الانشغال الدَّائم بمتطلَّبات لا تنتهي إلَّا لتبدأ من جديد. وعلى الرَّغم من هذا التوتُّر اليومي، فإنَّ مزاج الأمِّ كان يفسح مكانًا في البيت لقدوم أصحاب الطفولة، للتَّرحيب والضيافة؛ للسَّماح بمساحات من اللَّهو والصَّخب؛ لتقديم العصائر والسندويشات ممَّا يتوفَّر من حوائج البيت، حتَّى لو كان حفنة من سكَّر وزيت على رغيف.

ولعلَّ هذا الانفتاح؛ انفتاح البيت وانفتاح القلب، بات سِمة متأصِّلة في بيت أسعد نحَّاس، تنتقل بالوراثة والجينات منذ عهد جدِّها «شيخ النحَّاسين»، الذي كانت مضافته لا تُغلَق أبوابُها، وقهوته تُعَدُّ صباحًا ومساءً

من دون انقطاع. ويمكن لأيّ ممَّن عرفوا سهام نحّاس أو عَبَروا حياتها، إدراكُ هذا البعد المهمّ في تكوينها، وتحسُّس قدرتها الفطريّة على جذب مَن حولها؛ على الاندغام في همومهم وتفاصيل حيواتهم؛ على العناية التلقائيّة التي تتلبَّسها وتحوِّلها إلى أمّ رؤوم تتحرّى الحاجات وتسدّ الثغرات، وتصنع ذلك الحَبل السّحريّ من الوصل الذي لا يبلى. لم تستطع الغربة في الكويت أو لندن أن تغيِّر هذه السمة المتأصِّلة فيها، إن لم تَزِدها رسوخًا، فغدا الأصدقاء أشباهًا للأهل وذوي القربى، تشاركهم في اللّقمة والرزق والأيّام الجميلة والعصيبة من دون حذر أو ندم. وحين تتأمّل الآن خلوَ شقّتها من الهرج والمرج القديمين، واقتصارَ يومها على طلّة متعجِّلة من فايزة، أو اتّصالٍ عابر من نجوى أو يوسف، تبتسم متفهِّمةً، ومحاوِلة أن تزيح أيّ شعور بالفراغ لا داعي له.

تُكمل سهام ارتداء ما تيسر ممّا لا يحتاج إلى كيّ. لا داعي لأن تطيل التأمُّل والاختيار، بعد أن تضاءل هامش الاختيارات إلى قطع الملابس الأكثر راحة وحياديّة. لن يخرج ذلك عن بنطالين باللّونين الأسود والكحلي، وثلاث بلوزات قطنيّة، وتنُّورتين. أمّا الأحذية، فلا تزال مسطّحةً كُعوبُها، أو في أحسن الأحوال لا تزيد على ربع كَعْب، مع ضرورة وجود بِطانات مريحة لقدمين متعبتين وكادحتين. تذكَّرتْ رحلاتها اليوميّة بالحافلات وقطارات الأنفاق، وكم كانت تفضِّل الجلوس في الطّابق العلويّ في الحافلة إذا كان مشوارها مسترخيًا من ضغط الوقت. وإذا حالفها الحظّ وكان المقعد الأماميّ الملاصق للواجهة الزجاجيّة الأماميّة شاغرًا، فذلك أفضل، حيث يمكن أن تستمتع بالفرجة في عاصمة مزدحمة بصنوف البشر وألوان المعروضات. مبانٍ عريقة، وأسواقٌ عامرة، وشوارع متفرِّعة لا تزال تخبّئ في الزوايا الكثيرَ من الأسرار والمفاجآت التي تحفِّز على الاستكشاف، حتّى لمن طال عهده بالسكنى والاستقرار فيها.

كانت تلك المُتَعُ الصّغيرة من الفرجة والاستكشاف إحدى هواياتها منذ سنوات غبرت، وخصوصًا إذا كانت بصحبة ضيف أو زائر يأتي إلى لندن خطفًا. أمّا الآن، فقد تقلّصت المشاوير جدًّا، واقتصرت على مشاوير المستشفيات والعيادات الطبّيّة، حيث ينتظرها زبائنها من المرضى، أو مشاويرِ التبضُّع لما تحتاج إليه من مؤونة قليلة، وبقدر ما تستطيع أن تحمل وترتقي به الدرج إلى الطابق الأوّل. حتّى ركوبُ الحافلات ما عاد متاحًا دائمًا، وخصوصًا حين تحرن ركبتها المعطوبة، الأمر الذي يجعل استدعاء سيّارة الأجرة حتّى باب المسكن هو الأكثر ملاءمة. وعلى الرّغم

من ذلك، فلا بأس من تفقُّد كارنيه الباص والتأكُّد من وجوده في حقيبة يدها، إذ يبقى التنقُّل بالمواصلات العامَّة أكثر توفيرًا بعد أن أصبحت senior منذ بلوغها عامَها الستِّين، وأمكن لها منذئذ أن تتنقل بالمجانً.

لا بدّ اليوم من المرور على فايزة وتفقُّد حال أمّها. ستشتظ فايزة كالعادة حين ترى زائرًا، وستبالغ في إظهار العناية بأمّ مُسنَّة ترقد طريحة الفراش. ستعاود محاوَلةَ إطعامها، وسؤالها عمَّا إذا كانت الوسادة مريحة، أو اللّحاف كما يجب، أو إرغامها على الإجابة عن سؤالٍ ما يتعلَّق بأوجاعها. غالبًا ما يُخيَّل إلى سهام أنَّ فايزة قد تلبّست دور «خادمة القوم» التي كرّست حياتها للعائلة حتَّى آخر قطرة من دم وعرق! وأنَّها متقمِّصة جدًّا هذا الدّورَ، سواءً في الحديث عنه، أو ممارسته، أو الهروب إليه طواعية، كأنَّ بدائل الحياة قد انعدمت، أو لم تعدْ ذات قيمة.

نظرت سهام إلى عينَي أمّ فايزة ووجها الأبيض الصَّغير المحاط بالطرحة، ولاحظت كم هي هشَّة ورقيقة، يترقرق في محيّاها بقايا جَمال وصبر؛ ليس صبرًا على المرض فقط، وإنَّما على حياة منقضية سايرتها بحكمة ورضًى وقبول بالقضاء. لا تدري لماذا تبدو لها، في استسلامها وسلامها الرّوحي، نقيضًا لابنتها فايزة، المتذمِّرة دائمًا؛ المستفَزّة بلا داعٍ؛ الممتلئة غضبًا. دنت من فراش المريضة وأمسكت بيدها. واستها بكلمات قليلة، ثمَّ ركنت إلى الصمت، وجلست ترتشف الشاي بالنعناع استجلابًا لمزيد من الهدوء.

كان الخريف على وشك المغادرة. لم يبقَ منه سوى هذه الأكداس من الأوراق الصُّفر، التي سرعان ما تتحوَّل إلى اللَّون البرتقالي، ثمّ البنيّ المحمَرّ. ستمطر السَّماء أكثر في الأيَّام المقبلة، وستعرّي بمائها ما تبقَّى من ورق عالق على غصونه. حين يأتي ديسمبر، ستكون الأشجار عارية تمامًا؛ عاريةً وجميلة ومثيرة للتأمُّل والشَّجن. وربَّما ستثلج أيضًا هذا العام، وتمتلئ أفاريز النّوافذ بالأبيض، ويهطل نديف الثلج طوال اللَّيل على الأرصفة والسُّطوح. وحين يستيقظ الصَّباح سيكون أكثر سطوعًا وبياضًا. في ديسمبر، توفِّيت أمّ فايزة بسلام وهي نائمة. لم تثلج حين ذهب الجميع إلى مراسم دفنها، غير أنَّ المقبرة كانت ساكنة وأليفة وقريبة جدًّا من السماء.

كانت العتمة الشتويّة الزاحفة ترسم تدرُّجات من الرُّمادي حين انتهوا من مراسم الدَّفن. أمسكت سميحة بيد سهام، وتجاورت الاثنتان وهما تسيران نحو السيَّارة. كانتا، بمعطفيهما الأسود والكحلي ووشاحيهما الفاتحين، أشبهَ بطيرين لطيفين من طيور البطريق، يسيران بتؤدة وحكمة، وقد تقارب رأساهما كأنَّهما تستكملان حديثًا قديمًا لم ينتهِ. صعدت سهام وسميحة إلى السيَّارة المركونة، وتقدَّم هشام زوج سميحة نحو باب السائق. أدار مفتاح التَّشغيل فانطلق البخار الحاز يبدّد برودة المساء. كان الاتِّفاق أن يصطحبا سهامَ بعد مراسم العزاء إلى مطعمها الكائن في أحد منعطفات «كوينز واي» لتمضية بقية الأمسية حول وجبة خفيفة وركوة قهوة. كان ذلك أفضل لئلَّا تخلو إلى نفسها في هذا اليوم الثقيل.

سارت بهم السيَّارة في صمت لا يقطعه غيرُ جُمَل مقتضَبة بين الزوجين بين فترة وأخرى، الأمر الذي أراح سهامَ وترك لها فرصة الخلو إلى ذاتها. مالت بظهرها إلى الوراء باسترخاء وتركت الطريق يمرّ بها سريعًا كما تمرّ الأيَّام. تأمَّلت كيف تركض المصابيح والإعلانات والأشجار المعتِّمة والبيوت الصَّغيرة ذات الأسطح القرميديَّة. كلُّها تركض إلى الوراء وتختفي في اللَّيل.

أغمضت سهام عينيها متمنِّية أن تأخذها غفوة سانحة. وعلى الرُّغم من أنَّ سميحة تجلس أمامها في المقعد الأمامي، فإنَّها رأتها تتسرَّب من خلال الباب، وتعود لتجلس في ركنها المفضَّل هناك في «بارك هاوس» منذ سنوات خلت. تطلق ضحكتها إيَّاها؛ ضحكة هي مزيج من الغنج والأنوثة على الطريقة المصريَّة؛ ضحكة لم تستطع سهام أن تقلِّدها يومًا. ولكنَّها كانت كفيلة بأن تجعل سميحةَ تلك المرأة المغناج، وفي الوقت ذاته الحازمة الصارمة التي لا يُداس لها على طرف. تركت مصر إلى لندن بعد زيجتين فاشلتين، وبعد محاولات للإنجاب لم تؤتِ ثمارها، وبعد ملاحاة مع أمِّها وصِدام. لم يمنعها تعليمها المتواضع الذي لا يزيد على القراءة والكتابة، ولا جهلُها اللُّغةَ الإنكليزيَّة، ولا قلَّةُ خبرتها بالسَّفر وإجراءات الإقامة، من أن تجرِّب حظَّها في بقعة جديدة وأجواء مختلفة. وبعد ما ينوف على ثلاثين عامًا من الإقامة بلندن واكتساب الجنسيَّة البريطانيَّة، لا تزال سميحة تلوك الكلمات الإنكليزيَّة القليلة التي تعرفها بلكنة مصريَّة صرفة. ولا تزال في لحظات الانشراح القليلة تطلق تلك الضحكة المُغوية على الرَّغم من أدائها فريضة الحجّ وارتدائها الحجابَ مؤخَّرًا.

أجمل ما في سميحة أنّها، على الرّغم ممّا تراكم في داخلها من منغّصات، كانت مصدر بهجة نادرة في الجلسات واللّقاءات. كلّ ما هو جادّ أو معقّد يمكن أن يمرّ من خلال صياغاتها اللّغويّة وتعابيرها إلى أفق آخر، فيتحوّل إلى ما هو خفيف وبسيط ومَرِح. كانت أشبه بغربال يسرّب الهواء النقيّ ويسمح للضحكات بأن تتوالد. حين تطيل الغيبة أو تقصّر في حقّ إحداهنّ، تسارع إلى التّكفير عن التّقصير بتمرير بعض ما تتقن من خدمات، وإن بطريقة محبّبة، كأن تعرض عمل مانيكير للأظافر، أو صبغة شعر، أو تزجيج حواجب. تقدّم ذلك بحبّ وإتقان كبيرين، مالئةً الوقت بحضورها المنعش وضحكاتها الصافية. كانت سميحة وظلّت على الرّغم من الآتي من هموم بسيطةً وتلقائيّة كطفلة لم تكبر.

حين تضمّ الجلسات سميحة ونجوى معًا تبدأ الفوارق بفرزهما، كلٌّ على حِدَة. صحيح أنّ نجوى تحاول في البدء مسايرة أجواء سميحة وتعليقاتها المتناثرة عن طبخة احترقت، أو فاتورة كهرباء لا تُخسن ملء بياناتها، أو ضِيقها من بثرة ظهرت على أنفها في الصباح، إلّا أنّ نجوى سرعان ما تنحرف بوتيرة الحديث نحو ما هو مختلف، كأنّها تهش عن الجوّ ما يعكّر صفوه. ستبدأ بتذكير سهام بالموعد القادم لأمسية النادي الثقافيّ العربيّ، وأنّه سيكون للدكتور عبد المنعم مساهمة مهمّة. ثمّ تسهب بشأن عدم ارتياحها إلى أسماء بعض المنتسبين، وخصوصًا أنّهم يتطلّعون إلى التّرشّح لمجلس إدارة النادي، وما قد يجرّه ذلك من صِدامات لاختلاف المشارب والتوجّهات. بعدها، تعرّج إلى الإعراب عن ارتياحها إلى اختيار مجموعتها القصصيّة الصادرة مؤخّرًا لتكون موضوع نقاش مطلع الشهر القادم. وقد تختم بتعليقات عابرة عن مقال الدكتور عبد المنعم في صحيفة «القدس»، وكيف فنّد الدوافع وراء مذبحتَي صبرا وشاتيلا بموضوعيّة بعيدة عن الانفعال. وستتدخّل حينها سهام وتأخذ الموضوع نحو بُعده الإنسانيّ الآخر، ثمّ تحتدم الآراء وتتشعّب وتخرج عن سياقاتها.

في مثل هذا الجوّ، تأخذ سميحة جانب الحياد الذي يجنّبها الخوض فيما لا تُحسنه، وقد تلتزم الصمت الحَذِر، وتنهض في معظم الأحوال مقترحةً إعدادَ المشروبات الساخنة أو الباردة، نافضة عنها ما يعكّر المزاج ويطيّر الأنس. وحين يتحلّق الجميع حول طاولة المقبلات والسّلَطات، تحمل سميحة صينيّةَ مسقّعةِ الباذنجان بصلصة الطماطم والشطّة الحارّة، وهي اختراعها الأجمل، وتدور على الجالسين وهي تعزم عليهم بحفاوة وإصرار، مع اعتذار مُوارب عن الإكثار من الشطّة لأنّها تحبّها هكذا.

تتطاير غفوة سهام ما إن تشعر بالوقوف المفاجئ للسيَّارة الذي دفع جسدها المسترخي إلى الأمام. لم يزل هشام لا يُحسن الفرملة في تصوُّرها، كأنَّه يكتشف الإشارة الحمراء دائمًا في آخر لحظة. سيَّارتهما صغيرة واقتصاديَّة وتفي بالغرض، وهما يبدوان في جلستهما في المقعدين الأماميَّين، وفي صمتهما المتقطِّع، ثنائيًا متصالحًا مع ما مضى وما سيأتي، ومتصالحًا مع الاختلاف ومنغِّصات العيش وظروف الحياة التي تأتي كيفما تأتي.

حين جاء هشام إلى لندن، كان مثله كمثل السوريِّين من مُواطنيه، يحلم بافتتاح مطعم. ولكن ضِيق ذات اليد وقلَّة خبرته في المجال، جعلاه يؤجِّل الحلم. عمل في البدء في السفارات العربيَّة فيما يتوفَّر من فرص. مراسل أو رجل أمن أو مندوب خدمات، لا يهمّ المسمَّى ما دام يقضي حاجة ويُعين على الحياة. لم يكن يتصوَّر حينها وهو في مقتبل شبابه وتشتُّت الدروب أمامه أنَّه من الممكن أن يرتبط بامرأة مختلفة عنه كلَّ هذا الاختلاف، في اللَّهجة والنَّشأة والسِّمات والطباع، وأن تكبره بسبع سنوات، وأن تكون متزوِّجة قبله مرَّتين، وغيرَ قادرة على الإنجاب. كان يعتقد أنَّ العلاقة لن تخرج عن الملاطفة التي لا تضرّ، أو التجاذب الموقَّت الذي يمكن أن ينسحب منه حين تجفّ ينابيع الرَّغبات. فقد ودَّع مارغريت بسلاسة وأغلق في وجهها أبوابَ قلبه ما إن بدأ الملل، وكثُر الإنفاق على الهدايا ودعوات العشاء وبطاقات المعايدة.

لكنَّ سميحة ليست مارغريت «ودخول الحمّام مش زيّ خروجه». معنًى من المؤكَّد أنَّه استوعبه، إن لم يكن بصريح العبارة، فبإيحاءات أخرى. لم يكن هشام حينها محاصَرًا بحزم سميحة فقط، وإنَّما وجد نفسه محاصَرًا أيضًا بأمومتها المغدقة، وبحبال من أنوثة ودفء ربَّما افتقدهما بعد أن بَعُدَ عهده بظلِّ الأمّ ورائحة العائلة. وكانت هي، بذكائها وأنوثتها الفيَّاضة، تعرف كيف تعزف على الأوتار المرهَفة في شخصيَّة هشام؛ الشابّ الرَّقيق الحاشية، الخجولِ، الممتلئ بالحنين إلى الحضن والاحتواء، الحائرِ أمام خيارات العيش، الحالِم الذي انقطعت به حبال الحلم، أو كادت.

لم تكن سميحة، بعصاميَّتها المتأصِّلة، أكثرَ منه غنًى أو أوفر مالًا، ولكنَّها أتقنت فنّ التَّدبير والتعامل مع أمورها الماليَّة بحكمة. واستطاعت، بما تملكه من إيراد شقَّة مصر المتواضع، ومن مساهمة من أمّها بعد إلحاح، وممَّا تكسبه من وظيفتها في تصوير المستندات وترتيب الملفَّات في أحد أقسام السفارة العُمانيَّة، أن توفِّر مبلغًا تشارك به هشامًا في مشروعه، أو

بالأحرى مشروعهما معًا بعد الزواج، وهو المطعم الذي لا يزالان حتَّى الآن يكدحان في سبيل الإبقاء عليه، تحت وطأة غلاء المعيشة وارتفاع نسبة الضريبة السَّنويَّة. ولم يكن المطعم هو الهمّ الوحيد في حياتهما، وإنَّما ظلَّت الحياة تدخِّر لهما مفاجآت أخرى، وبقيا، كما يبدو، على استعداد للمواجهة والتعايش.

وصلت السيَّارة أخيرًا إلى «مطعم الوادي»، وترجَّلت الصديقتان أمام مدخله، بينما انحرف هشام بالسيَّارة نحو الشارع الخلفيّ بحثًا عن موقفه المعتاد الذي ما انفك يدفع أجرته شهريًا، كما هو معمول به قانونيًا في عاصمة مزدحمة ومنظَّمة مثل لندن، يظلّ الإنسان يدفع فيها حتَّى ثمنَ الهواء الذي يتنشَّقه. أشارت سميحة على سهام بالجلوس إلى طاولتها المفضَّلة، هناك في الزاوية الداخليَّة التي توفِّر قَدرًا من الخصوصيَّة، وتُطلّ في الوقت ذاته عبر إطار صغير من الزجاج على الشارع الجانبي، حيث يمكن التمتُّع برؤية محلٍّ للزهور وجزء من صالون حلاقة.

تيقَّنت سهام من منفعة تجاور المحلين، حين خرج ذلك الشاب الوسيم بقصَّة شعر طازجة، ثمَّ اشترى باقة صغيرة من زهور «التوليب»؛ أربع زهرات صفراوات يانعات. ربَّما كان على موعد حبّ، وهذه الزهرات يقتنيها ليُرضي بها فتاته بعد خصام. تذكَّرتْ طُرفة لسميحة ذات علاقة بالزهور، وهي طرفة غدت جزءًا من سيرتها، تأتي على ذكرها كلَّما عنّت الحاجة. كانت سميحة قريبة عهد بلندن وناسها حينذاك، حين حمل لها أحد المعجبين، وكان بريطانيًا، باقةً من الورد تعبيرًا عن ذوقه وإعجابه الطارئ. نظرت إلى الزهور مليًا ثمَّ قالت: «كان الأفضل لو أتيت لي ب«فَرخة» أطبخها للعشاء، بدلًا من الزهور!» ربَّما أرادت بهذه الإجابة المبطَّنة، بخفَّة الظلّ، أن تعبّر عن رأيها في أنَّ «الفرخة» أكثر منفعة من الزهور التي لا تؤكَل، ولكن يبقى الشك فيما إذا وصلت الرِّسالة إلى حامل الزهور، أم لا.

عادت سميحة إلى الطاولة أخيرًا لتنضمَ إلى سهام، بعد أن طلبت القهوة التركيَّة وقطعتين من البقلاوة العربيَّة، وبعد أن راجعت طلبات الزبائن القليلين في هذا الوقت من اليوم، وأعطت بعض التَّعليمات للشيف. نظرت سهام مليًا إلى وجه سميحة وقد ظهرت عليه علامات الإجهاد والعمر، على الرَّغم من أنَّها لم تزل شديدة الاعتناء ببشرتها وبخط الكحل الذي ترسمه بعناية على الجفن العلويّ، ولا تزال، بالرَّغم من الحجاب المودرن، تصبغ شعرها بالكستنائي المحمرّ الذي تحبه، تاركةً المجال لبعض

الخصلات أن تظهر أعلى الجبين. سألتها سهام عن ابنتها، آية، وعمَّا إذا التقتها مؤخَّرًا، ثمَّ أدركت مباشرة أنَّها لا تريد أن تعكِّر صفو الجلسة الهادئة، وودَّت لو سحبت سؤالها، أو لو أنَّ سميحة لم تسمعه في الأصل، وواصلت شرب فنجانها، ثمَّ انشغلت بقراءة «البخت»، كما كانت تفعل في السَّنوات الخوالي وقد انعقد حاجباها ودخلت في حالة من التَّركيز تستطلع الغيب. هل كانت سميحة حينذاك ترى آية عبر خطوط القهوة سابحةً في بياض الفنجان؟ وترى ما آلت إليه الأحوال الآن؟

لم يعلق الصَّمت طويلًا في هواء المكان، حين قطعه دخول هشام ومروره أمام الطاولة الصَّغيرة، حيث يقبع فنجانان لم يفرغا بعدُ، وسؤالٌ لمَا يَزَل معلَّقًا. أشار على سهام بأنَّه سيكون جاهزًا لتوصيلها إلى مسكنها متى أرادت ذلك، ولها أن تأخذ وقتها وتسترخي، فالمساء لم يزل في أوَّله. تنفَّست سهام بشيء من الارتياح لدخوله في الوقت المناسب، ليقطع الطريق على سؤالها الذي أتى في غير وقته، أو خارج سياق جلسة مسترخية في أمسية شتويَّة ذات شجون. استعادت وجه أمّ فايزة التي تنام اللَّيلة في مكان آخر بعيدًا عن فراشها، في قبر غريب ربَّما يهطل عليه الثلج قرابة الفجر، وفي مكان أبعد ما يكون عن قريتها الفلسطينيَّة حيث ينام أسلافها؛ وجهها المنكمش الصَّغير المحاط بطرحة بيضاء، كما رأته آخر مرَّة. وتمنَّت لو استطاع ذلك الوجه أن يسافر إلى حيث يريد، كما تفعل الطيور في هجراتها الموسميَّة باحثةً عن الدفء.

ارتاحت سهام إلى ذوبان السُّؤال في دفء المكان، كأنَّها تمتنّ في سرِّها للمدفئة الكهربائيَّة التي تحاكي في تصميمها مدفئةَ الجمر، ممتدَّةً بشكل متَّقن نحو مدخنة ما عادت تنفث الدُّخان، بعد أن فقدت معظم المداخن في هذا البلد مهمَّتها الأصليَّة، وغدت مجرَّد ديكور يُنبِئ عن شخصيَّة المعمار الكلاسيكي، الذي أريدَ له أن يظلَّ كما هو. وإمعانًا في التَّجاهل ربَّما بادرت سميحة لتكسر وتيرة الصَّمت باستفسارها عن موعد وصول منال من الكويت، كما نما إلى علمها مسبقًا. تحوير دفَّة الحديث نحو منال بثَّ في الجلسة شيئًا من الانتعاش، وحرَّك في سهام أمرًا آخر كانت تُدرجه ضمن أولويَّات جلسة اللَّيلة، وهو ترتيب موعد للعشاء في «مطعم الوادي» بعد وصول منال ومَن معها من الأبناء، مع تأكيد ضمّ بعض ضيوف الأيَّام الخوالي إلى الدَّعوة. قد تحتاج دعوة العشاء، كالمعتاد، إلى طاولتين أو ثلاث، مع فتح مجال تحديد اليوم والوقت في إثر وصول منال، التي بات سفرها إلى لندن يأخذ شكل المفاجآت بعد أن تحرَّرت من

الوظيفة، كما تقول.

في رسالتها لسهام عبر الإيميل، تشير منال إلى الفراغ المريح الذي حرَّرها من روتين العمل الوظيفي بعد خدمة خمسة وعشرين عامًا، وتشير إلى الأبناء الذين كبروا وتركوا لها مساحة من الوقت، وإلى فوضى نفسيَّة طارئة تكالبت واستفحلت. حدَّثتها عن اكتئابها الذي تتمنَّى أن يكون موقتًا، وعن ضرورة الاشتغال على ذاتها المبعثرة وكأنَّها تبدأ من جديد، تعيد ترتيب أشيائها، وتفكِّر في آفاق محتملة لامرأة في منتصف العمر تثق بإمكانيَاتها وما خلَّفته لها التجارب والعمر من حكمة. كم أصبح عمرها الآن؟ هي التي تصغر سهام بخمس سنوات.

كانت السنوات الخمس الفاصلة بينهما تبدو لمنال في لقائهما الأوَّل مطلع الثمانينيَّات سنواتِ خبرة وحكمة اكتسبتهما سهام من العيش في لندن، ومن معرفة أجواء البلد وأحواله. لم تدلَّها سهام حينئذ على «بارك هاوس» فقط، كأفضل مكان للسكن لفتاة مثلها، طالبةِ علم حديثة عهد بعاصمة الضباب، وإنَّما استطاعت، بما تملكه من كاريزما جاذبة، أن تجعلها قريبة منها منذ اللِّقاء الأوَّل، ثمَّ جارتَها في سكن الفتيات، ثمَّ صديقةَ عمر لسنين مقبلة. ستدرك منال في القادم من العمر والسنوات، معنى أن يضع الله في طريقها هذه العلامةَ، لتجعل الطريق أكثر أمنًا وأنسًا، آخذة بيدها نحو الضوء في عتمة مواربة.

كان اللِّقاء الأوَّل بينهما في البنك العربي، حين جاءت منال لفتح حساب بنكي، حاملةً الشيك الذي صُرف لها من مكتب الملحق الثقافي في سفارة بلدها، كأوَّل راتب تتقاضاه في أيَّامها الأولى، في مدينة لا تزال جديدة ومربكة ومثيرة في الوقت نفسه. كانت سهام تجلس وراء الزجاج في مكتبها الصَّغير، مجتهدةً في وضع كلّ شيء في مكانه المناسب وبما تسمح به الامتدادات المتقشِّفة: أصيص نبتة متسلِّقة؛ صورة تجمعها بفتاتين تشبهانها في استدارة الوجه والابتسامة؛ كوب خزفي يضمّ باقة من الأقلام؛ ماكينة تصوير مستندات ورزمة أوراق بأختام وتواقيع متنوِّعة. حين جاءت منال في نحو التَّاسعة صباحًا، كان الوقت لا يزال مبكِّرًا. لم يمتلئ المكان حينها بالمراجعين الذين لا يبدأ يومهم إلَّا متأخِّرًا، وجُلُّهم من السَّائحين أو رجال الأعمال العرب.

بدت ساعات الصَّباح الأولى رائقة في مكان بدأ موظَّفوه للتوّ بالتفكير في ارتشاف قهوة سريعة. ومنال جالسة في متَّسع الوقت تستمع إلى إجراءات فتح الحساب، وتنظر باهتمام إلى وجهٍ أليف، غيرَ مدركة أنَّه

سيرافقها في سنواتها القادمة في لندن، ثمّ في سنوات تالية ممتدّة على الطريق. سألتها سهام عن أيّامها الأولى في لندن، من قبيل الاطمئنان على فتاة لم تستقرّ أوضاعها الدراسيّة والمعيشيّة بعد، مثلها مثل غيرها من الطلبة العرب الذين يمرّون على هذا المكتب، وهم لا يزالون أغرارًا يتلفّتون حولهم، مجتهدين في أن يستوعبوا ملامح المكان وإيقاع الحياة على مهل.

هذه الفتاة بأعوامها السّبعة والعشرين، وجواز سفرها الكويتيّ الأزرق الملقى على حافّة المكتب، تطلق في رأس سهام أطيافًا أليفة، وتعيدها إلى شقّة «حَوَلّي»، وإلى حرارة صيف، وإلى بحرٍ صافٍ سبحت في مياهه، ورفاقٍ ضحكت معهم كثيرًا وطبخت لهم واكتشفت معهم المكان، وطارت مثلهم ذاتًا حرّة، تخطّط لحياة مقبلة وآمال رحبة تصخب في جسد فتيّ وشباب يانع. تعيدها إلى أمّها تأتيهم زائرة، لتكتشف وجعها الخبيث، ثمّ اضمحلالها السّريع. تتذكّر «مستشفى الصّباح» والعمليّة العاجلة التي لم تتمّ، ثمّ عودتها إلى إربد نحيلةً شاحبة وخاوية من الأمل. تتذكّر تلقّيها خبرَ الوفاة في سيّارة شقيقها وقد احتقن وجهه واختنق بعبرته وقد خانته رباطة الجأش، ثمّ امتلاء شقّة «حَولّي» بالمعزّين من الرّفاق والأصدقاء، وجلوسها بينهم هشّةً متهافتة ومعبّأة بالسّواد.

ودّت سهام، وقد امتلأ قلبها بطيور الشجن، أن تقترب من منال وتسألها: تُرى، أين كانت في مثل هذا اليوم قبل عشر سنوات من الآن؟ تتخيّلها حينذاك صبيّة في صفوف الثانويّة، وربّما في المدرسة الواقعة في بداية شارعهم، تحمل حقيبة كتبها وتصعد إلى الباص الذي يمرّ تحت شرفتهم مباشرة. ترى نفسها تقف في الشرفة لتسقي نبتة ناحلة تغالب حرارة الشمس، فتلمح تلك الفتاة جالسةً قرب نافذة غائمة في حافلة تعبر بها الأيّام، لتوصلها الآن إلى هذا الكرسي الذي تجلس عليه، وتوصلها هي إلى هذا المكتب الواقع في هذه البناية، المطلّة على هذا الشّارع، والواقعةِ في هذه المدينة الأبعد ما تكون عن «حَوَلّي». لكأنّها، وهي في دائرة الأفكار، إزاء دمية روسيّة، تفتح واحدة فتجد أخرى، ثمّ تفتح الأخرى فتجد ثالثة ورابعة.

لم يكن السّؤال عن الأحوال غيرَ بداية الخيط الذي سيقود منالَ إلى «بارك هاوس»؛ الاختيارِ الأمثل والبديل للفنادق الموقّتة وغرف الاستديو التي لا تشجّع على الاستقرار. سكنت منال شقّة في الطابق السادس، شغرت فيها غرفة لها، لتجد نفسها مشارِكة لصفاء في المطبخ وصالة

الجلوس. وهكذا، قُدِّر لمنال أن تتعرَّف لأوَّل مرَّة إلى صفاء؛ فتاةٍ ضئيلة الجسم تبتسم تلك الابتسامة المموَّهة بطيفٍ من الحزن. يظهر ذلك بلمعة العين الشبيهة بدمعة مؤجَّلة، ويظهر في حذرها وأحاديثها المتقطِّعة عن أهلها في العراق. تبدو وحيدة على الرَّغم من معارفها القليلين، ولكنَّها في الوقت ذاته صُلبة متحفِّزة ومتلبِّسة لدورها كفتاة اختارت أن تصنع لنفسها حياة أخرى، بعيدًا عن منغِّصات العيش في بلدها.

تكاد صفاء لا تصدِّق كيف استطاعت الخروج من العراق في آخر لحظة، على الرَّغم من المعوِّقات والمحاذير التي استحالت إلى منع قاطع من السفر، وحوَّلت العراق إلى سجن كبير. ثمَّ بدأت طلائع الحرب مع إيران، لتزداد المعاناة والقيود. مكالماتها النادرة مع أمِّها لا تخرج عن التَّحيَّات المعتادة واجترار التوافه من التفاصيل اليوميَّة، تحسُّبًا لرقابة محتملة أو تنصُّت لا تُحمَد عقباه. تعود بعد المكالمة أكثرَ حزنًا وقلقًا، كأنَّها ذهبت إلى بغداد وعادت محمَّلة بالشجن والمخاوف الغامضة. ترتدي «الروب» المنزليَ وتنتعل خفَّين من فراء، ثمَّ تتكوَّر فوق الكنبة متَّخذةً وضعَ الجنين، وتروح في وصلة من الصمت، وهي تلفُّ خصلة من شعرها حول سبابتها برتابة، منتظرةً ساعةَ النوم.

بين منال وصفاء انعقدت تلك الصِّلة المتعارَفُ عليها بين شريكتين في شقَّة واحدة، لكلِّ منهما أن تخلو بنفسها في غرفتها، بينما يبقى ما هو خارج الغرفة مشاعًا بينهما. بشيء من الاتِّفاق غير المعلَن، ترتَّبت الأشياء الصَّغيرة، فأصبح لكلِّ واحدة خزانةٌ في المطبخ، ورفٌّ في الثلاجة، ومكانٌ معروف في صالة الجلوس، وأوقاتٌ محدَّدة لتحضير وجبة، أو تشغيل التلفزيون، أو استقبال ضيف عابر. ومضت الأيَّام بقَدر كبير من الاتِّفاق وقَدر أقلَّ من الاختلاف. لكلِّ منهما طريقها في الصَّباح: صفاء نحو عملها في السِّفارة كمحاسبة، ومنال نحو الجامعة التي تحضِّر فيها بحثها للدكتوراه.

أمَّا المساء، فقد يسمح بتبادل بعض الأحاديث المتقطِّعة، أو الجلوسِ بصمت أمام شاشة أو كتاب، ثمَّ الخلودِ إلى النوم وانتظارِ أن تمرَّ الأيَّام. عرفت منال بعض الأشياء عن صفاء، وغابت عنها أشياءُ أخرى. وانفصلت الشريكتان بعد ذلك إلى مساكن أخرى وأخرى طوال سنواتهما القليلة التالية. ذابت صفاء في خضمِّ حياتها المبعثَرة بين عمل تهرع إليه كلَّ يوم بالتزام منقطع النَّظير كأنَّه جوهر بقائها، وبين حياة اجتهدت في أن تنكفئ على تخفٍّ غامض بات يتعذَّر فيه الاستدلال على عنوان أو رقم

هاتف، إلى أن تلقَّت منال ذات يوم، عبر البريد، دعوةً إلى حضور حفل زفاف صفاء إلى مواطن بريطاني، لم تعرف كيف توطَّدت علاقتها به. فكان الحفل ومراسمه آخرَ عهدها بصفاء، التي لا تزال تنام في ذاكرتها ضئيلةً ومتحفِّزة، ومبتسمة تلك الابتسامةَ المموَّهة بطيف من الحزن.

From: sihamnahhas@yahoo.com

To: manal_mosayyan@hotmail.com

الصديقة الغالية منال

تنفَّستُ الصُّعداء حين تلقَّيتُ بريدكِ الإلكترونيَّ أمس الأوَّل، محتويًا على ملفِ الأوراقِ الأولى من تباشير الكتابة. هل أستطيعُ أن أقولَ إنَّ الفكرة لم تعد مجرَّد فكرة، وإنَّها آخذة في التبلوُر على شكل رواية؟ وإنَّ ما ظننتِه شطحة من الشطحات أو جنونًا مؤجَّلًا، بات مشروعًا كتابيًا يدبُّ على قدمين؟

هكذا جعلتِنا نعود مرَّة أخرى إلى مطالع حيواتنا، نرفل بالغضارة والتوقُّع، كأنَّ السنوات لم تطأ قلوبنا وتلامس وجوهنا، وتترك لنا حكمة العمر ممزوجة بالرَّماد.

أعجبني في سياق الكتابة، أنَّ رؤيتكِ لا تنحصر في الشخوص، وإنَّما تضع «المدينة» في بؤرة الحدث، وإنْ بشكل موارب. لندن، المكانُ الذي تنعقد فيه الأحداث، والمدينة التي تترك روحها وبصماتها على الشخصيَّات، وتساهم في رسم مصائرهم؛ كلُّنا، يا عزيزتي، عجنتنا لندن، ودخلنا معها في حوارات سخيَّة، ونحن نتشكَّل ونكابد التأقلم والمتغيِّرات، ونُحصي المباهج والخسائر، ثمَّ نمضي قُدُمًا.

سأجتهد في الأيَّام المقبلة في أن أسجِّل لكِ ما يعنّ لي من أفكار عن علاقتي النَّفسيَّة بمدينة لندن، وعن الخيط الرَّهيف المتين الذي يربطني بها، منذ ما ينوف على ثلاثة عقود. خيط مضفَّر بالعُقد والالتواءات، ومتأرجح في فضاء شاسع لا يزال.

كلٌّ منَّا له حكايته الخاصَّة مع لندن، سواءٌ مَن أتاها طلبًا للحرِّيَّة، أو للرزق، أو للعلم، أو للبحث عن ذاته في أوْجِها، أو لتحقيق أمانٍ مبهَمة هي مزيج من ذلك كلِّه. وها أنتِ تلمِّين شتاتنا بهذه الحكايات الموغلة في التقصِّي، والموغلة في الحنين والصِّدق، صانعةً لنا هذه الوجبة الشَّهيَّة من حياة كانت تشبهنا، ولا تزال.

لكِ محبَّتي الخالصة، ودعواتي بالإلهام ومواصلة الكتابة.

دمتِ بألف خير

سهام نخاس

لندن، 25 آب/

أغسطس 2017 م

From:: manal_mosayyan@hotmail.com

To:: sihamnahhas@yahoo.com

أيّتها الرُّوح الأجمل... يا سهام...

أصبتِ في حدسك، وأنتِ تلتقطين ظلال المدينة المتماهية في الشخوص. لندن العجوز العريقة، والفتيّة الناهضة، ترفل في بريقها في كلّ آن. وإنْ كنتُ أشعر بأنّها كانت أكثر بهاءً وجذبًا في الثمانينيّات مقارنة بحالها الآن، أم تُرانا كنّا نحن أكثرَ عنفوانًا وغضارة؟!

تقولين إنّك ستحدّثينني عن روح المدينة. وأنا أحاول أن أدير في رأسي معنًى محدّدًا ل «روح المدينة»، لعلّني أجد تعريفًا لائقًا لذلك الشّعور بالانسراب في لبّ الأشياء، والدّخول معها في تلك الجدليّة المستمرّة من القبول والرّفض.

أربعة مشاهد تمرّ الآن في رأسي خطفًا، لا أدري إن كانت ستجيب عن سؤال «روح المدينة» وتتماسّ مع معناه، أو ستسبح بعيدًا كسمكات مهاجرة في مصبّ نهر.

المشهد الأوّل يأخذني إلى تلك الأمسية والنهارُ يوشك على الانتهاء، وأنتِ معي، نبحث عن مطعم صغير في «ليستر سكوير» لتناول وجبة خفيفة. دلفنا إلى باب صغير ظنناه ركنًا للمأكولات البسيطة. الباب أخذنا إلى دَرَج نازل إلى قبو. القبو ينفتح على حُجرة تسبح في عتمة شفيفة. الحجرة يا للعجب ليست صالة طعام، وإنّما مسرح مصغَّر. مجرّد مساحة لا تزيد على خمسة أمتار مربّعة، نصفها مهيّأ بديكورات مسرحية، والنّصف الآخر رُصت فيه كراسيَ لجمهور ضئيل لن يزيد على ثمانية أشخاص. جلسنا معًا، وليس بيننا وبين الممثّلين أيُّ فاصلٍ، وإنّما بَدَونا نحن والممثّلون جزءًا من مشهد حيّ، يخاطبوننا، ويطيلون النَّظر إلى أعيننا، ويُلقون في وجوهنا سحرَهم. كانت الإضاءة المدروسة، والصمتُ المرهَف، وحميميّة المشاهد التمثيليّة، تأخذنا جميعًا إلى عالم مُوازٍ من السحر.

المشهد الثاني، وأنا أغذّ السّير صباحًا في شارعك المتفرّع من «نوتنغ هيل غيت»، نحو عملي اليومي في مختبر الكلّيّة. لمحت أحدهم في مظهر رجال الأعمال: بدلة أنيقة، وطلّة منعشة، يحمل حقيبة يدويّة، «سامسونايت»، كتلك التي يحملها رجال الأعمال عادة. فجأة يبرز من الاتّجاه الآخر شابٌ مترنّح من الأصول الأفريقيّة. يرمق رجل

الأعمال برهة، ثمَّ يتناول زجاجة فارغة، يكسرها بضربة واحدة على الحائط، مبقيًا ما تبقَّى من عُنقها الحادّ في يده. يواجه الشابُ الأسود رجلَ الأعمال الأبيض، محاولًا أن يسحب الحقيبة اليدوية منه بالقوَّة، بينما الآخر يتشبَّث بها باستماتة. حين يئس الشابّ من مبتغاه، طعن الرجلَ برأس الزجاجة في عنقه. انبجس الدم، وترنَّح المطعون في دوائر باحثًا عن نجدة، وهو لا يزال ممسكًا بحقيبته الغالية. في عمق المشهد، يسير الشابُ الأسود مبتعدًا بلا مبالاة، بعد أن يئس من الغنيمة. غاص قلبي رعبًا، وركضتُ مبتعدة عن الضحية والجاني.

المشهد الثالث يعود إلى يومٍ منعش من أيَّامي الأولى في لندن؛ اليوم الذي اكتشفتُ فيه «هولاند بارك». كان يومًا شتويًا ماطرًا، يقلّ فيه السابلة والمتنزِّهون. يومٌ يجعل للسَّكينة معنًى، حين تدبّ وئيدةً كطقس مَهيب ينعقد في الخلاء، وأنا وحدي. ما كدتُ أتوغَّل في ذلك السَّحر، حتى وجدتني في غابة يهبط بها الضباب وئيدًا، ويشفُ عن ذرّاتٍ من هباء. الأشجار متسامقة ومتقاربة يحنو بعضها على بعض، متهدلةً أغصانُها بالأوراق الرَّطبة والبخار والظلّ. كان زخُّ المطر فوق الأوراق يصنع نقرًا لذيذًا، ورائحةُ التربة تضوع، والممرَّاتُ كانت مبلَّلةً ومغرية، والصمتُ آسرًا، فيما عدا صيحة بعيدة لطائر، أو خشخشة قريبة لسنجاب يهرب إلى غصن يقيه البلل. مشيتُ مسحورة في الغابة، كأنَّني «ليلى» ذات الرداء الأحمر. بيد أنَّ ردائي لم يكن أحمرَ، ولم يكن ثمَّة ذئب. لم يكن هناك غيرُ الرهبة والسكينة والوَحدة الآسرة، وغيرُ ملامح مضبَّبة لقصائد كيتس ووردز وورث، وهي تغنِّي وتنتحب أمام هذا البهاء، برومانسيَّة مغدقة.

المشهد الرابع، في المتحف البريطانيّ إيَّاه، القريب من «راسل سكوير». قد يُصاب المتجوّل في المتحف بشيء من البلادة وهو يمرّ بالآثار الحجريَّة للرُّومان واليونان والفرس والفينيقيِّين والأشوريِّين. ولكنَّ الزائر لا يملك إلَّا أن يقف متأمِّلًا، ومطلقًا الأسئلةَ، كما حدث لي، وأنا أرمق تلك المومياء المصريَّة، محفوظة في صندوق زجاجيّ شفيف، وهي ترقد منكمشة على البِلى، متهافتة على عظام مكسوَّة بلحم مقدَّد. مومياء ربَّما لا تزال تحلم بتوت عنخ آمون ومجد الفراعنة وطَمي النيل والصَّحراء البعيدة وشمس الشرق.

هذه المومياء المعتَّقة، لم تُطلق في ذهني السُّؤال الوجوديّ إيَّاه عن الزَّمن والصيرورة والموت وعبث البحث عن الخلود، وإنَّما أيقظت

فيّ التساؤل عن معنى التثاقف، وصِدام الحضارات، وغَلَبة المستعمِر، والحوارات المؤجَّلة بشأن نهب آثار الأمم، والتربُّع بعنجهيَّة فوق أمجادها الآفلة.

هل استطعتُ يا ترى أن أمسَّ بهذه الشواهد معنى «روح المدينة»، أو أقترب منها؟ لا أدري، ولستُ أزعم أنَّني في السَّنوات التي أمضيتها هناك، استطعتُ أن أرسم لي تصوُّرًا نهائيًا لروح المدينة. أعتقد أنَّ لندن، أو أيَّ مدينة عريقة أخرى، تبقى منكفئة على أسرارها، التي قد تلوح واضحة أحيانًا، أو تتخفَّى، في أحيانٍ أخرى، بثوب الغموض الذي يُغري بالاكتشاف.

بانتظار مساجلاتك عن المدينة، أو عن حياة ثلَّة الأصدقاء، وما نضج فيها من ثمر الذكريات.

تحيات، ومحبَّة
دائمة
منال مسيَّان
الكويت، 20
أيلول/سبتمبر 2017
م

أدارت سهام مفتاح شقّتها ودلفت إلى الداخل، لتستقبلها تلك الرّائحة الأليفة التي هي مزيج من عطرها المفضّل ونكهة الميرامية ونفحة عالقة من سائل غسل الأواني. وقبل أن تتّجه لتشغيل التلفزيون، لوّحت من النافذة لهشام الذي أوصلها للتوّ، وبقي منتظرًا حتّى يطمئنّ إلى ارتقائها الدّرج إلى الطابق الأوّل بسلام، بعد أن ساءت حالة ركبتها في الآونة الأخيرة.

هبطت إلى مقعدها المفضّل تلتقط أنفاسها، ثمّ ضغطت على مشغل التلفزيون لتمتلئ الصالة الصّغيرة بالصّوت والضوء. لم تعتد أن يكون المكان صامتًا، وإنّما هناك دائمًا التلفزيون الذي يظلّ يشتغل طوال النّهار واللّيل، مالئًا الفراغ بنثارات المشاهد التمثيليّة ونشرات الأخبار والبرامج الحواريّة. أصوات وإعلانات وخلفيّات موسيقيّة، كلّها تتوزّع في المكان وتندس في الزوايا والأركان وتحت قطع الأثاث لتملأ الفجوات الشاغرة. لا تنتبه سهام كثيرًا لما يدور على الشاشة، إذ يكفي أنّ هناك صوتًا يثرثر ويندلق في فراغ المكان، ويطرد تلك الوحشة المتلكّئة التي تزداد مع قدوم اللّيل. حتّى وهي تتصفّح الفيسبوك أو الإيميل على اللاب توب، لا بدّ من أن تظل خلفية المكان حيّة ومضيئة بشاشة البلازما العريضة، بحيث يتسنّى لها بين الفينة والأخرى أن تلقي نظرة خاطفة على مشهدٍ ما من المسلسل التركي أو الهندي، حين يصل إلى حبكة مهمّة أو حوار ذكي ذي مغزى.

منذ أن ركّبت «الرسيفر» الذي يلتقط «عرب سات» و«نايل سات»، ومنذ أن انكفأت على نفسها، واكتفت بوظيفة مترجمة للمرضى العرب في مستشفيات لندن، وهي تدير ظهرها لما يخصّ الشأن البريطاني العامّ. تقلّص اهتمامها بما يدور في البرلمان البريطاني، وبحواراتهم على المقاعد الجلديّة الخضراء التي تنقلها التلفزة. ولم تعد تتابع العروض الحيّة الساخرة على قناة «اي تي في»، و«بي بي سي 4»، وتطلق ضحكتها إيّاها إعجابًا بنكتة إنكليزيّة مواربة. حتّى المسلسلات الإنكليزيّة الكلاسيكيّة التي تابعتها على مدى سنوات، بدأت تنقرض وتتلاشى من أولويّاتها. ولم يعد برنامجها المفضّل عن مزادات الأنتيك، والذي يبثّ يوم الأحد، مفضّلًا. كأنّ سهامَ تنفض يدها من عالم ما عاد يستهويها، وتنكص شيئًا فشيئًا نحو قوقعة فارغة، لا تسمع فيها سوى صدى أنفاسها.

عاودها وجه منال وهي تنظر إلى قائمة الرّسائل الإلكترونيّة المحفوظة في ملفّ شخصيّ، ووَدّت لو أعادت فتح رسالتها الواردة منذ أسبوع، والتي تتحدّث فيها عن همومها الأخيرة، فلربّما أخذها شيء من النّشاط للردّ عليها ومبادلتها بعضًا من شؤونها ومستجدّاتها. تظلّ الكتابة مختلفة عن الكلام الشّفهيّ المرسل، الذي يبدو لها وهو يندلق من الحنجرة خاويًا ومتهافتًا ومبدّدًا في الريح. وهي، على الرَّغم من ندرة تعاملها مع الكتابة، إلّا أنّ أسلوبها لا يفتقد تلك الالتماعات إذا حرّكه حافز من حماسة أو عاطفة.

كم تحبّ تلك المساجلات النادرة التي تكتبها منال كلّما عنّت لها الفضفضة وطفح كيل ما تحمل. تكتب بذوق ورهافة. تمزج الفكر بالعاطفة بِنِسَب دقيقة، ثمّ تصوغهما معًا في جُمَل منتقاة مرتَّبة كمن أدركته جِزفة الأدب أو خاض غمارها. هي المختصّة بعلم البيولوجيا، والتي لطالما استهوتها الخلايا المجهريّة وكريات الدمّ، وشاغلها علم الحشرات وأنسجة النبات، منذ أن رأتها سهامُ وهي ترصّ كتبها في رفّ القراءة الحرّة كما تسمّيه، هنا في حجرة النوم الصّغيرة التي سكنتها بضعةَ أشهر مشاركة في الإقامة والصداقة، قبل أن تشتري شقّة تخصُّها؛ منذ أن رأت سهامُ بين كتبها لوركا وجبران ونزار قباني وغادة السمان، ولاحقًا أوسكار وايلد وسومرست موم ود. أتش. لورانس، وهي تدير في رأسها السّؤال عن هذه المتناقضات.

لم تنتظر سهام الإجابة طويلًا حين سارعت منال بشرح ما يحمله رأسها من خلايا وفصوص وأقسام بأسلوب مدرِّس البيولوجيا. فالفِصّ الأيسر من دماغها خزّنت فيه كلّ ما يتعلّق بالمنطق والاستنتاج والأرقام والتّحليل العلمي. أمّا الفِصّ الأيمن فهو خزانة العواطف والميول والخيال والأحلام. ثمّ أردفت ممازحة بأنّه لم تزل هناك مساحة إضافيّة فارغة في الفِصّ الأيمن للمزيد من الإضافات المجنونة في المستقبل. استعادت سهام هذا الحوار الذي دار بينهما حين كانت منال لا تزال طالبة علم في «إمبيريال كوليدج»، تعكف على فحص أجنّة البيض والخلايا الحيوانيّة في مختبرات الكلّيّة، وتعود غالبًا في نهاية النهار، أو تعاود الرُّجوع في ساعات لاحقة في المساء للحصول على نتائج دقيقة قبل أن تفسد التّجربة. استعادت سهام الحوار وهي تحدّق في الرّسالة الإلكترونيّة، وفي إشارة منال إلى التّفكير في ترتيب أشيائها بعد فوضًى، فلعلّها الآن في صدد استعمال ما تبقّى من مساحة في فِصّ دماغها الأيمن، وأن الأمر لم

يكن مزاحًا.

ليس ثمّة صلة إنسانيّة أو ظرفيّة بين منال ويوسف، تجعل سهامَ تربط بينهما في لاوعيها، سوى أنّهما قَدِما من الكويت في وقتين متقاربين، ودخلا عالمها في وقتين متقاربين أيضًا، كلّ على حِدَة. في صورة «هامستيد هيث»، تظهر الشلّة في الرّحلة الخلويّة إيّاها، وتبدو سهام ومنال ويوسف وأروى ولبنى ووليام. جاء يوسف أوّلًا؛ شابٌ مصريّ أرسلته أسرته المستقرّة في الكويت إلى لندن للحصول على مؤهّل في الدّراسات العليا يُعِينه على شقّ دربه في الحياة. ولا بأس إن استطاع أن يمزج بين الدّراسة والعمل، للمساعدة في المصاريف واكتساب الخبرة في مكان قد تطول الإقامة به، أو الاستقرار في لاحق الأيّام. نشأة يوسف في الكويت منذ طفولته الباكرة، هي ما جعل سهامَ تبحث عن طيوفه المتلكّئة في ذاكرتها في إبان وجودها هي أيضًا هناك.

ولكنّ صورته لا تتّضح وتتمدّد في عالم سهام إلّا بعد أن يستقرّ به المقام بلندن، وقبلها حين يأتيها مبعوثًا من إحدى قريباتها في الكويت لتوصيل غرضٍ ما، شاءت المصادفات أن يكون سببًا في التعارف الذي سوف يتّخذ مسارات أخرى. هكذا تأتي الأشياء وتتشكّل الأحداث وحدها. وهكذا يصبح يوسف من مفردات يومها، يمرّ للاطمئنان، أو يتبضّع ما تحتاج إليه، أو يتناول معها وجبة خفيفة، أو يروي لها تفاصيل يومه. وغالبًا ما يكون أوّلَ الحضور حين تلتمّ المجموعة، وأكثرَهم شعبيّة، وألطفَهم حضورًا، وآخرَهم انصرافًا. اعتاد في «الويك إند» أن يصطحب معه صديقته كلير، التي غَدَت هي أيضًا ممّن يُرحَّب بهم في شقّة سهام، وقد بدت لها فتاة لطيفة تحمل لها الزهور أو الشوكولاتة كلّما أتت، وتطيل الحديث بافتتان عن يوسف وخفّة ظلّه.

حين انتقلت سهام من «بارك هاوس» إلى «نوتنغ هيل»، بدأت تدرك ماذا يعني أن يكون لها مسكن تملكه وتدفع أقساط ملكيّته؛ أن تؤثّثه بما يعكس بساطتها وقدرتها الماليّة؛ أن تنثر في أنحائه النباتاتِ الصّغيرةَ والتحفَ التذكاريّة وصورَ العائلة والمفارشَ المطرّزة. كانت الشمس التي تدخله من النافذة المستطيلة العالية في الظهيرة، تذكّرها بأنّ الحصول على هذه الشقّة في هذا الحيّ الهادئ والحيويّ، هو من أهمّ إنجازاتها التي تُشعرها بغبطة قلبيّة وارتياح. فقد أصبح لها بيت صغير بحجرتين ومطبخ وصالة يسبح فيها الضوء كما تحبّ. وأمكن لها أن تستقبل أصدقاءها وتحتفي بهم، وتطبخ لهم وتسهر معهم، بعيدًا عن قوانين «بارك هاوس»

الصارمة.

كلّ الأصدقاء ساعدوا سهامَ في أثناء عمليّة الانتقال: في ترتيب الأثاث؛ في تعليق السّتائر والخزائن؛ في تصنيف الصّحون والبياضات والكتب؛ في تثبيت الصّور في الأماكن التي تحبّ. كان ليوسف النّصيبُ الأكبر في المشاركة. كان يعمل بغبطة وأريحيّة كأنّه يشمّ في المكان رائحةَ أهله. يأتي في نهاية يومه بعد فراغه من عمله في الكلّيّة، أو في عطلة نهاية الأسبوع، ليكمّل لسهام بعضَ اللّمسات الأخيرة: تثبيت ستارة الحمام؛ التأكّد من تمديدات غسالة الصحون أو سخان الماء؛ نقل ما لا تحتاج إليه من أغراض إلى المخزن في العليّة. في أثناء ذلك، كانت تعدّ له سندويش الجبن بالخيار والشايَ بالحليب. يأكل بعد تعب، ثمّ يتمدّد على الكنبة. وبينما تذهب هي لشؤونها، يكون يوسف قد دخل في غفوة سانحة. وحين يستيقظ، يجد لحافًا ناعمًا يغطّيه. يتململ وهو مستسلم لتلك الرّائحة الدافئة المنبعثة منه، كأنّها رائحة بيتهم البعيد. يجلس، ببقيّة نعاس، مستذكرًا أمّه، «الستّ الحاجّة»، فتحمل له سهام جهاز الهاتف وتصرّ عليه أن يتحدّث إليها قبل أن تنام، ويسمع دعواتها. وما إن يلتقط الخطّ الصّوتَ البعيد، حتّى تنسحب هي إلى الداخل، تاركة له فضاءَ المكان، وحديثًا يُنسَج على مهل.

لا تدري سهام، حتّى تلك اللّحظة، وبعد مرور أكثر من عامين على معرفتها به، ماذا يعني لها يوسف، وما وضعه التراتبي بين جماعة الأصدقاء، إن كان هناك ترتيب ذو علاقة بالقرب والقبول. هو الذي يصغرها ببضع سنين، وهو الذي يدخل إليها أحيانًا وقد تعلّقت بذراعه كلير، الباديةُ المَرَح والسّعادة دائمًا، كأنّ الحبّ غذاؤها اليومي. كلّ يوم يرنّ هاتف المكتب في البنك السّاعةَ العاشرة صباحًا رنتين ثمّ يصمت. تعلم بأنّ المتّصل يوسف، وهذه هي مكالمة الصّباح تدعوها إلى طلب رقمه، لأنّ المكالمة من هاتف المكتب ستكون أنسب لكليهما. ترفع السّماعة وتطلبه، لتسمع تفاصيل يومه، وحديثَه عن منغّصات تتعلّق بدراسته، أو موقف طريف حدث له في الحافلة، أو غيرها ممّا يروقُه من حوارات أصبحت طقسًا لا يكتمل يومه إلّا به. وأحيانًا، حين تُمطر مساءً، تستوحش روحه من العودة وحيدًا، فتأخذه قدماه إلى شارع البنك العربي، متحرّيًا ساعة الإغلاق ثمّ خروج سهام، لتفاجَأ بظهوره أمامها مبلّلًا بالمطر، ومبتسمًا تلك الابتسامةَ الطليقة. يدعوها إلى المطعم القريب، لأنّه جائع وبردان، ويشتهي صحنًا من الشوربة الساخنة.

يجلسان أمام البخار المتصاعد وقد بدأت العتمة تهبط في الخارج، وأضيئت شمعة وحيدة فوق الطاولة. يحدّثها عن الغسيل الذي نسيه في البلكونة تحت المطر، وعن مظلّته التي أضاعها في الأندرغراوند، وعن بطنه الفارغ طوال اليوم. تسأله متوجّسة عن دراسته، فيعيد على سمعها الشكوى من إشكاليّات تواجهه مع أستاذه، وعن خشيته من تعثُّر بحثه العلمي، ثمّ ينحرف بالحديث إلى عمله الإضافي الذي يسدّ به بعض ثغرات غلاء المعيشة. يسألها عن خطط إجازة الكريسماس وهل هناك من جديد، فتعيد تأكيد ضرورة سفرها في الإجازة إلى إربد لقضاء بعض الوقت العائلي مع أبيها، الذي بدأ يشيخ وينكفئ على العزلة والصمت. لكنّه لا يزال أنيقًا، يستيقظ باكرًا كلّ صباح ليلبس كامل ملابسه، متأكّدًا من قيافة السترة والكوفيّة، «الشماغ»، والعقال المِزعِز. يصنع قهوته المُرّةَ الثقيلة بنفسه، ثمّ يخرج إلى مشواره القصير لجلب الصحيفة اليوميّة والحليب، قبل أن يعود لتناول فطوره القليل: بندورة وخيارة ولبنه. يسأل بشكل متقطّع عن الأبناء الذين توزّعوا بين دبي وأميركا ولندن، مستذكرًا أسماءَ الأحفاد كي لا ينسى أولئك الذين لا يراهم إلّا لمامًا، والذين يكبرون ويشبّون هناك بعيدًا عنه.

تحدّثه عن علاقتها المتحفّظة بأبيها؛ عن رسائله التي كان يرسلها إليها في بداية عهدها بلندن، يكتبها بأسلوبه المتحفّظ وخطه الجميل، وبكلمات قليلة مواربة، عن التّحذير من مشاق الغربة وأعبائها. رسائل كانت تؤجّل فضّها لأيّام، أو تدسّها في الأدراج العليا من دون أن تقرأ فحواها. هناك دائمًا شيء ما يجعلها تتوجّس وتتهرّب من هذه الرّسائل، وتودّ لو ضاعت في البريد، أو ضلّت طريقها إليها.

يتوقّف المطر فينهضان ليُكملا سيرهما مشيًا على الأقدام تحت إنارة واهنة وهبّات منعشة من هواء اللّيل. وحين يطول بهما الطريق، يستقلّان الحافلة: يصعدان إلى الطبقة العلويّة، ويجلسان في مقعد الصفّ الأوّل في مواجهة الزجاج الأمامي، ليتفرّجا على المدينة المضيئة من علٍ، ناظرَين إلى العائدين من أعمالهم، والمتبضّعين، والمشرّدين، والمحالّ التجاريّة وهي تَفرَغ من زبائنها، وأسوار «الهايد بارك» وهي تختفي في العتمة. يصلان فيتمنّى لها ليلة سعيدة، مبتسمًا ابتسامته إيّاها، مديرًا كتفيه لها وللطريق.

تنتبه سهام لرنّة الواتسآب التي تحمل لها رسالة سريعة من منال، تخبرها فيها بأنّها آتية إلى لندن في اليوم التالي. وكالعادة، ستسكن عندها إذا كانت آتية بمفردها أو بصحبة ابنتها الشابّة التي تخرّجت للتوّ من الجامعة، وهي تحمل جينات أمّها في التلصّص على ما وراء الأيّام من خبايا. تسارع في تفقّد البياضات النّظيفة، وحمل أغراضها الشّخصيّة من الغرفة الصّغيرة التي اعتادت أن تستضيف فيها منال في رحلاتها المتقطّعة إلى لندن. غرفة لا تزال تحمل تاريخًا لحقبة مضت، حين كانت منال تشاركها في المكان لبضعة أشهر، ريثما تنتهي من البحث عن مستقرّ دائم، تمخّض أخيرًا عن اقتنائها شقّةً بغرفة نوم واحدة وصالة جلوس، تتّسع لأفكارها وأوراقها التي أخذت تتراكم، ولالتها الكاتبة وعزلتها التي تحبّ.

كان لسهام الدّورُ الأكبر في هذه الاستقلاليّة المبكّرة لفتاة تتلمّس طريقها بحذر. أرشدتها إلى المكاتب العقاريّة، وإلى مكتب مُحامٍ ينجز الإجراءات بطرائقه القانونيّة. وسهّلت لها الحصول على قرض بنكيّ بتقسيط مريح، وأعانتها على تصوّر الفائدة من وراء هذا الاستثمار الذي لن يذهب هدرًا. وهكذا، بدأت الحياة تترتّب على مهل، وامتدّ طريقٌ بينهما على مسافة دقائق، وتهيّأ وصلٌ لا ينقطع إلّا يوم أو بضعة أيّام.

كانت شهور منال الأولى في مدينة ساحرة وغامضة، مثل لندن، أشبهَ بتمرين نفسيّ على الحرّيّة الشاسعة وعلى التعامل مع المستجدّات. عليها وقتئذ أن توازن بين العمل والفراغ؛ بين العزلة والاكتشاف؛ بين الكمون، الذي كان سِمةً أصيلة فيها، والانطلاق من الشرنقة. كانت تتحسّس طريقها بقرون استشعار جديدة، حيث يبدو كلّ شيء كبيرًا وواسعًا ومخاتلًا: المجمّعات التجاريّة الضّخمة ذات الطوابق والمعروضات الفارهة؛ المتنزّهات المترامية التي تبدو بلا نهايات؛ محطّات قطارات الأنفاق بأقبيتها ودهاليزها وخرائطها المتشابكة. ضئيلةً كانت وهي ترى هذا العالم المهول الذي لا يُعيرها اهتمامًا، ولا يأبه بها إذا تاهت في محطّات الأندرغراوند، أو أضاعت محفظتها في الزحام، أو ارتبكت أمام مكتب معاملات لأنّها لا تملك المعلومة المطلوبة منها. هكذا تتصادم مع ما هو غير مألوف كلّ يوم. تتعارك مع ما يُحبط وما يؤذي، ثمّ ترمّم كدماتها وتمضي. هي النّبتة الطارئة التي تحتاج في مكانها الجديد إلى إعادة التّعريف بذاتها لذاتها وللآخر، وإلى إعادة تشكيل هيكلها العقليّ والرّوحيّ وصناعة ملامح نفسيّة تليق بالمرحلة.

في الشهور الأولى، كان هناك متّسعٌ من الوقت لاكتشاف اللُّغة الأخرى؛ لفرز لغة التَّخصُّص العلمي، من لغة الشارع، من لغة القراءة والكتابة؛ لإيجاد الأسلوب الأمثل للتَّعبير والتواصل؛ لفهم لغة الأجساد ولغة التَّعامل ونمط السُّلوك العامّ؛ لاعتياد ملبس يلبِّي حاجة المكان والطقس والمطر والثلج، واعتياد المآكل الخفيفة والسندويشات السَّريعة والمشروبات السَّاخنة. اختلف الذوق والمظهر وعادات الأكل، وتحوَّل الحليب بالشاي الذي تعرفه ثقيلًا وثخينًا في بيتهم إلى شاي بالحليب أو «وايت تي»؛ مجرَّد شاي مخفَّف بسكبة صغيرة من الحليب، لا العكس. وغدا الخبز الأسمر المحمَّص ألذَّ طعمًا وأنفع من الخبز الأبيض، ومسحةُ الزبدة مع المربَّى في الصَّباح أليق بيوم ممتلئ بالعمل والرَّكض في «السب واي» أو وراء الحافلة.

عرفتْ في سحابة يومها معنى الزِّحام الجميل، حيث يشتطّ الجميع في سباق حي نحو أعمالهم وشؤونهم. يصطفُّون صفًّا جانبيًا على السُّلَّم الكهربائي المتحرِّك في محطَّات الأندرغراوند، ليتيحوا الفرصة للمتعجِّل أن ينزلق بسلاسة نحو غايته. في الصَّباح، تكون الجموع في أعلى مستويات لياقتها، متأنِّقين بالبدلات الداكنة، وحاملين حقائبَ العمل اليدويَّة، أو متلفِّعين بلفَّات الصُّوف حول الأعناق والجاكيتات المبطَّنة والمظلَّات التي لا تزال تنقِّط بماء المطر. في قطارات الأنفاق، يسود الصمت على الرَّغم من زحمة الأجساد التي لا تُطلق غير الأنفاس الدافئة وغيرَ الرَّوائح المتلوِّنة، وغيرَ حركات مدروسة للتنقُّل في المكان، أو الوقوف، أو الجلوس مع كتاب أو صحيفة. تنشطر الأبواب عند كلِّ محطَّة، لتخرج دفعة من الواصلين وتتدفَّق أخرى من القادمين. هكذا بسلاسة ودراية تتدفَّق الجموع لتصنع ذلك الفَوَران الصباحي الحي. في نهاية يوم العمل يصبح للرُّكاب سفت آخر، فيرينُ الإرهاق على الوجوه، وقد تتدلَّى رؤوس الجالسين في غفوة سانحة، بينما تهتزُّ أجسادهم على إيقاع القطار المنطلق. وما إن يصلوا إلى محطَّتهم حتَّى يتنبَّهوا فجأة، كأنَّهم خاضعون لبرمجة خفيَّة تستحثهم على النهوض.

في أيَّامها الأولى، فاجأها الثلج، كأنَّه على موعد مع قدومها في ديسمبر. يبدأ نديفًا قطنيًا في الصَّباح الباكر، يتهادى متمهِّلًا كريش بجع منتوف، ثمَّ يتراكم هشًا على أفاريز النوافذ والأشجار العارية والأرصفة. يغطِّي الدنيا بالأبيض الناصع، طبقةً في إثر طبقة، متمهِّلًا. المستيقظون في ساعات الصباح الأولى يعمدون إلى رفع المظلَّات اتِّقاءً للبلَّورات التي

تتجمّع فوق الأكتاف والرؤوس. يمشون ليطأوا بأحذيتهم هشيم الثلج الذي يلين ويتهافت في البدء، ثمّ يتصلّب مكوّنًا طبقةً صلدة زلقة، تستدعي الحذر حين المشي.

في ديسمبر كانت المدينة تتبهرج بزينة الكريسماس وأشجاره المضيئة وكُراته الملوّنة وهداياه. تمتلئ المجمّعات التجاريّة بالمتبضّعين يهرولون من طابق إلى آخر للَحاق بأفضل العروض، في وقت يبدو فيه كلّ شيء جاذبًا ومثيرًا للنّظر ومحفّزًا على رغبة الشراء: علب الشوكولاتة؛ الشموع؛ الجوارب الحمراء؛ الأوشحة والقفازات والكنزات الصوفيّة المشغولة بأشجار عيد الميلاد، والوعول القطبيّة، وهي تجرّ العربات محمّلة بعلب الهدايا؛ سانتا كلوز بلحيته البيضاء ووجنتيه الحمراوين مبتسمًا ابتسامات لا تنتهي.

يأتي المساء مبكّرًا بعد الرابعة والنّصف، مموّهًا بالرّمادي، والرذاذ ينثّ في الجوّ. تلتمع الأرصفة بالماء وبأنوار المصابيح التي تُضاء مع انحسار ضوء النّهار الشّحيح، ثمّ يبدأ مهرجان أضواء أخرى مساندة، تنبعث من أقواس الزّينة والمجسّمات التي تمتدّ على طول «أكسفورد ستريت» و«ريجنت ستريت»، انتهاءً بقلب المدينة المزدحم في «البيكاديللي» و«لستر سكوير»، حيث يتجمهر المتسكّعون ومحبّو التجوال اللّيلي، حول الهدايا التذكاريّة ومنصّات الرّسم الحيّ ومقاهي الأرصفة والكازينوهات وصالات الديسكو ودُور السينما. هكذا جاء الشتاء ممزوجًا ببهجة موارية مسحت ما يعانيه المغترب في أيّامه الأولى، فكان بياضًا مخلوطًا بألوان لم تخلُ من الرّماديّ يخوض في القلب، على الزغم من غلبة أحمر الكريسماس وخُضرة أشجاره ومَوَرانه بالزّحام والهرولة.

في شهورها الأولى خاضت منال في خضمّ تلك المدينة العريقة المسلّية الممتلئة بالإلهام. تُمضي أحيانًا يومًا كاملًا في «سيلفرجز» أو «هارودز»، تكتشف الطوابق طابقًا طابقًا. تنظر إلى المعروضات الفارهة؛ الأثاث الأنيق؛ الأواني البرّاقة؛ البياضات ذات الملمس الناعم؛ لُعَب الأطفال المبتكَرة؛ الكتب وعناوينها الجاذبة؛ المانيكانات وقد عُلّق عليها فاخرُ الثياب والقبعات والأوشحة؛ المقاهي الصغيرة الأنيقة يقصدها الزبائن بعد تعب التّسوُق، يرتشفون المشروبات الساخنة ويقضمون «البَنز» و«التشيز كيك». كلٌّ مشغول بذاته أو بصحيفته أو وَحدته؛ الوحدة التي تتحوّل إلى تأمُلٍ واتّكاء على السّكينة.

كانت منال تتفرّج؛ تتعلّم إيقاع الحياة؛ ترتّب مزاجها بما يتناسب

ومزاجَ مدينة حيّة ومتألّقة بالجمال والنّظام. لكن يبقى فضاؤها الأجمل فضاءَ التَّوهان في الأخضر الممتدّ بلا نهاية. التنزُّه والمشي، ثمَّ قيادة الدراجة الهوائيّة لاحقًا في المتنزَّهات المترامية، كانت تعيدها إلى نفسها الجوانيّة الأثيرة؛ إلى التأمُّل المطمئن؛ إلى التوحُّد مع الضباب ورذاذ المطر وغبش الصبح. يمتّعها النّظر إلى وجوه الأطفال بعيونهم الزرق وشعرهم الأشقر، جالسين باستسلام في عرباتهم، أو منطلقين إلى ملاعبة الكلاب الأليفة، أو متأرجحين ببهجة تحت أنظار أمهاتهم. كانت الزهور والمروج والحمَام والبطّ والبجع والبحيرات، والمقاعدُ المستريحة، والأجسادُ العارية المتشمّسة، والقبلاتُ المتبادلَة بين المحبّين، كانت كلُّها من طقوس المكان ومفرداته التي تتجانس وتتكامل لتصنع هويّته، وتتيح نمطًا من العيش المهادِن والمسترخي والمعبّر عن شخصيّة المدينة.

أرادت منال في فترة لاحقة أن تكسر أفق توقُّعها لإمكانيّاتها؛ أن تخرج من منطقة راحتها التي تحبسها في قالب الممكن والمحقَّق من الأشياء، نحو تجريب الصعب والطارئ من المهارات العقليّة والحركيّة. كانت في أمسّ الحاجة إلى إرادة تُعِينها في الطريق الصعب، فأحبّت أن تضع نفسها في اختبارات متاحة. كانت البداية بالانضمام في أوقات فراغها إلى صفّ اليوغا والتأمُّل، ثمَّ إلى صفّ الرَّسم، ثمَّ إلى تعلُّم ركوب الدراجة الهوائيّة، ثمَّ التزلُّج على الجليد. لكنّها لم تحضر من دروس اليوغا غيرَ درسين، بعد أن أدركت أنَّ امتلاءها بالتحفُّز والقلق لا يليق بدرس اليوغا. أمّا في الرَّسم، فلم تعجبها أجساد «الموديلز» الذين يجلسون عراة أمام الطلبة، ولم تجد فيها المقاييسَ الجماليّة التي تُرضي ذوقها، فانسحبت من دون ندم. والتزلُّج جرَّبته مدّةً كافية، ثمَّ اكتشفت أنَّ تعبه أكثر من متعته. ولم يبقَ ممّا تفوَّقت به سوى ركوب الدراجة الهوائيّة، الذي أحبّته بحقّ ومارسته بإتْقان، فكان التسلية والرِّياضة التي دعَّمت بها الرغبةَ في الانطلاق والتّحرُّر من أسر المكان.

كان تعلُّم قيادة الدراجة مؤلمًا وعسيرًا، ملأ ذراعيها وساقيها بالخدوش والسجحات الحارقة، وبالرضوض التي مازجت روحها وعركتها من دون رحمة. ولكنّها نجحت أخيرًا في تعلُّم حفظ التوازن والحذَر من أخطار الطريق، ثمَّ تفادي ما يعترض مساراتها من دون ضرر أو ضِرار. قادت دراجتها الهوائيّة لاحقًا في المتنزّهات وبعض الشوارع الداخليّة، وفي أثناء بعض المشاوير القريبة، إلى أن قضت منها وَطرًا، ونجحت في إقناع نفسها بإمكانيّة تحدّي الصعب ومعايشته.

كانت سهام مواكبة هذه التحوُّلات، ترقُبها عن بعد، وتشارك في بعضها. إلّا أنّ أمتع الأوقات ما كان يُقضَى في الترئض والمشي بين الأحياء السكنية الهادئة آخر النهار. تتهادى الصديقتان بلا عَجَلة، مستسلمتين لما يعنّ من أحاديث وحوارات، ثمّ تنعطفان إلى أحد مقاهي الرّصيف لتناول وجبة خفيفة، اعتادتا في أثنائها أن تتقاسم كلٌّ منهما ما في صحنها مع الأخرى، من أجل المشاركة والتجريب. وقد يسمح الوقت بالمرور بعد ذلك على نجوى لإسماعها بعضَ المديح على آخر نشاطاتها الأدبيّة وتقصّي آخر أخبار النادي الثقافي العربي، التي لن تخلو من ذكر للدكتور عبد المنعم الذي يظلّ مدار اهتمامها وشغفها؛ أو المرور على سميحة في حالة الحاجة إلى الضحك والترويح عن النّفس، أو أروى إذا كانت خارجة للتوّ من علاقة مؤلمة وتحتاج إلى الدّعم والمواساة. وقد يتشارك أفراد المجموعة كلّها، بمن فيهم يوسف وهشام، في تناول غداء «الويك إند». أمّا في المناسبات والأعياد، فتتمّ دعوة الدكتور عبد المنعم ليلتمّ الشمل إمّا في بيته، وإمّا في بيت لبنى ووليام الواقع في ضواحي لندن، لتتحوّل الحديقة الخلفيّة إلى رائحة مشاوٍ وأنس وأحاديث متناثرة. في تلك الأجواء، كان يمكن بسهولة إدراك مدى تعلُّق نجوى بعبد المنعم، على الرّغم من لامبالاته بها حين تحوم حوله أو تغرف له الطعام، أو تنفرد بسيجارتها في أقصى المكان وتسلّم نفسها للدُّخان والأفكار.

كان هذا المناخ المفعَم برائحة الصحبة يهيّئ منالًا للخروج من نمطها المتحفّظ وشخصيّتها الميّالة إلى العزلة؛ هي الآتية من بيت يغلب عليه الصمت والإيقاع المتأنّي، وتتشابه به الأيّام حدَّ الجمود، فتركن إلى فراغ الوقت. حتّى ميولها العلميّة انبثقت من هذا النمط من الفراغ المسترخي بلا معنى. كانت تراقب صفّ النمل وهو يدبّ نحو بيوته الرمليّة في حوش البيت، أو وهو يحمل الفتات مترنّحًا لا يبالي. تراقب شجرة اللّيمون الوحيدة وهي تتحوّل بعد صبر إلى أوراق ذات نكهة عطريّة، ثمّ إلى زهور بيضاء قليلة متناثرة، ثمّ تتساقط البتلات لتبزغ ليمونتان أو ثلاثٌ خضراء صُلبة. تلاحق موسم شجرة الرّمان التي تطلّ أغصانها من سُور الجيران، ومتى تضجّ زهورها بالأحمر القاني، ثمّ تتشكّل رمّانات متدلّيات لا تدري إذا كانت تصلح للأكل، أم أنّها مخلوقة للفرجة والتأمُّل. تنتبه إلى أحشاء الدجاجة وهي تُفرغ من بطنها؛ إلى الأمعاء والكبد والحويصلة. تشخص في خياشيم السمكة والقشور المصفوفة بإتقان فوق ظهرها قبل أن تصبح وجبة للغداء. تجمع الأوراق الخضراء وبتلات الأزهار بين طيّات الكتب، لتعيد تصنيفها وفرزها بعد أن تجفّ، أو تلصقها

بتشكيلات فنيّة في إطارات تعلّقها في غرفتها المنزوية. تلاحظ وتدقّق وتحلّل ما تراه وتلمسه وتشفه، هائمة على حافّة هذا العالم المتقشّف الذي ما انفكّت تحلم بالخروج من دوائره الرتيبة.

في صباها، كانت تُرهقها الإجازات الفارغة المشحونة بالكآبة والانتظار. ارتبط فراغها بالانتظار دائمًا: انتظار ماذا؟ أن يأتي يوم آخر، حقبةٌ أخرى؛ أن ينشقّ الجدار عن سماء أو أفق أو كون آخر؛ أن يحدث شيء ما يليق بأحلامها المؤجّلة والمعلّقة كثياب في خزانة تنتظر مواسمها. توفّيت أمُّها ليكسر موتُها جدارَ الانتظار. كأنّ في الموت حياةً كامنة؛ حبّة تنشرخ ليُطلّ جنين الحياة. حزنت على أمِّها ذلك الحزنَ المموّه بالتّوَهان، الباحث عن ملجأ أو رَحِم جديد تستعيد فيه دورة حياتها، ثمّ تخرج غضّة متحفّزة. حين تزوّج أبوها بعد عدّة شهور بامرأة أخرى، ازداد فراغ البيت ووحشة الرّوح. وما عاد التحفُّظ على سفرها لاستكمال دراستها العليا قائمًا. تركت عملها في مختبر وزارة الصحة، وحملت حقائبها، وانطلقت إلى سمائها.

شهدث منال إبّان سنواتها الأولى في لندن، جانبًا من مفاوضات مشروع «مطعم الوادي». اقترحت سهام الفكرة على سميحة وهشام في بداية زواجهما؛ هي التي ما انفكّت تحلم بالمشاريع العقاريّة والاستثماريّة، وتعكف على تجميع ما تطبعه الوكالات العقاريّة من إعلانات عن بيع الشقق والمنازل. تقرأ هذه المجلّات بشغف، وتستمتع بالاطّلاع على أوصاف العقار، وعدد غرفه، ومميّزات موقعه، وسعره المعروض، ثمّ تترك لنفسها العنان لتحلم بامتلاك أحد هذه العقارات المغرية. وحين يخاتلها الحلم، تعيد على الأسماع، فيما يشبه المزاح، مقولتها عن انتظارها «اللوتري» أو اليانصيب، فما زالت تشترى ورقة الحظ بمبلغ جنيه إسترليني واحد كلّما عنّ لها ذلك. ثمّ تردف بأنّها لو فازت باليانصيب المليوني، فإنّها سوف تتقاسمه مع أصدقاء العمر، أو تشتري عقارًا يسع الجميع، ليلتم الشمل وتقرب المسافات.

كانت سهام هي صاحبة الاقتراح، وكانت تظن أنّه مجرّد اقتراح لن تستطيع تحقيقه لنفسها لصعوبة توفّر الموارد. ثمّ أعادت شرح فكرة المشروع على هشام وسميحة، كونهما زوجين يمكن أن يتضامنا ماليًا بمساعدة قرض ائتماني. ثمّ ازدادت حماستها فعملت جاهدة لتسيير الإجراءات القانونيّة والاستشاريّة لهما، متمنّية أن تسنح لها الظروف للدّخول شريكًا قَدرَ طاقتها الماليّة. كان المشروع لا يزال قيد النقاش والتّفكير والإعداد، حين بدأت الإشكالات. أوّلها اختلاف سميحة وهشام على اسم المطعم. هو يقترح اسم: «الوادي الأخضر»، وهي تقترح اسم: «وادي النيل». وكاد الخلاف يتفاقم لولا تدخُّل سهام واقتراحها اسم: «مطعم الوادي»، وكفى. وبذلك استجاب الاسم للرّغبتين من دون تجنٍّ، وتمّ حلّ الإشكال بأبسط الطرائق دبلوماسيّة. في أثناء سير الإجراءات، كانت سميحة تحاول بطريقتها الخاصّة أن تجد حلًا أنسب لتوفير مقدّم رأس المال، بما يضمن لها ولزوجها حقّ التصرُّف والاستفادة. وكان تواصلها مع أمّها، بهذا الشأن، على قدَم وساق، تحاول أن تستدرجها لتوفير المبلغ المطلوب؛ ما أمكنها ذلك. وبعد لأيٍ وملاحاة وإلحاح استنفدت فيها كلّ طاقاتها، أمكن لها أن تحصل على ما تريد.

لم يطل الوقت بسهام لتكتشف أنّه تمّ استبعادها من المشروع، واقتصاره على الزوجين، بعد أن مهّدت لهما الطريق وفرشته بما يحتاج إليه من إجراءات ومراسلات قانونيّة وماليّة للمضيّ به قدمًا. واحتاجت

إلى وقت طويل لتستوعب ما تمَ، ولتدرك أنّ جهودها في التّخطيط والتّنسيق لن تعود عليها بفائدة، ناهيك عن عدم علمها بما جرى إلّا في وقت متأخر. ولم يكن هشام وسميحة بأقلّ منها اضطرابًا وقلقًا إزاء الموضوع، الذي لم يعرفا كيف يجعلانه يمرّ بأقلّ الخسائر الممكنة على صعيد الصداقة التي لا تُعوَّض.

كانت منال تستمع إلى التّفاصيل المحزنة في جلستها المسترخية مع سهام، ثمّ تنهض لتفتح النافذة وتدع نسيم المساء يكنس ما يرينُ على الجلسة من شَجَن شفيف. بكت سهام ليلتها بحرقة وهي تفنّد خيبتها غير المتوقّعة، ثمّ وهي تودّع أحد أحلامها الأثيرة؛ الحلم بأن تضع قدمها على أرض صُلبة، وتنجز شيئًا تحبه يحمل اسمها وبصمتها. فربّما استطاعت حينها أن تقنع أباها بجدوى الغربة، وأن تعود إلى رسائله المغلَقة والمركونة في العلية لتتصالح معها. صَفَت عيناها وشفَّت بعد بكاء طويل، وعاد إلى وجهها ارتياحُه وطمأنينته. كانت الدُّموع، ولا تزال، سِمةً أصيلة في تكوين سهام عاطفيًا ونفسيًا. تنبجس من عينيها على حين غِرّة، كلّما مرّ بها ما يهزّ المشاعر الرَّقيقة: مشهدٌ على الشاشة؛ موقفٌ في حكاية قديمة؛ تذكّرٌ لفقيد؛ حديثٌ شجيّ؛ أغنيةٌ. كلّ هذه الأشياء يمكن أن تُبكي سهامَ وترقرق في عينيها الدّمعَ. تجفِّف جفنيها ثمّ تعتذر، كأنّها ارتكبت خطأً ما، أو لكأنَّ الحساسية المفرطة مدعاة إلى التّحرُّز.

استذكرت الصديقتان، مع رشفات شاي البابونج، أيّامَهما مع سميحة وهشام. استعادتا علاقة الخطيبين التي تراوحت بين شدّ وجذب، وقبول وخصام، والتي احتاجت كثيرًا إلى تدخُّل الأصدقاء لنزع فتيل التوتُّر، أو إعادة المياه إلى مجاريها كلّما طفح كيل التّحمُّل. في حفلة زواجهما، قام الأصدقاء مقامَ الأهل الغائبين عن المشهد، ونابوا عنهم في الفرحة والاحتفاء. ولكنّها كانت فرحة ملغومة بموقف لا يزال يستدعي التّساؤل والتّحليل. لن ينسى أحدٌ ما حدث.

كان العروسان يجلسان في الكوشة بملامح تصعب قراءتها عن بُعد، وحين تقدَّم يوسف مهنّئًا ومعانقًا هشامًا، إذا بهشام يتشبّث بتلابيبه كطفل ثمّ ينفجر بالبكاء؛ بكاء مُرّ وحارق، في الوقت الذي عقدت الدّهشة ألسنةَ الحضور وعيونهم. وإن كان هناك من يستحقّ الرثاء حينها، فهو سميحة التي غار لونها واصفرَّت، واحتاجت إلى الكثير من الدّعم والتعاطف لتجتاز هذا الموقف الغريب. انتهى العرس بالطبطبة على كاهل العريس، الذي فُسّر بكاؤه بافتقاده أهلَه في يومه الأهمّ. وظلّ ما في النّفوس طيَّ النّفوس في

مقتبل أيّامهم ولياليهم. وإذ تستعيد سهام هذا الموقف في جلستها مع منال، تستعيد أيضًا ما ينطوي عليه الزوجان من هشاشة وتهافُت في التّكوين والعلاقة، الأمر الذي يستجلب عطفها لا حسرتها، ويذكّرها، باستمرارٍ، بحاجتهما إليها على الرَّغم من كلّ شيء. لم يَطُل عمر التوتُّر بين الزوجين وسهام، إذ كانت الأحداث ترتِّب أمرًا آخر في هذا الشأن. فبعد أسابيع قليلة، توفِّي والد سهام، وبعد عودتها من مراسم العزاء في الأردن، كان هشام وسميحة في استقبالها في المطار. وبين الدُّموع والاحتضان، كانت الأكدار تغتسل على مهل.

كلّما جاءت منال إلى لندن سائحة في السنوات الأخيرة، لا تحتاج إلى الكثير من التأمُّل لتدرك المتغيِّرات الآخذة بالتّشكُّل في المدينة التي عاصرت أهمّ سنوات عمرها وأكثرها زخمًا. تُمضي نهاراتها في الترجُّض وإعادة اكتشاف المكان والبحث عن الظلال الآخذة في التلاشي. تذرع الشارع الذي كانت تسكن فيه، وتطيل النّظر إلى نافذة البناية في الطابق الثاني، والتي لم تعد تسكنها منذ عقدين من الزمان أو أكثر، مجتهدةً في أن تقتنص ما تبقّى من ملامح فتاة كانت تقيم هنا. كانت تستيقظ أوّل النّهار لتدير محطّة الإذاعة على برنامجها الصباحي المفضّل: top of the pops، لتنطلق الموسيقى المنعشة مغمّسة بصوت إلتون جون النقيّ الرّنين كبلّور، أو سيلين ديون المنسكب كبحر، أو ليونيل رتشي، وهو يغني لها: ?hello.. is it me you’re looking for. وإن كانت محظوظة جدًا في ذلك الصباح، فسوف يقفز لها بوب مارلي، الجامايكيّ اللّذيذ، ليدشّن صباحها بأغنية don’t worry.. be happy. وهي تحتاج فعلًا إلى هذا التأكيد من مارلي لتدع الأشياء الصّغيرة المقلقة تمضي بأقلّ الخسائر.

الأغاني تُؤنِس عزلتها وتذكّرها بالطيور والأجنحة، وتجعل روحها تنطلق، وقدميها تقويان على المشي في الشوارع الرّطبة والمنعطفات المخاتلة. في الأغاني الكثيرُ من الحبّ الذي تفتقده ولا تلمس غير أشباحه وإشاراته السرابيّة التي لا تَعِدُ بماء أو ريّ. وجوه الحبّ كالوجوه الكاريكاتوريّة التي تظهر في المرايا الهزليّة في أماكن الترفيه والتّسلية، حيث لا مقاييس معتمَدة ونهائيّة لشكل العينين أو الجبين أو الأنف. خارج الحدود، تتّخذ الوجوه هذا النّمط المضحك غير السويّ من الهيئات، كأنّ الخروج إلى الحرّيّة خروجٌ عن السويّة والفطرة واللّياقة النّفسيّة والعقليّة. لم تفهم منال السرّ في وجوب ارتداء الأقنعة؛ في الحذر غير المبرّر الذي يُمرض القلوب ويلفّها بقماط كما تُلَفّ الجثث المحنّطة؛ في الخشية من الاقتراب كأنّ التماسّ لونٌ من الالتزام الباهظ الثمن.

أوّل أغنية أنصتت إليها في أيّامها الأولى بشجن عميق، كانت أغنية لكات ستيفنز، يغنّيها لفتاته الصّغيرة، محذّرًا إيّاها من الدخول إلى عالم متوحّش، وليس في جعبتها غيرُ ابتسامة! هي لم تَر العالم متوحّشًا، وإنّما مُوحشًا وخاويًا وبلا حبّ، على الرّغم من امتلاء جعبتها بالابتسامات. كانت قد شيّعتِ الحبّ وراءها قبل أن تأتي. في الحقيقة، لم يكن غير حبّ ناقص وقاصر؛ حبّ من ورق ووهم، لرجل لا يصلح لها. ولكنّه أجاد ملء

فراغات قلبها في أوان تفتُّحه وذروته. هي أجادت الدُخول في التَّجربة على الورق، وهو أجاد الغياب واستحسنه. ولما عاد أجاد لعبة التَّخفِّي حتَّى اضمحلّ.

تعاود النَّظر إلى النَّافذة العالية من موقعها، كأنَّها لا تزال ترى نفسها جالسة وراء الآلة الكاتبة، تدقّ عليها بتأنٍّ مفرط لئلَّا تضطرّ إلى إعادة كتابة الورقة مرَّة أخرى في حالة الخطأ، أو الاضطرار إلى التَّقديم والتَّأخير. كانت آلتها الكاتبة كهربائيَّة وسلسة، ولكنَّها لم تكن كمبيوتريَّة تجترح معجزات الحذف والقصّ واللَّصق والتَّصويب، كما هو حادث الآن. وعلى الرّغم من ذلك، فإنَّها تَدين لها في تيسير حياتها الدِّراسيَّة، وجعل الأوراق تتناسل بين يديها كأجنَّة وُلدت للتوّ.

كان في الوقت متَّسعٌ للدُّخول إلى أشياء أخرى غير الدِّراسة والبحث: هناك القراءات الجانبيَّة؛ مشاهدةُ المسلسلات الفكاهيَّة القصيرة؛ الإطراقُ بلا معنى؛ البكاءُ على أطلال وجهٍ عابر؛ السَّيرُ بلا هدى في المتنزَّهات الخالية؛ الدُّخولُ في كآبات مفاجئة تُسلِم إلى نوم طويل وشهيَّة بائسة. كان هناك كلّ شيء يليق بفتاة مغتربة، ليس غربةَ مكان، وإنَّما اغتراب روح متأصِّل. حين حملت حقائبها وغادرت بها الطائرة، بكت بكاءً مُرًّا، ليس لافتقادها المكانَ الذي خرجت منه، وإنَّما على نفسها الموزَّعة في الفضاء، والمتطايرةِ كنديف الغيم الذي تراه من نافذة الطائرة. لم يعد شيء يربطها بالبيت الغارب، وتتوجَّس ألَّا تجد مستقرًّا لتلك الرُّوح الهائمة. في مقتبل أيَّامها، طاردتها المنامات الغامضة عن أمِّها التي لا تدري لمَ لحقتها إلى آخر الدُّنيا، وأحلام عن وجودها في غرف بيتهم وأبهائه محاطةً بعتمة كثيفة، وحين تبحث عن الزر الكهربائي لتنير المكان تكتشف أنَّ جميع اللَّمبات محروقة؛ حول سيَّارة تقودها بسرعة فائقة لتكتشف حين تحاول إيقافها أنَّ لا وجود لمكابح فيها!

لم يكن الشَّارع أو البناية المقصدَ الوحيد في تجوالها، وإنَّما قد يأخذها الفضول والحنين إلى تفقُّد أحوال كليَّتها الجامعيَّة. المدخل العريض ببوَّاباته الأربع المشرَّعة، والتي يُرتقى إليها بدرج متَّسِع لطالما رحَّب بالجالسين عليه من الطلبة، متناثرين يقضمون السندويشات ويقلِّبون في دفاتر مذكَّراتهم وكتبهم. البوَّابة تقود إلى الداخل حيث الدفء المباغت، الذي يهيب بالدَّاخلين لطرح معاطفهم وأوشحتهم ومظلَّاتهم وتركها في غرفة الملابس المُعَدَّة لهذا الغرض، والواقعة إلى اليسار. أمَّا إلى اليمين، فثمَّة مدخلٌ يؤدِّي إلى مقهى الكلِّيَّة ومستراح الطلبة في أوقات

فراغهم. هي لا تزال تحفظ هذه الخرائط القديمة للمكتبة الضَّخمة ومكاتب الأساتذة والكافيتيريا والمختبرات العلميَّة، وحتَّى المتجر الذي يبيع القرطاسية والهدايا الصَّغيرة. الخريطة في رأسها؛ ولكنَّها هل لا تزال كذلك الآن؟ تقطع الشارع الهادئ نحو المدخل، لتُفاجَأ بأنَّه تمَّ إغلاقه الآن بحوائط زجاجيَّة سميكة وبوابة إلكترونيَّة وحارس أمن! الدرجات العريضة كانت مقفرة ومبلَّلة بأمطار البارحة. سألت حارس الأمن عن إمكانيَّة الدُّخول، فطلب منها تصريحًا أو هويَّة تثبت انتماءها إلى المكان. تدور على عقبيها وتكرّ راجعة. تبحث عن مقهى في الجوار لتُريح ساقيها المتعبتين وتطلب قهوة في كوب ورقي، وبلا سكَّر.

فاجأها في جلستها في حيّ الجامعة وجهُ نجوى، يبزغ من بين أكوام اللَّقطات المسترسلة التي يحفِّزها المكان والرائحةُ والظلال الهاربة. كرَّت الصُّور المخزَّنة كأنَّها تخرج من ألبوم قديم. نجوى التي أعلمتها حينها بمعرض الكتب الشرقيَّة الذي سوف يُقام في الجوار من هنا. سألتها: أين في الجوار؟ فأجابتْ بأنَّه سيكون في كلِّيَّة الدِّراسات الشرقيَّة والأفريقيَّة على بُعد مسافة من المشي من «إمبيريال كوليدج». شجَّعتها نجوى على الذهاب بمعيَّتها، للتمتُّع برائحة الكتب واقتناء ما يصلح لذائقتها الأدبيَّة، التي كادت تنطمس في كواليس المختبرات والمحاليل.

كان لنجوى ثلَّةٌ من أصدقاء الكتابة وأصدقاء المقهى؛ معظمهم طَلَبة عراقيُّون وليبيُّون وخليجيُّون ويمنيُّون. بعضهم كرَّس نفسه للبحث والدِّراسة، والبعض الآخر يخلط بين الدِّراسة والكتابة في الأدب والسياسة. وهناك مَن انتهى من الدِّراسة ولا يرغب في العودة إلى وطنه لأسباب كثيرة معروفة. غالبًا ما يجتمع هؤلاء في مقهى كلِّيَّتهم للنقاش أو التلاسُن، أو التَّجسُّس، بعضهم على بعض، بإيعاز من جهات عليا وسفارات. وقد يشاركون في المظاهرات السلميَّة والخطابة في ركن الخطباء في «الهايد بارك»، في الأحداث والمناسبات، كلٌّ بما يتناسب وآراءَه أو آراءَ الجهات التي يعمل لمصلحتها. هكذا يمكن أن يستمع المتجمهرون إلى رأيَين متناقضين عن الحرب العراقيَّة الإيرانيَّة، فقد يتلاسن العراقيُّون، مثلًا، عن عظمة حارس البوَّابة الشرقيَّة، أو عن عبثيَّة الحرب وخراب الديار. ولولا وجود رجال الأمن الذين يحرسون الدِّيمقراطيَّة في ركن الخطباء، لكان المشهد أكثر سوءًا.

تعرف نجوى معظم أولئك الناشطين، وقد تشتبك معهم في نقاشات عقيمة لا يسمع فيها أحدُهم غيرَ نفسه. تحاول أن تستدرج بعضهم إلى

أنشطة النادي الثقافي، وخصوصًا من تتوسّم فيه موهبة في الكتابة أو الحوار. تثق بنفسها وقدراتها، وتفتخر بكتابها المنشور، والذي يضمّ مجموعة قصصية، وبمقالاتها المتقطّعة في صحيفتي «القدس» و«الشرق الأوسط». في النادي الثقافي، تؤدّي دور المراقب الحَذِق، الذي يتأمّل الأمور عن كثب من دون أن يورّط نفسه في صِدامات ليس لها داعٍ. لذلك، لم تقبل أيّ ترشيحات لها في مجلس إدارة النادي للمحافظة على استقلاليّتها وبقائها في مأمن. نجحت، إلى حد كبير، في جذب سهام ومنال إلى حضور أنشطة النادي، لِما تتوسّم فيهما من ميل إلى أجوائه وقضاياه. ظلّت منال متحفّظة إزاء بعض الحوارات الملغومة بروائح السياسة غير المريحة، بينما استطاعت سهام، في لقاءات النادي المتفرّقة، أن تتناغم مع تلك الأجواء، التي تتيح لها التّعبير عن مواقفها في قضايا الساعة من دون مواربة. يُعِينها على ذلك قراءاتُها الثرية والمتنوّعة في الأدب والشأن العامّ، والأهمّ من ذلك وقوفُها بشكل متوازن بين ثقافة المهجر وثقافة الجذور.

جالت هذه الصور عن نجوى وعالمها في رأس منال وهي تتنشّق عَبَق القهوة الساخنة، وعاودتها أمسية محمود درويش التي حضرتها معها في ذلك الزّمان، وكيف بدا مرهَقًا وضئيلًا ليلتَها. ثمّ عرّجت سوانحها المتزاحمة نحو اللّغط الذي دار واستفحل بين نجوى وفايزة بعد اغتيال ناجي العلي في أحد أحياء لندن.

لماذا تقع أروى في الحبّ بكلّ هذه السهولة؟ هكذا تتساءل سهام، وهي تنظر إلى وجه زميلتها في البنك العربي، ثمّ صديقتها اللّصيقة. تنظر إلى وجهها الطفولي الصّغير وقد تورّمت عيناها وشحبت ملامحها بعد بكاء مرير. تراها ضئيلة ومتكوّرة كجنين خائف فوق الكنبة، وكلّ الشواهد النّفسيّة تدلّ على أنّها ستبيت اللّيلة عندها. لا تدري كيف تواسيها وقد استنفدت كلّ وسائل النّصح والتّعاطف. مسكينة أروى؛ هذه الفتاة الحلوة القسمات، اللّذيذة المعشر، الجذّابة حين تمزح أو تطلق ابتساماتها المتتالية. ولعلّها، بهذه الرّوح المندفعة بلا تحفظ، يُساء فهم مقاصدها، وتُلاحَق بالإطراء والغزل، فتتعثّر في الشراك بحثًا عن حبّ لا يملك أسباب بقائه.

طَلَبة خليجيّون؛ زبائن البنك؛ زملاء؛ معارف؛ أيٌّ من هؤلاء يمكن أن تجذبهم أروى بسُمرتها الأخّاذة ومزاحها اللّطيف. لتبدأ القصّة بالإعجاب، ثمّ التّواصل لخطب الودّ، ثمّ اللّقاءات في المقاهي وعلى وجبات عشاء، تليها الهدايا الصغيرة والبطاقات التي تلبّي كلّ النوازع: تهنئة بمناسبة؛ إعلان عن اشتياق؛ تمنٍّ بالشّفاء في حال التوعّك؛ شكر على حُسن معاملة؛ ذكرى ميلاد. وأروى، المنتظرة قلبًا يحبها، وعشًّا يهيّئ لها الحماية والاستقرار، سرعان ما تأمل خيرًا، وتطلق لقلبها العنان ولأحلامها المدى، لتكتشف بعد فترة، تطول أو تقصر، مدى هشاشة أحلامها التي تراها تتكسّر حلمًا بعد آخر. تراها سهامُ في هذه الحالة المزرية كلّما تجمّعت دلائل الهجر وأوصدت كلّ الأبواب الممكنة، وهي، على الرّغم من ذلك، لا تزال معلّقة من نياط قلبها، لا تستطيع لذلك الحبّ دفعًا أو مغادرة. وتوشك لولا ممانعةُ سهام وحزمها أن تذهب إلى عتبة باب سلمان متوسّلة منتحبة، باحثة عن دبيب نملة تدلّها عليه أو تخبرها عنه.

سلمان حبّها الأخير والأكثر عصفًا. يبدو مهذّبًا كجنتلمان، كلّما تردّد على البنك العربي في معاملة أو تحويل بنكي. يحدّثها، في مكتبها الصغير المفتوح على صالة انتظار الزبائن، بصوت خفيض تختلط فيه المصطلحات الإنكليزيّة بالعربيّة بنِسَب دقيقة، تشير إلى حُسن توظيف خلفيّته العلميّة والثقافيّة من دون افتعال. وحين بدا لها تردُّده المتكرّر على البنك، واختياره لها من دون سائر الموظّفين لإجراء معاملاته، بدأت أروى تشمّ رائحة الميل، تنبعث جليّة في ملامحه العربيّة الدّقيقة، ولهجته السعوديّة الممزوجة برقّة حجازيّة لا تُخطِئها الأذن. وحين مد إليها يده ببطاقة شكر خاصّة على حُسن التعامل، مكتوبة بكلمات إنكليزيّة بسيطة ومعبّرة، بدأ

الفضول يدفعها إلى البحث في ملفّ بياناته، فوجدت أنّه كان طالبًا جامعيًا يدرس «التنمية والاقتصاد» قبل خمس سنوات في جامعة لندن، وأنّ عنوانه قد تغيّر منذ عامين، وأنّه يقيم بمنطقة راقية في وسط لندن. أمّا مدينته في بلده فتقول البيانات إنّها جدّة. لم تتأكّد ماذا يعمل الآن بعد أن أنهى دراسته. ولكن تردّده على البنك، ومعاملاته الكثيرة، وإقامته بلندن، تشير إلى اشتغاله في عالم المال أو العقار.

في أوّل لقاء دعاها إليه في مقهى «ريتز»، ازداد يقينها بجدّيّته، واطمأنت إلى رجولته الفيّاضة وذكائه، وخفّة ظلّه. وهي، وإن احتفظت بمسحة من الهدوء والرزانة في اللّقاءات الأولى، إلّا أنّها سرعان ما عادت إلى انطلاقها وكركراتها ونظراتها اللّامعة المعبّرة في اللّقاءات التالية، الأمر الذي سارع في إذابة الجليد، وتدفُّق العواطف المشبوبة، والاندفاع نحو الحبّ الذي يتحوّل لديها إلى عشق متوهّج، ورغبة جامحة في التّملُّك.

كثرت اللّقاءات، وتوالدت الأحلام في قلب أروى، تؤجّجها وسامة سلمان ورعايته، ولمساته الجالبة للطمأنينة. يعجبها فيه ثقته بنفسه، وكرمه، وصراحته، وفهمه أطوارها حتّى في حالات العتاب والغضب. ويعجبه فيها طفولتها الطليقة، وذكاؤها، وأنوثتها الفيّاضة، وحبّها المجنون له. اتّفقا، في الكثير من الأشياء، وظلّت أشياء أخرى مدعاة للاختلاف والصدام، وخصوصًا إيمانه بأنّها لن تستطيع العيش في بلده؛ هي الفتاة اللّندنيّة النشأة والسكنى، على الرّغم من احتفاظها بلهجتها العربيّة وعشقها للأغاني الخليجيّة، التي تديرها له كلّما انطلقت معه في سيّارته الرّياضيّة، تغنّي له، وتطلق شعرها في الرّيح. كثر بينهما الهجرُ والوصلُ وتواترا. يأتي الهجر كلّما شعر سلمان بصعوبة ترويض أروى على قَدر المقاييس التي خبرها في بيئته، وخشيته من الغلبة على أمره، كلّما ترك نفسه رهن عواطفه. ويعود الوصل كلّما تاقت نفسه إلى عنفوانها، ورائحة شعرها، وضحكاتها التي تضيء عالمه. وهي بين الهجر والوصل تتأرجح كحمامة دائخة، يضرب جناحاها في الفراغ والشك.

بين الهجر والوصل تتفاوت المسافات والأيّام. حينًا يختفي لأيّام ويصمت، وأحيانًا يرحل بعيدًا إلى جدّة، في رحلة عمل أو رغبة في الانفراد والتوحُد. يترك كلّ شيء وراءه، حتّى أروى، ويختفي. وهي اعتادت، بعد طول مران، هذا اللّونَ من المراوغة، لأنّه سرعان ما يعود إليها على حين غِرّة، ليرتق خروق الهجر بوصل جديد، واعتذارات، ووعود. ولكن غيبته وصمته هذه المرّة لهما طعمٌ لاذع لا قِبَل لها بتحمُّله، بعد أن

لاحت لها تباشير قطيعة لا رادَّ لها. فقد كادت تتيقَّن في ذلك الصَّباح الأعمى من أنَّه لن يعود، حين جاء مندوب مكتبه بمعاملة تُعلم البنك بانتقال أعماله من لندن إلى جنيف. هكذا ارتجَ عليها الأمر، وتطايرت غربان النَّهار أمام ناظريها، لتملأ قلبها بالعتمة. بحثت في خطاب الإفادة عن أرقام هواتف أو عناوين تشفي غليلها، فلم تجد غير البيانات القديمة، وغيرَ الروع يفتّتها إلى هشيم.

اجتمعت على أروى كلُّ الأسباب لتكون ما هي عليه. شباب موّار، وأمومة فيّاضة، ورغبة في بيت آمن يعيد إليها السقف الذي افتقدته بوفاة أبيها حين كانت طفلة في الخامسة، بعد فترة وجيزة من هجرة الأسرة من اليمن إلى بريطانيا. تشعر بالشتات، فأمُّها تقيم ببيرمنغهام مع أحد إخوتها، والأخ الآخر متزوِّج زواجًا متضعضعًا ينذر بالنهاية، بينما طفلاه في حالة حلّ وترحال بينها وبين أمّها. وهي، على الرَّغم من استقلالها بسكن خاصّ، لا تشعر بالأمن النَّفسي، وترى عمرها يذهب بَدَدًا في علاقات فاشلة وآمال مضمحلّة.

تأخَّر الوقت، وأوشكت أروى على النوم بعد بكاءٍ دام. نهضت سهام لتُعدّ لها شوربة الدجاج بالذُّرة، وهي تفكّر في الاتّصال بسميحة. سميحة أيضًا لا تزال ترمِّم علاقتها بهشام وتأمل خيرًا في إتمام الزواج الذي تأجَّل أكثر من مرَّة. ربَّما في اجتماع الاثنتين ما يخفِّف أعباء نفسيهما، ويجعل المساء ينتهي بسلام.

نامت أروى، واعتذرت سميحة عن المجيء. وخَلَت سهام إلى نفسها مستعيدةً تفاصيلَ يومها الثقيل: حديث يوسف عن خلافه مع مرشده العلمي؛ عن مرض أمّه؛ عن زواج إحدى أخواته في مصر من دون تمكُّنه من الحضور. حاولت أن تحلِّل تعلُّقه بها؛ وضْعَها ضمن أولويّات يومه وحياته؛ قربَه الذي يتحوَّل إلى التصاق طفل بأمّه. يقترب حتّى يكاد يمسّ ذراعها، ويميل برأسه إذا كانا جالسين في الحافلة حتّى لكأنَّه يهمس أو يُفضي إليها بسرّ لا يعرفه سواهما، ويهرع إلى حَمل أكياسها كلَّما صادفها، تهمّ بالدُّخول، كأنَّه يكفِّر عن تقصير مستحَقّ سلفًا. هو الذي يساكن كلير فتاته الإنكليزيَّة، ويأتي إليها بصحبتها في أحيانٍ كثيرة كأنَّها زهرة معلَّقة في عروة سترته! وهي سهام نحّاس، الممتلئة كرمًا، المتفتّحة بأريحيَّة كأقحوانة في منتزه، ينظر إليها كلُّ من يمرّ بامتنان، ملوِّحًا ومبتسمًا وشاكرًا الله لأنَّها ضمن مفردات يومه. تتأمَّل في المسافة الممتدَّة بينهما، مسافة تُشعرها بالقشعريرة أحيانًا، وبالدِّفء المخاتل أحيانًا أخرى. تجعلها

تفكّر في الاحتمالات، ثمّ في المستحيل، ثمّ تطرد الفكرة برمّتها كما تهش على ذبابة، وتواصل يومها بلا مبالاة. وحين تعود إلى بيتها في نهاية النهار، تعدّ وجبة خفيفة لشخصين، فربّما مرّ ببابها في المساء.

حبّها الأوّل كان مخاتلًا أيضًا، ولا تدري إن كان حبًا أم استسلامًا لمجريات ما يحدث. تعود من المدرسة لتصطدم بوجه أمّها الممتلئ اضطرابًا، بعد أن أمضت يومها ترتّب الأسرّة وتنفض الشراشف. تراها ترتجف بغضب وفي يدها صورته التي وجدتها تحت الوسادة. «يا اميمتيييييي.... صورتو تحت المخدااااااااا». صوتها المخذول لا يزال في سمعها بعد مرور كلّ هذا الزّمن، ووجهها كذلك وهي تعضّ كفّها على طريقة الأمّ المكلومة. لم يصدر عنها جواب إزاء القبض عليها متلبّسة غير ارتجاف في حنجرتها: «هو اللّي جبرني آخدها... أنا ما بدّي». واسترجعت مناسبة التمام العائلة في قُدّاس كنيسة الحي. في ركن منزوٍ عن الزحام حاصرها، وعبق حبه في وجهه المحتقن بالحمرة. عصر يدها وأغلقها على ورقته وصورته: الورقة بسطرين من الشعر، والصُورة له.

هو أحد أبناء عمومتها، نجيب نحّاس، الشابّ الذي رآها حبه الأجمل، وإلهامه وقصيدته. يكتب الشعر لها وفيها، ويعدها بأن أوّل ديوان سيكون إهداءً خاصًا بها. وهذا ما كان في مقتبل أيّامه الحافلة بالصيت الأدبي. الآن، هناك شارع من أهمّ شوارع إربد يحمل اسم نجيب نحّاس، كأنّه صفحة من كتاب تاريخٍ لم تحسن هي قراءتها حتّى الآن. وربّما لم تعرف كيف تقرأ تلك الصّفحة حينذاك، بعد أن امتلأ رأسها بالضباب والتّقريع، وبآمال أخرى وأحلام أبعد من حدود إربد. حاصرتها المواقف المتذبذبة من العائلة والأخوة حين رغب في مشاركتها في حياته وقلبه، فتردّدتْ واضطربتْ وأجّلتْ، حتّى بدأت الأشياء تتّخذ مسارات أخرى. ثمّ أتتها فرصة السّفر للعمل في الكويت، فمات الموضوع وافترقت الطُرق. لاحقًا، علمتْ بأنّه تزوّج بأخرى بعد يأس، وأصدر ديوانه الأوّل تاركًا إيّاه بلا إهداء، في إشارة إلى فراغٍ أجوف، سيظلّ فاغرًا إلى ما لا نهاية. حين سألتها منال ذات جلسة عن احتمال تغيُر قَدَرها لو رجعت الأيّام القهقرى، أجابت بأنّ شيئًا لن يتغيّر. كانت فتاة تحلم بأنّ في المدى متّسَعًا يدعوها إلى الخروج من الارتهان للمكان والعائلة، وأنّ هناك حياة أخرى تستحقّ أن تُبنى على مهل؛ حياة تراها واعدة ومليئة بالرّحاب والبلدان والفرص، والمستقبل الذي يستحقّ المغامرة.

يأتي أكتوبر وتحت معطفه الخريف. تتعرَّى الأشجار وتسود كأنّها فارقت الحياة، وتشرئبُّ الأغصان نحو السماء عارية ملساء، بعد أن نفضت أوراقها ودخلت في سبات عميق. تدوس منال على أكوام الأوراق المتساقطة، وتسمع خشخشاتها وهي تتفتّت وقد اختلط أصفرها بأحمرها وما بينهما من تدرّجات لونيّة تستثير التأمُّل. تنشط هبات باردة ممزوجة برطوبة خفيفة تدعو إلى التدثُّر، وربّما إلى فتح المظلّة ما إن يبدأ الرذاذ. عائدة من معملها في نهاية النهار، لم ينطفئ الضوء بعد، وإنّما يتسرّب خلسة كأنّه يخاتل ساعة الغروب. ليس هناك في الحقيقة من غروب. هو اللّيل يهبط فجأة فوق المدينة فتتلقّاه بالأضواء الناعسة.

تحبّ الخريف والشتاء هنا، على الرّغم من قِصَر النّهار الذي يودّع نوره منذ السّاعة الرّابعة. تشعر بأنّ في المساء متّسعًا للاستمتاع بهدأة البال، حين تدخل فتشمّ رائحة الدّفء المنزلي منبعثًا من التدفئة المركزيّة التي تضبط ذاتها أوتوماتيكيًا على ساعة العودة. تُشعل الأضواء الجانبيّة الخافتة، وتتدثّر بكنزة بيتيّة وتنتعل خفّين من القماش، وتدخل مطبخها الصّغير لتُعِدّ ما تأكله. للشوربة طعم الحنان في هذا الفصل، وإذا أكلت مع شريحة سميكة من الخبز الأسمر المدهون بالزبدة فالنعمة تكتمل. الشتاء يُهيّئها للعمل الذهني والتّفكير والقراءة المسترخية وطباعة أوراقها على مهل، بينما موسيقى هاندل المائيّة تُعزف في فسحة المكان. وحين تتقهقر ليالي الشتاء ويدنو الرّبيع ثمّ الصّيف، تبدأ ساعات النّهار بالتّمدُّد، ثمّ تتمدّد بأقصى ما يمكن تحمُّله ابتداءً من يونيو حتّى بدايات سبتمبر. نهارات طويلة تجرّ وراءها شمسًا لا تنطفئ إلّا ما بعد العاشرة مساءً.

كان طول النهار الصّيفيّ يُرهقها، ويُشعرها باختلالٍ ما في السّاعة الكونيّة، وفي ساعتها البيولوجيّة. ماذا يمكن أن تفعل بهذا النّهار الممتدّ كأبديّة جاثمة على القلب؟ وهي التي برمجت حواسّها وتوقُّدَ ذهنها على عتمة المساء. كي تنسى أمر الشمس في التاسعة والنصف مساءً، كانت تتحايل على هذا الوضع المربك بإسدال السّتائر السميكة في وجه الضوء، وإشعال أضوائها الكهربائيّة الخافتة، ثمّ الانصراف إلى العمل الكتابي تحت جنح هذا الوهم.

لم تكن تخشى السّير في الطرقات الهادئة المؤدّية إلى مسكنها ليلًا. فالحي لا يخلو من المارة حتّى في السّاعات المتأخّرة؛ والمدينة أليفة

ومطمئنة. وقطارات الأنفاق تظلّ سائرة حتى منتصف اللّيل، بينما للحافلات رحلاتٌ وخطوط تخدم مشاوير اللّيل للساهرين والمتسكّعين وأصحاب المهن اللّيليّة. تعود منال أحيانًا متأخّرة في المساء، بعد الاطمئنان إلى نتائج تجاربها المخبريّة، أو بعد عكوف على تدوين الملاحظات في أوانها، فتسير غير متعجّلة، مستأنسةً بزحام الناس، مكتفية بذاتها حتّى وهي تستند إلى الفراغ. وعلى الرّغم من الانشغالات اليوميّة، يظلّ هناك فجواتٌ من فراغ الرّوح لا تمتلئ بالوقت ولا بالضّجيج. كلّما مالت إلى يمينها أو يسارها، شعرت بتلك الفجوات الفاغرة، كمن يتّكئ على هواء.

جاءت إلى الحياة كآخر عنقود، كما يقولون. سبقها ثلاثة أخوة من الذكور. وحين أتت هي بعد معاناة أمّها من انقطاع حمل ومرض، لم تكن حملًا فرديًّا، وإنّما كانت توأم شقيقها. وُلدت بوزن أكثر منه وصحّة أوفر. أطلق عليهما اسما منال وكمال. لم تدرِ إن كان ذلك من قبيل السجع المحبّب، أم أنّ اسمه جاء تطلّعًا إلى استكمال نقص، أو إشارة إلى وحدة تكامليّة لا تستقيم حياة التوأمين إلّا بها. أضاف كمال، في ضعفه واعتلال صحّته، أعباء أخرى إلى أمّ لم تكن في أحسن أحوالها. وحين مات في عمر السنتين، خلّف في نفسها آثارًا من حسرة لم تندمل. مات كمال وبقيت منال كعلامة استفهام مجوّفة، أو كائن بعين واحدة أو رِجل واحدة. لهما بضعُ صُوَر فوتوغرافيّة معًا، كما هي العادة في حال التوائم. صُوَر قديمة بهتت، ثمّ أهملت، ثمّ طواها النسيان، وربّما تمّ التخلّص منها مع مخلّفات أمّها الميّتة.

هي لا تتذكّر هذه الحقبة الباهتة، فقد كانت أصغر من أن تعي ما يحدث من مرض وفراق وانقطاع صلة. ولكنّها تتذكّر لاحقًا وجه أمّها الشاحب دائمًا، وأنفاسها المتقطّعة وهي تكظم غيظها كلّما لاحت بوادر شجار أو نكد. وتتذكّر سعالها الذي يستمرّ طوال اللّيل. لم يكن موت كمال هو قشّة بعيرها فقط، وإنّما كانت هناك أحمال أخرى ساهمت في صمتها الطويل وانكفائها على العزلة، واستسلامها للوهن ورضاها بالقليل. ورثت منال عن أمّها المزاج المعكّر بالكآبة، والاستعداد للشّجن والركون إلى التأمّل، أو لعلّ نشأتها في هذا الجوّ عزّزت فيها هذه الميول. ولكنّها لم تشبه أمّها في الركون إلى واقع الحال، وظلّ عِرقها ينبض بالتوق إلى الانفلات من الرتابة. توقٌ أصيل ومتوقّد ظلّ يَعِدُها بأنّ في جعبة الأيّام ما يستحق الانتظار.

تسير تحت الرذاذ عائدة إلى مسكنها الذي ألفته ووجدت فيه مستراحًا للعزلة الجميلة والاكتفاء؛ تسير وهي تستشعر تلك الفجوة عن يمينها حينًا، وعن يسارها حينًا آخر، وفي جوفها دائمًا. فكّرت إن كان ذلك هو أحد هواجس مَن وُلد كتوأم. هاجس مخزون فيها منذ عهد الرَّحِم، ثمّ عهد المهد، يعزّزه افتقاد توأمها في عمر اللّاوعي. قرأت في أحد الموضوعات الطبّيّة أن من فقد ساقًا أو ذراعًا يظلّ يستشعر وجودًا وهميًا للعضو المبتور، كأنّ طاقة العضو المفقود لا تزال ترسل ذبذباتها في الفراغ الذي خلّفته. هل هذا هو السرّ وراء توقها إلى من يملأ تلك التجاويف الروحيّة الموجعة؟ توق ملحاح لا يهدأ ولا ينام، كأنّه أصل الحياة وجوهرها اللذان لا تستقيم إلّا بهما. وجدت في القراءة والموسيقى والطبيعة غذاءً للنفس وسلوى، ومحرّكًا إضافيًا للأشواق المبهمة التي تطوّقها من كلّ جانب. كان كلّ شيء ينضج على مهل: التوق إلى الحبّ؛ التوق إلى الأمومة؛ الجوع إلى الاحتواء وهجعة القلب.

هل كان ذهابها بصحبة نجوى إلى معرض كتاب كلّيّة الدراسات الشرقيّة ذلك اليومَ صدفةً محضة؟ وهل كان صدفةً محضة وجودُ ياسر أعظمي، الذي لطالما لمحته ولمحها وتبادلا التحايا العابرة في ممرّات كلّيّة العلوم في «إمبيريال كوليدج»؟ ما الذي أتى به إلى كلّيّة الدراسات الشّرقيّة وهو طالب الفيزياء ومعمله هناك؟ كان في الإمكان إرسال تحيّة عابرة من بعيد بهزّة رأس كما هو المعتاد، إلّا أنّ رؤية منال له وهو يتصفّح باهتمام كتابًا في التاريخ المعاصر أوقفها. ثمّ دفعها فضولها إلى الاقتراب والاستفسار عن إمكانيّة المزاوجة بين علم الفيزياء وعلم التاريخ. رفع رأسه وحيا زميلة الدراسة، ثمّ أردف وهو يرفع نظارته كأنّه يقرأ في صفحة أخرى من كتاب آخر: وأنتِ، ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

لأوّل مرّة تلاحظ أنّ عينيه زيتيّتان ضاربتان إلى الخُضرة، أو خضراوان مموّهتان بالرّمادي، وأنّه أطول منها قامة، وأنّه في أوائل ثلاثينيّاته ربّما. لم تقترب منه هذا القرب من قبلُ، لتبدو الأشياء أكثر وضوحًا. في ممرّات الكلّيّة يبدو الجميع مثل روبوتات متحرّكة، يرتدون أرواب العمل، ويدخلون ويخرجون عبر الأبواب بوجوه جامدة وكلمات مقتضبة، ناثرين في الجوّ بقايا من روائح المحاليل والتركيبات الكيميائيّة. لا ينظر أحد إلى عين الآخر أو يطيلُ التأمّل في الملامح. الآن، يبدو الأمر مختلفًا حين تنظر منال إلى ياسر بملابس أخرى، وعينين زيتيتين، وكتاب في اليد عن تاريخ العراق المعاصر. لم تكن إجابته بأنّه يُعِدُّ بحثًا جانبيًا في

تاريخ بلده لإحدى الدوريّات أوّلَ الحوارات وآخرَها بينهما حينئذ، وإنّما كان القادمُ من الأيّام يحبل بانفتاحات أخرى عن سيرة الوطن، والغربة، والهجرة، والذكريات، والأحلام المؤجَّلة. أحيانًا، لا تحتاج الأرواح المتشابهة إلى زمن طويل لتتعارف وتتآلف، وإنّما يكفيها التماعةُ عين سانحة، أو مروقُ عابرٍ لظلّ، لتنعقد الصلات وتتأكّد. هكذا بدأت الصلة مموَّهة بالغموض، تدفعها إلى الأمام مصادفات متفرّقة؛ حديثُ حول فنجان قهوة؛ مكالماتٌ هاتفيّة متباعدة؛ المشيُ على الأقدام في المتنزَّهات المفتوحة. هكذا تتجمّع الإشارات لتقود إلى التعوُّد، فالألفة، فالتعلُّق.

حدّثها ذات صباح ملبَّد بالضباب عن حديقة بيتهم هناك في بغداد. كأنّه وهو يتحدّث ويمسح نظّارته يرى من خلال الذرّات المائيّة خيالَي نخلتين، وشجيراتِ الريحان البلديّ، وأزهارَ الرازقي، وفَسقِيّةً، ومقعدًا طويلًا كان يستريح عليه أبوه عصرًا حين يبرد الهواء. يطقطق بمسبحته الكهرمان، ويُصيخ السمع إلى غرغرات يمامات البرّ وهي تحطّ فوق السعف. يلتفت إلى جاره عبر سُور الخوص الفاصل بينهما ملقيًا تحيّته المعتادة: «اللّه يساعدك، أبا إياد». يقول لها إنّه رأى أبا إياد في منامه، حاملًا ملابسَ ابنه الذي ذهب للحرب على الحدود الإيرانيّة. كان يدور بالملابس العسكريّة ثمّ ينشرها كالغسيل على سُور الخوص، ثمّ يطير بعيدًا كالبالون. لا يدري ما معنى هذا الحلم. كان إياد شابًا تحلم الفتيات بوسامته، ويكركرن حين يتّكئ ويغنّي لهنّ «عزاز... واللّه عزاز». صاحبَه على مقاعد الدّراسة في حيّ الكرادة، وجرَّب معه أوّل سيجارة وهما يتسكّعان في شارع أبي نؤاس، وتمرّنا على حمل الأثقال في نادي النّهضة الرّياضي. يقول لها إنّه لم يرَ إيادًا في منامه، وإنّما رأى أباه فقط. تُرى، ماذا حدث له على الجبهة؟ ولماذا ملابسه منشورة كالغسيل؟ هكذا يُطلق السؤال، بينما ضباب الصباح ينقشع شيئًا فشيئًا.

جلسا على المقعد المستطيل على ضفّة البحيرة الممتدّة في المتنزَّه، وراحا يقضمان الفطور الصباحيّ المختصَر في فطيرتي التفاح بالقرفة وكوبين من القهوة الساخنة، جلباها من نافذة الكشك الصّغير بكوبين من الورق. كان حضور الماء وظلاله طاغيًا في المكان؛ في الضباب المتلاشي؛ في بخار فنجانَي القهوة الساخنين يتصاعد متكاسلًا؛ في أنفاسهما التي تتكثّف على شكل دخان رهيف، ثم في تلك البحيرة السّاكنة كمرآة عملاقة تعكس وجه السّماء الرّمادي. وجه صقيل وبارد لا يحرّك سكونَه غيرُ بطّتين فكّرتا فجأة في أن تغمسا منقاريهما وراء فُتات من الخبز، بينما نهضت

بجعة ثلجيّة الريش كأنّهما أقلقا أحلامها.

حرّك حضور الماء في الجالسَين صُورًا بعيدة، وأحالهما إلى حديث مائيّ يخصّ كلًا منهما على حِدَة، ويحفّز على الاستذكار والمقارنة. بدأت منال تغرف من طفولتها وتتذكّر أنّها كانت تخاف البحر. تتشبّث بثياب أمّها كلّما ذهبوا في نزهة، وتظلّ تبحث عن مخبأ: جدار، أو حاجز، أو أيّ شيء آخر يستحيل وجوده على السّاحل، إلى أن تقنع بالاختباء تحت عباءة أمّها، التي إن كانت تحجز مشهد الموج فإنّها لا تستطيع أن تحجز رائحته أو صوته. خوف غريب لم تستطع أن تفسّره، وتحمد الله أنّه اقتصر على الطفولة المبكّرة وتوقّف هناك. دخلت بعدها في هدنة مع البحر، ورأته لطيفًا وحنونًا وآسرًا في مشاهده المُعجِزة، التي لا تُفسَّر. ارتبط البحر بمدينتها وبميراثها المهنيّ والإنسانيّ، حتّى لكأنّه ساكن تحت جلود الناس، وفي ذاكرتهم وفنونهم ولغتهم ومواويلهم الموغِلة في الحنين. تحدّثه عن أحوال البحر، وكيف ينتابه المدّ فيتحوّل إلى بحيرة ساحرة تشفّ عمّا تحتها من كائنات لطيفة وأعشاب متراقصة، موازيًا بأناقة تلك المساحات الرَّحبة من الرِّمال الناعمة البيضاء. ثمّ كيف ينتابه الجَزْرُ فينحسر متراجعًا، ليتكشَّفَ جسده عن الصخور الزلقة والأصداف الفارغة، وعن السراطين وهي ترفع كلّاباتها وتركض نحو الماء. وإن كان الجوّ رطبًا نفث في الجوّ رائحةً زنخة كرائحة امرأة ثكلى.

ابتسم لأوصافها، وأردف بأنّه لم يرَ البحر إلّا لمامًا، في سفر عابر ربّما. ولكنّه عاش حياته مجاورًا نهرَ دجلة، يراه حاضرًا في مدينته ملءَ البصر. وإن اختبأ وراء الأبنية ومنعطفات الأحياء، فهو موجود أيضًا في أنفاس المدينة ككائن خرافيّ ممتلكٍ ديمومةً أبديّة. تؤكّد الأساطير السومريّة أنّه خُلق من قبل الإله «إنكي»، الذي نفثه من فمه، فامتلأ الوادي بمياه متدفّقة لا تغيض. وفي التوراة ذُكر دجلة كأحد أنهار جنّة عَدن. وقيل إنّه هو نهر اللّبن، بينما العسل للنيل، والخمرُ للفرات. توجّه إليها وقد اختلط في ملامحه الجِدُّ بالهزل، سائلًا إيّاها عن رأيها في هذه الروايات. ثمّ أكمل كأنّه يصل إلى استنتاج ما، فحواه أنّ دجلة الآن غدا نهرًا منهَكًا، وقلّت البساتين على ضفّتيه. ينسلّ متخثّرًا ويشيح وجهه عن المدينة، بعد أن أصبح يشبه الناس من حوله في تعرّضهم للتلوّث والاحتباس، وتوقهم إلى العافية وخضرة النّفوس والعقول.

قال إنّ دجلة أصبح مركونًا في ذاكرته الآن مع كلّ ما هو غابر: الطفولة وبيت العائلة والبستان، ووجه أمّه ومسبحة أبيه، ورفاق صباه

ومدرسته. وإن جدارًا كئيبًا يحول بينه وبينهم، ويملأ عينيه بالضباب. الأمر لا يقف عند الحرب الدّائرة الآن على الحدود الإيرانيَّة، والتَّفكُّر في مدى الجدوى من استمرارها، ناهيك عن إشعالها والزجّ بخيرة شباب الوطن في أتونها، وإنَّما هناك تاريخ من التسلُّط والدكتاتوريَّة يُبنى على مهل، ويُخطَّط له بوساطة عقليَّة مغامرة أو مجنونة. ماذا يمكن أن نسمِّي ما يحدث في قضيَّة الدَّجَل الآن، فكلّ ما تأتي به الأخبار مُز ومنفِّر. وماذا نقول عن المجازر والملاحَقات وانتهاكات حقوق الإنسان التي تتمّ الآن على قَدَم وساق؟ ماذا عن جمهورية الأخ الأكبر الذي أعاد تشكيل الإنسان والإرادة والعقل، وعبَثَ بالتاريخ، وأجرى أكبر عمليَّة غسل دماغ للجيل الجديد من الأطفال والناشئة؟

أطرق، وصمت، ثمَّ أخذ نَفَسًا عميقًا، وأحسّ كأنَّه وِجاق من النار يشتعل في بريَّة هاجعة تحت الصقيع. تأسَّف حين لاحظ اندفاعَه في مثل هذا الحديث الموجِع، مع جليسة جاءت تشاركه في فطور الصَّباح على مقعد في متنزَّه، وتتحدَّث عن بحرٍ وديع لا يعرفه. أسند ظهره إلى الوراء، ثمَّ نظر إلى الأفق كأنَّه يلخِّص خواطره المبعثرة، ثمَّ اقترح عليها أن تقرأ جورج أورويل وروايته **1984**، أو أن تعيد قراءتها إن كانت قد قرأتها سلفًا، إذا أرادت أن تفهم ماذا يجري في بلده، فقد قال أورويل كلّ شيء بالنيابة عنه.

نهض الجالسان حين أوشكت الساعة على العاشرة صباحًا. نَثَرا ما تبقَّى من فطيرتيهما للبطّ والبجعات اللّاتي فرشن أجنحتهنَّ الأنيقة استعدادًا لقفزات مباغتة. سارا معًا نحو محطَّة الأندرغراوند قاصدَين كلِّيتهما الجامعيَّة. بدأ المطر يرشق وجهيهما فعاجلاه بمظلَّتين سوداوين، واندسا بين الجموع. لاحت منها التفاتة إلى ملامحه، ورأت عينيه الزيتيتين وقد عادت إليهما السكينةُ على مهل، وطافت فيهما بساتينُ دجلة المتلاشية. أطرقا يفكّران في المطر والوطن والأيَّام الآتية.

عائدون من رحلتهم الخلويّة إلى «هامستيد هيث»، يتوزّعون على محطّات الباص وقطارات الأنفاق والسيّارات المركونة في مواقف المتنزّه. بدوا منتعشين ومتعَبين وفائحين برائحة الحقول بعد يوم أمضوه في الخلاء الأخضر والمروج، يتقاسمون ما في أكياسهم من سندويشات وفواكه ووجبات صغيرة، ويركضون كالأطفال نحو المنحدرات المعشبة. التقطوا الصُّور التذكاريّة، وضحكوا كثيرًا، واستلقوا تحت الشمس الدّافئة كحِملان وديعة ممتلئة بالرضى. هكذا تأتي بعض الأيّام لتعطي دفقًا من السعادة البريئة، وشيئًا من الكرم والاحتفاء بجمال اللّحظة.

وصلت سهام إلى باب مسكنها محمّلةً بالأواني ومخلّفات الرّحلة، وانشغلت بالبحث عن مفاتيحها ريثما ينقل يوسف أكياسها قفزًا إلى الطابق الأوّل. فتحت الباب فاستقبلتهما رائحة المكان بهبّة من الدفء وبإطلالة من نبتة النعناع المعلّقة قرب الباب. دخلت لتغتسل وتغيّر ملابسها، بينما دلف يوسف إلى المطبخ وشغّل إبريق الماء الكهربائي. وضع كيسين من شاي الأعشاب في كوبين منقوشين بزهور الأقحوان، ثمّ جلس في هدوء المكان ينتظر. لم يطل انتظاره حين أقبلت سهام بادية الانتعاش وقد توهّجت ملامحها بالوردي، كأنّها لا تزال تدور بتنورتها الواسعة في المرجة، وتستقبل الشمس بوجنتيها الضاحكتين.

استمرّ الصّمت يسري في المكان، كأنّهما اكتفيا من الكلام والثرثرات، وحان وقت التأمّل والانسراب في قلب اللّحظة، والدّخول في طقس الشاي وبخاره المتصاعد على مهل. هو الاكتفاء، إذن، هذا الذي تستشعره يسري في كيانها متمهّلًا: الاكتفاء بوجوده إلى جانبها وديعًا مسالمًا، مالئًا المكان بهالته وجِرمه اللّطيف وأنفاسه. ما استطاعت يومًا أن تفسّر وجوده حولها بأكثر من ذلك. وهل تقوى على التّفكير في أكثر من ذلك؟ هو الذي يصغرها سنًّا، ويختلف عنها دينًا وملّة، وهو الذي يساكن كثيرًا، ويعلن وجودها في حياته دونما حرج. وهو الذي، على الرّغم من ذلك، يلوب حولها هي، ويستلذّ القرب ويسعى إليه، كجرم لا يستطيع الخروج من مداره! تشعر كأنّها تسير في منطقة مضبّبة بالدّخان، أو كأنّها «أليس»، الطفلةُ الضائعة بين الأحاجي والمنسربة في المتاهات، وأنّ كلّ شيء حولها يبدو خارج المعقول في شكله أو قياسه، وأنّه ليس أمامها إلّا استكمالُ السّير في المتاهة وملاحقة الأرنب الحكيم كما تفعل «أليس». ولكن، إلى أين سيأخذها الأرنب الذي بدأ ينبض بين أضلاعها؟ ينبض بخوف أحيانًا، وبألم

أحيانًا أخرى، وبحيرة معظم الأحيان.

لم يتبقَّ في الكوبين غيرُ رشفات أخيرة، حين أخذ الاسترخاء يسري في أعضائها وبدأ رأسها يصفو، بينما تنقَّلت عيناه في اللَّاشيء كأنَّه يستجمع نثار المجرَّات، وأخذت كفَّاه بالتقلُّص وهو يعصر الكوب الذي بينهما. بتؤدة انزلقت قامته الطويلة عن الأريكة المجاورة لها حتَّى لامس الأرض، واستوى في وضع بين الجلوس والرُّكوع. التفتت نحوه وفي عينيها ما يشبه التساؤل. أمسك بذراعها وبدأ يمرِّغ وجهه وشفتيه بها هابطًا إلى الرُّسغ فالكفِّ، وقد تهدَّجت أنفاسه كأنَّه على وشك البكاء. لم تدرِ إن كانت تلك قبلاتٍ متوتِّرةً، أم لونًا من الاحتضان المتقشِّف، لكنَّها شعرت بوجهه الملتهب يحرق ذراعها.

هو الحبّ، بلا شك؛ هكذا رنَّ جرس التَّنبيه في رأسها مباغتًا إيَّاها بما لم تظنّ أو تحسب. كانت لحظات مكثَّفة بالدَّهشة وقلَّة الحيلة. وها هو أمامها يعبّر عما لم يستطع التَّعبير عنه بالكلام. رقَّت لحاله، وعاودتها مشاعرها المتكتِّمة. مسحت رأسه بحنان، وبادرته بصوت لا تدري كيف انبثق في حنجرتها: «أنا أحبّك أيضًا». لم يَطُل الوقت لتستوعب صدى جملتها الطائرة في فضاء الغرفة المليئة بالتوتُّر، حتَّى انتفض واقفًا كمن أفاق من غفوة مباغتة، وقد هرب الدم من وجهه. تلعثم كمن قُبِض عليه متلبِّسًا. لملم شتات نفسه، دار حول المكان فيما يشبه الاعتذار المتأخِّر، ثمَّ خرج مهرولًا.

كانت الأيَّام التالية أيَّامَ كرب ومحنة على قلب سهام. هي الشجرة الصلدة، الملتفة على أغصانها بأنفة، كيف يحدث لها ذلك؟ بكت ليلتها بألم مضاعَف وندم أكل نياط قلبها. وفي الصَّباح الباكر، استدعته على وجه السُّرعة، للتَّحدُّث عمَّا حدث وتبريره. هو مَدين لها بتفسير يشفي فضولها وروحها المنكسرة، ويزيل اللُّبس. لم يكن يوسف يملك غير أن يأتي وأن يخوض معها في نقاشات مؤلمة وعصيبة، استمرَّت أيَّامًا طويلة، واستهلكت دموعًا وحسراتٍ وغثاثات ملأت نفسيهما وفاضت. لم يكن ما بين سهام ويوسف مجرَّدُ صِدام ينتهي بأن يتوجَّه كلّ في طريق. وإنَّما من يعرف سهامَ عن قرب، يعلم بأنَّها تتعلَّق بالأصدقاء من نياط روحها، وأنَّ العِشرة والصُّحبة لهما مقامات في نفسها تكاد توازي مقامات صلة الدم. هكذا تفهم سهامُ الصلاتِ والصداقات وتتصرَّف على أساسها بلا ندم. وحين تحدث النزاعات أو سوء الفهم، تعطي الآخَر مساحةً للمراجعة، ثمَّ تعود لتستفسر وتحلِّل وتفاوض إلى أن تهدأ النفوس، غير عابئة بالخسائر

التي يمكن أن تتجاوزها بالتسامح والتَّحمُّل.

أدركت سهام أنَّ يوسف يحبُّها بطريقته الخاصَّة والغريبة، وأنَّه يعاني الفوضى الوجدانيَّة والتردُّد والخوف وعدم اليقين ممَّا يريد، وأنَّه واقع فريسة للإقدام والإحجام، بعد أن تشعَّثت مشاعره إزاء امرأتين وقادته إلى هذا اللَّون من التخبُّط. لم تكن سهام تطمع في قلبه، بل لم تعد تريد ذلك على الإطلاق. وكلّ ما تلا من حوارات وصِدام بينهما لم يكن غير محاولة منها لردِّ الاعتبار، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وسط مشاعر الإحباط والندم، إزاء اعترافها بحبٍّ وجدته لاحقًا غيرَ لائق وغير مُجْدٍ. وهي، حين تدخل في تلك السجالات مع يوسف ومع نفسها، كأنَّها تريد أن ترمِّم روحها الكسيرة وتستجلب لها العزاء والسلوى. لم تكن الأيَّام التي تلت تلك العاصفةَ أيَّامًا مهادِنةً لسهام وأحوالها التي كانت بين صعود وهبوط. عرفت خلالها نوبات البكاء المُرِّ التي تهاجمها أينما كانت: في أثناء النوم؛ في الحافلة؛ في العمل. وعرفت كيف يكون الاكتئاب في أسوأ درجاته، والمزاجُ في أدنى مراتبه. كانت ببساطة تعيش الحزن كما يجب أن يُعاش، وكما يجب أن يتوغَّل ويستفحل، إلى أن يطهِّر الرُّوح ويَجلوها، ويعيد إليها البريق.

إن كانت الصديقات المقرَّبات قد عرفن وفهمن أحوال سهام وتقلُّباتها في هذا الوقت العصيب، فإنَّ الأمر لم يكن كذلك في مجال عملها في البنك حينذاك. تعاطف الزملاء مع مزاجها المتوعِّك في الأيَّام الأولى، ثمَّ بدأت المشكلة تستفحل. تأخُّرٌ في ساعات العمل؛ غيابات مَرَضيَّة؛ أخطاء في الحسابات والتقارير والطباعة؛ تقهقرٌ في مهارات التعامل مع المراجعين. وهكذا، بدأت الأحوال تسوء وتنذر بمتغيِّرات وشيكة. تعاملت سهام مع ما يأتيها من إنذارات بلا مبالاة في البدء. ثمَّ قرَّرت بعد تفكير أن تبادر هي إلى اتِّخاذ قرار ترك وظيفتها في البنك. فإلى جانب ما انتابها في الآونة الأخيرة من أحوال نفسيَّة متردِّية، فإنَّها في قرارة نفسها كانت تدرك أنَّ عملها في البنك قد أوصلها إلى مرحلة الاكتفاء، وأنَّها غير قادرة على الخدمة في هذا المجال بعد الآن. وعليها، والحال كذلك، أن تعطي نفسها فترة من الراحة والتأمُّل في أحوالها، آملة أن تنتقل لاحقًا إلى مجال آخر بعيدًا عن الأرقام وقوائم الحسابات وعدِّ أوراق البنكنوت.

هكذا تعي فجأة، وهي في مخاض متغيِّراتها المزاجيَّة والرُّوحيَّة، أنَّها في مرحلة تستدعي المراجعة واتِّخاذ القرار فيما يخص العمل. لم تكن الأحوال النَّفسيَّة المُمِضَّة هي السَّبب الوحيد في تراجع الأداء حتمًا، وإنَّما

رأتها القشَّةَ التي نخزت فيها جملة من التراكمات التي لطالما غضّت عنها الطرف. التحقت بالبنك وهي واثقة بخبراتها وقدراتها المهنيّة. ولكن القيّمين على النّظام المهني، أو «السيستم» ومَن يديره من علّية الموظّفين البريطانيّين، يظلُّون ينظرون إلى المغتربين العرب أمثالها على أنَّهم «غير مستوفين لشروط الجودة البريطانيّة العالية»، مهما أظهروا من مهارة وتفانٍ. التمييز بسبب الهوية والأصول في قطاعات العمل والمؤسّسات، داءٌ متفشٍّ ،ومستشرٍ ومستمرّ، ولا يسمح بتراتبيّة عادلة لمن هو ليس من جِلْدتهم. كم احتاج منها هذا الأمر إلى طاقة من التحمُّل والقبول، على الرُّغم من تعشفه، ووضعه لها في أسفل سلّم الرواتب. تفكّر الآن، ما الذي يجعلها تقبل بهذا الوضع الظالم؟ وتستنتج أنّ تراجع أدائها في الأيّام الأخيرة لم يكن بسبب أوجاعها النّفسيّة فقط، وإنّما يبدو أنّه تمرُّدٌ على وضع مجحف. وإن كانت قد تجاهلته سابقًا، فليس من المنطق القبول به حاليًا. وربّما ما يحدث الآن من متغيّرات في حياتها هو علامة تنبيه وإيقاظ من غفلة أو تغافل.

هكذا فكّرت سهام، على الرُّغم ممّا ينتابها من جبال الهمّ، ورأت نفسها كأنّها محبوسة في قنينة محكمة الغطاء، وأنّ أنفاسها تضيق وتختنق، وأنّها في أمسّ الحاجة إلى الخروج نحو الفضاء والحرّيّة. إنّ ما هي فيه من خيبات الحبّ ووطأة العمل، هو القيودُ الأكثر فتكًا بروحها المتطلّعة إلى الانطلاق والطيران. طافت في رأسها المتعَب أطيافُ الأجنحة التي حلمت بها منذ أن كانت صبيّة صغيرة، تكره القيود والأعباء التي تحطّ من قَدر الفتاة وتضيِّق عليها، وتزجّ بها في زاوية خانقة تُدمي أجنحتها النابتة. تذكّرت ضِيقها بفسحة البيت، ونزوعها الدائم إلى الخروج إلى بستان عمّتها وطفة، تمرح في جَنَباته وتُذاكِرُ دروسها في الهواء الطلق. كم كانت تحبّ هذه العمّة التي عزّزت في روحها الانطلاقَ، وأتاحت لها فرصة الاختلاط بالجارات، ومصاحبتها في المشاوير البعيدة التي تعود منها منشرحة وجائعة، فتأخذها إلى المطبخ وتقلي لها بيضة. لا تزال تشمّ رائحة البيضة المقليّة ممزوجة بكمّ كبير من الحنان والتفهُّم.

لا تدري إذا كانت ثمّة أسوارٌ حقيقيّة في عمرها الغضّ حينذاك، أم أنّ الأسوار تُحاك على مهل، إلى أن تستحكم وتصبح لازمة من لوازم الحياة. إصغاؤها إلى القصص والحكايات التي يدبّجها زوج العمّة في مضافة العائلة بمهارة الحكواتي، كان يأخذها إلى آفاق بعيدة تثير الشغف؛ إلى بلدان وعوالمَ ونَواحٍ مغرية؛ إلى ذاتها بتوقها الفطريّ إلى الحرّيّة

والانعتاق. ولكنَّ زوج العمَّة سرعان ما يعود إلى صياغة حزمة من النصائح والوصايا بأسلوب موارب يلجم انطلاقة الخيال، ويعيد المستمع إلى شروط العُرف الاجتماعي وقيوده، التي غدت، بدوام التكرار، جزءًا من تكوينها النَّفسي، أو سجنًا ذاتيًا لا فكاك منه. لا تتذكَّر كيف سقطت في نهر العاصي حين كانت في عمر السنتين، في إحدى رحلات العائلة إلى حمص، كما قيل لها، ثمَّ إنقاذها في آخر لحظة. ولكنْ بدا لها الآن أنَّها محاولة لممارسة لون من الحرِّيَّة، والسباحة نحو البعيد. ما يحدث لها الآن هو مواجهة مع الذات الحرَّة؛ الجزءِ الذي تحبّه في نفسها. أن تحزن كما تشاء، وتقرِّر ما تشاء، وتعيد حسابات الرِّبح والخسارة في الحبّ والعمل والحياة كما تشاء. لكن يبقى صوت زوج العمَّة ووصاياه المحبوكة في القصص والحكايات، عصًا تهشّ على جِملانها الجانحة نحو السفح رغمًا عنها.

كانت فسحة الوقت بعد ترك الوظيفة مدَّةً كافية لأن تحلِّل سهام ما حدث لها؛ لأن تفهم ما عصف بها وبيوسف، وأن تستوعب ضَعفه وتخبّطه، وتعيد تشكيل العلاقة بأقلّ قدر ممكن من الخسائر. كان يوسف، طوالَ الوقت، مستجيبًا ومتعاطفًا مع غضبها وكآبتها، خافضًا لها جناح الذلّ، مدركًا ذَنْبه كطفل كسر زهريَّة ثمينة، ثمَّ جلس يلمّ شظاياها، ويحاول ترميم ما أصابها من شروخ. يشعر بأنَّه يحتاج إلى قربها على الرَّغم من الفوضى التي أحدثها، كأنَّ بينهما صلة روح لا تبلى، بالرَّغم من الزَّوابع التي لا بدّ من أن يحنيا أمامها رأسيهما لتمرّ. كانا يحتاجان إلى أن يمرّ الوقت ويأخذ في طريقه الغثاثات، ويحتاجان إلى هدأة النُّفوس تأخذهما نحو النِّسيان، ونحو صداقة بلا مرارات.

أخذت سميحة تقيس أبعاد علاقتها الزَّوجيّة بهشام، بعد مرور عامين على زواجهما؛ تحاول أن تسدّ الثغرات كلّما ظهرت، وتردم الملل بخفّة الظلّ والغنج وإذكاء الرّغبات الغافية. أدركت، بغريزة المرأة، مدى حاجة بيت الزّوجيّة إلى الانتعاش والحيويّة الدائمين. فكانت تطبخ؛ ترقص؛ تُشعل الشموع؛ تطوف بالبخور في الأنحاء لطرد ما يعكّر الصفو أو يجلب النّحس؛ تعطّر فراش الزّوجيّة بالخزامى وماء الورد؛ تعتني بترطيب بشرتها وصبغ شعرها وتزجيج حاجبيها ودعك قدميها حتّى تتحوّلا إلى قدمي طفلة نضِرتين. أحبّت هشامًا بصدق، وتعلّقت به تعلُّقَ الغريق بعد فشل زيجتين سابقتين، وأغمضت عينيها عن الكثير من بوادر بروده وركونه إلى السلبيّة واللّامبالاة، وتراجع شغفه بها.

لكنّ مشكلة الإنجاب ظلّت تؤرّقها وتسدّ عليها منافذ الأمل، وخصوصًا أنّ هشامًا لا يزال شابًا، وسيحلم يومًا ما بطفل يكمّل مشهد حياته. وقد استنفدت هي كلّ محاولات العلاج الممكنة حتّى وصلت إلى طريق مسدود. لم يكن الاستسلام للحسرات والهموم يليق بسميحة المحبّة للحياة. وحتّى لو ركبتها الهموم ليوم أو بعض يوم، فإنّها سرعان ما تحتال على الهمّ بالتنكيت والغناء وشراء الشوكولاتة، أو العكوف على إعداد طبخة دسمة، أو خَبز كيكة البرتقال التي تحبّها. ولم تَطُل الحيلة بها حين بدأت تطلق إشاراتها لهشام بشأن مسألة التبنّي. بدأت المسألة بإيماءات متباعدة، ثمّ بمفاوضات متدرّجة، ثمّ تحوّل الأمر إلى جدل وإلحاح لا ينتهيان إلّا ليبدأ من جديد. وكان هشام يبدي تفهُّمه وتعاطفه، مطالبًا إيّاها بالترّوي وإرجاء الأمر إلى حين.

لم تكن سميحة ممّن يطيل القطيعة مع أهلها في مصر. فدائمًا هناك تلك الإجازات التي تتيح لها السّفر بين عامٍ وآخر. تتفقّد أحوال شقّتها المؤجّرة، والتي كسبتها من زيجة سابقة، وتتواصل مع أخويها بحذر، متجنّبة طلباتهما التي لا تنتهي للمال والهدايا، مستنكرةً الإلحاح عليها والظنّ أنّها تملك أكثر ممّا يملكان، غير مدركَين تواضع مدخولها مقارنة بمستوى العيش في لندن. تجالس أمّها وتستمع إليها على الرّغم من الصدامات القديمة المزمنة وعدم التوافق، وبقايا ملامات وإحَن تظلّ عالقة على الرّغم من التقادم. ملامات بشأن طلاقها المتسرّع، وبشأن إرث لم يُسوَّ كما تتوقّع. وأكثرها وطأة لومها لأمّها بسبب دفع أختيها نحو زيجتين غير متكافئتين من خليجيين. صبيّتان في عمر الزهور قُدّمت كلّ منهما إلى

رجل متزوّج بعائلة من البنين والبنات، وبعمر متقدّم يوازي ضعفي عمر كلٍّ منهما. لم يكن هناك من تعليل تقدّمه الأمّ إلى سميحة غير رغبتها في توفير حياة رغدة لأختيها، ثمّ هو النّصيب ؛ الجملة التي تُنهي بها الأمّ كلامها كلّما أثير الموضوع وبدأت المشاحنات وأطلّ النكد برأسه. وعلى الرّغم من مرور أكثر من عقد من الزمان على الزيجتين، واستقرار الأختين في الخليج، وإنجابهما للأبناء، ثمّ ما تلا ذلك من ارتياح وتعايُش، فإنّ سميحة لا تزال تناور بشأن الموضوع كلّما خَلَتْ إلى أمّها. كأنّ غيابها عن مصر يمحو في رأسها ذاكرة الأيّام التي تمرّ والحياة التي ترمّم نفسها، فتبدأ حيثما انتهت في كلّ مرّة. ولعلّ حرمانها الانجاب هو ما يؤجّج فيها هذه الزوابع، وخصوصًا حين ترى أطفال أخوتها وقد تزايد عددهم وصَخَبهم كلّما عادت، فتختلط عليها المشاعر بين حنان الأمومة والحسرة على نضوب رحمها وقلّة حيلتها.

تلك السنةُ كانت مختلفة في حياة سميحة؛ السنةُ التي ألحّت على هشام أن يصحبها في إجازتها إلى مصر. كان الإلحاح ضروريًا ولازمًا لاستكمال الخطّة التي رتّبتها مع أمّها على مهل. كان هشام قد حدس ما وراء سفره إلى مصر، وذلك من خلال التّلميح والتّمهيد اللّذين دأبت عليهما سميحة وواصلتهما في الشّهرين الأخيرين بلا هوادة. وهو لم يكن ليغفل عن خطّتهما الرامية إلى إتمام مسألة التبنّي خلال تلك الرحلة إلى مصر، وخصوصًا بعد أن رأى إرهاصاتها تتبلور بين سميحة وأمّها اللّتين بدأتا بإعداد الأوراق الرّسميّة اللّازمة، والتي تحتاج إلى شيء من الالتفاف على القنوات القانونيّة لتمرير تلك الوثائق، بحيث يبدو هشام وسميحة كأبوين شرعيّين لمولودة أنثى تمّ إنجابها في مصر، وليس أبَوين بالتبنّي.

وهكذا عاد الزوجان إلى لندن وهما يحملان طفلة مصريّة سمراء لا يزيد عمرها على الشّهرين، تثبت الوثائق الرّسميّة أنّ سميحة ولدتها في مصر في أثناء إجازتها السّنويّة. وعلى قدر ما كانا يستبشران خيرًا بما ستحمله إليهما الطفلة من سعادة وهناء في مقتبل أيّامهما، كان أخوة سميحة يتميّزون من الغيظ، كونها مسجّلة طفلةً شرعيّة، يمكن لها أن ترث أمّها وتخلفها فيما تملك. وكان هذا مدار خلافات وإحَنٍ بينها وبينهم فيما سيأتي من أيّام؛ خلافات ستنجح في صدّ بعضها وستترك بعضها الآخر للزّمن الذي لا تعلم ما يخبّئه لها.

تنفّست سميحة الصُعَداء بعد أن تمّ كلّ شيء كما تمنّت وخططت. وعادت إلى لندن وهي تحمل آية بين ذراعيها، لتبدأ بممارسة ما تتوق إليه

من أمومة مؤجَّلة. كان عليها أن تتأقلم مع دور الأمّ الذي وجدت نفسها في دوّامته. حالٌ مختلطة من البهجة والتوتُّر والإثارة والخوف، تلاها الدخول في خبرات جديدة تحتاج إلى تهيئة نفسيَّة، ومهارات، وصبر، وتكريس للنَّفس يبدأ في تلك اللَّحظة ولا يُعرَف متى ينتهي. تجد نفسها أحيانًا تتساءل إن كانت قد فعلت الصواب، حين حملت هذه الطفلة من مسقط رأسها إلى هذا المكان البعيد، والذي لا تزال هي وزوجها يكدحان فيه من أجل توفير حياة كريمة، أو شبيهة بالحياة الكريمة. ظلَّت تتناوب عليها أحوالٌ غريبة منذ جاءت آية إلى بيتهما الصَّغير المتواضع، الذي ينوء كلٌّ منهما تحت وطأة قرضه المستحق السداد كلَّ شهر. أحوال هي مزيج من الغبطة والكآبة؛ الارتياح والقلق؛ البهجة حين يفتحان عينيهما في الصَّباح على ابتسامة الطفلة، ثمَّ الخوف من المستقبل وأعبائه. مضت أشهر، ثمَّ سنواتٌ، وسميحة تناضل في معركة أمومتها المترنِّحة بين الخطأ والصواب، مشكِّلةً الطفلة بحسب ما تؤاتيها المقدرة، وتدفعها الغريزة، ويسيِّرها المزاج. ترقّ معها حتَّى تشفّ بالحنان، وتقسو حتَّى تشارف الغِلْظة، ثمَّ تعود لتلوم نفسها على الجهل، محاولةً أن تصل إلى حالٍ من الاعتدال في التنشئة، في وَسَط ستكثر فيه التَّحدّيات أمام فتاة مثل آية.

أحيانًا، تأتيهم سهام زائرةً، وهي تحمل هدية صغيرة لآية. لا تدري سهام لمَ تبدو لها آيةُ طفلةً قليلة الكلام، ميَّالة إلى الانطواء، تبتسم بحذر وتتحرَّك بقَدَر، وكأنَّها تخشى أن تزعج أحدًا أو تكسر آنية. تأخذها سهام إلى حِجْرها، وتداعبها بالقبلات والدغدغات إلى أن تسمع ضحكتها المختبئة في مكان ما في روحها، ثمَّ تطلقها للَّعب واكتشاف ما تحويه الهدية. وحين تخلو بسميحة وتسألها عن أحوال آية، تجدها موزَّعة الفؤاد بين رضاها بالشوط الذي قطعته في علاقتها بآية كأمٍّ لطفلة وحيدة ومتبنَّاة، وبين قلقها من توتُّر مزاجها وعصبيَّتها مع الطفلة وقلَّة صبرها. تقول ذلك وهي تغالب دموعًا تكاد تفرّ من عينيها، ثمَّ تتنهَّد كأنَّها تزيح ندمًا يفترش قلبها ويتمدَّد. تستدرك لاحقًا بأنَّ هشامًا يسدّ بحنانه وشغفه بآية ما ترتكبه هي من ثغرات ربَّما لا تقصدها. وتكمل بأنَّها لم تكن تظنّ أنَّ الأمومة بهذه الصعوبة، وتندهش كيف يربّي إخوتها وأخواتها ذلك العدد الكبير من الأطفال.

تدنو منها سهام محاوِلة أن تخفِّف عنها هذه المشاعر المؤلمة، مؤكِّدة لها أنَّها مجرَّد مرحلة، وسوف تمرّ، وأنَّها لا تزال في طور التَّدريب والتَّعلُّم لفنّ الأمومة الصعب. ثمَّ تردف بأنَّها والأصحاب مشتاقون إلى روحها

المَرِحة ومشاغباتها وضحكاتها الطليقة، وأنَّ ما هي فيه من «ثقل دم» لا يليق بسميحة التي يعرفونها. وهكذا، كان يتقلَّب مزاج سميحة بين صعود وهبوط منذ أن جاءت بآية واحتضنتها وأصبحت لها أمًّا. كانت تعيش مخاضًا نفسيًا لم تعرف أسبابه، وظلَّت تعانيه بصمت طوال السَّنوات الأولى من طفولتها. ولكن، ما إن بدأت مرحلة المدرسة ودخول الطفلة سنتها السَّادسة، حتَّى أخذت الأزمة بالانفراج، وباتت سميحة أكثر استرخاءً وتأقلمًا مع أمومتها، بل أخذت تشتاق إلى آية وتفتقدها في ساعات النَّهار، إلى أن تعود من مدرستها، لتملأ عليها المكان. كأنَّما الحبّ بينهما لا يأتي إلَّا بالعِشرة والتَّعوُّد.

لم تكن مدرسة آية تبعد كثيرًا عن البيت. كانت من تلك المدارس الحكوميَّة التي تندس مبانيها المتواضعة بين الأحياء الشبيهة لها بالتواضع، في منطقة لا تخلو بين بيت وآخر من مهاجرين، عرب أو أكراد أو هنود. وكما كانت نسبة المهاجرين المقيمين تتفاوت في الحي، كانت النِّسبة ذاتها تتفاوت في المدرسة، بل تظهر معلنة عن نفسها في ألوان البشرة والملامح والأسماء. الأطفال يتعلَّمون اللُّكنة الإنكليزيَّة الصافية في المدرسة، لكن ذلك لا يشفع لهم أحيانًا، ولا يحميهم من تنفُّر أقرانهم، والتوجُّه إليهم بإيماءات عنصريَّة تضعهم في خانة غير مريحة، وتجعلهم يُطلقون التساؤلات باكرًا عن اضطرابات الهويَّة واللَّون والعِرق، في وَسَط يحرِّض على ذلك، ويبذر بذور اختلافات غير سويَّة.

لم تكن آية في معزل عن هذا المناخ المشوَّش لطفولتها الباكرة. كانت تسمع أبويها يتحدَّثان بلهجتين مختلفتين، وبلغة غير لغة المدرسة والشارع. وإن تكلَّما بضع جمل بالإنكليزيَّة أتت لكنتهما مشوَّشة ومختلفة عمَّا تسمعه من المعلِّمين والأقران. وهي، إن ذهبت إلى مصر في الإجازات مع أمِّها، وجدت وضعًا لغويًا آخر يُربكها، وتلميحاتٍ غير مريحة بشأن لسانها المختلط. في المدرسة يلمِّحون إلى لونها الأسمر وشعرها الأجعد، وفي مصر يلمِّحون إلى إنكليزيَّتها المكتسَبة ولسانها المعوَجّ! وهي شبه تائهة بين عالمين لا تدري إلى أيِّهما تنتمي، وعلى أيّ شجرة تحطّ. تنظر مليًا إلى بشرتها السَّمراء وعينيها الضيِّقتين، ثمَّ إلى بشرة أبيها البيضاء المشرَّبة بالحُمرة وأنفه الأقنى، ثمَّ إلى بشرة أمِّها بلونها الحنطيّ وعينيها الواسعتين، وتطلق الأسئلة في رأسها باحثةً عن جسور تربط هذه الملامح جميعًا، فتعجز وتتخبَّط في أوهام طفولتها، ثمَّ تنطوي على قلبها الوحيد وتدير ظهرها للعالم.

تدنو آية من مراهقتها مشحونةً بالتساؤلات وبوادر تململ، والمسافات بينها وبين أمِّها تضيق وتتحوَّل إلى توتُّر يومي يقود إلى ملاسنات وأجواء مكهرَبة، بسبب طراز الملابس والخروج المتأخِّر، والعلاقات التي تُنذر بالخشية والتَّوجُس. وهشام يقف بينهما كأنَّه أخذ على حين غِرَّة، وهو يرى آية وقد تفجَّر جسدها بأنوثة مبكِّرة، محاولًا أن ينزع فتيل الصِّدامات اليوميَّة، ملطِّفًا الجوَّ بحنانه الأبويّ، وبقدراته المحدودة على التعامل مع فتاة مراهقة، تُنذر ملامحها الحادَّة بتمرُّد وشيك.

ما عادت آيةُ تلك الطفلةَ المستسلمة لمزاج أمِّها المتقلِّب، ولكلمات الزجر والنهي والتَّحكم فيما تلبس وتأكل، وتأخذ وتَدَع. في روحها تتجمَّع نُذُر عاصفة تبحث عن مَخرج، وفي جسدها تضجّ دماء وأشواق غامضة، وفي قلبها تتكوَّر العواطف الجامحة كجنين حان موعد خروجه إلى الحياة. أصبح لآية أصدقاء وعلاقات، وذوقٌ في الملابس وقَصَّة الشَّعر، وباتت لها لَكنةٌ تخصُّها وموسيقى تهواها، وانتماءٌ إلى جيل تشبهه في تمرُّده وقلقه وعلاقته المرتبكة بوَسَطِه. وأبواها، كما هما، يقطعان يومهما بالعمل والأمل، وبالتوجُّس من عجزهما إزاء تقلُّباتها، وخروجها عن حدود ما يعرفان من أصول البيئة والمجتمع اللذين ينتميان إليهما. يبدوان في حالة من الارتباك والحيرة كلَّما فكَّرا في أمرها وكونها غافلة أو هكذا تبدو عن وضعها كطفلة متبنَّاة، لا تربطهما بها صلة دم أو رَحِم. حيرة لا تزال تؤرِّقهما وتمضّ قلبيهما كلَّما حاولا التَّفكير في الأسلوب الأمثل للتَّحدث معها في هذا الأمر، الذي يصعب إخفاؤه إلى الأبد. يفكِّران، ثمَّ يُحجمان في كلِّ مرَّة تَلوح لهما هذه المسألة، كأنَّهما إزاء صندوق أسود لا يعرفان كيف يعالجان قُفله، تاركَين الأمرَ للظروف وللأيَّام تأخذ مجراها كيفما تشاء.

حين حلّت ذكرى ميلاد أروى الثلاثون، كانت تبدو فارغة القلب، ممتنّةً للنسيان إلى حين. كأنّها تعيش هدنة مع النّفس ومع التفكّر في مجريات حياتها، وفي منعطف «ثلاثينها» الذي يبدو لها وللنّساء الشبيهات بها مفترقَ طُرُق ومفترقَ وجع وانتظار. تتأسّى كلّما انطوت على قلبها الفارغ من البهجة بالانكفاء على العمل حدّ الإرهاق، وبالسيجارة تنفخ دخانها في وجه الكدر، وبالعناية بطفلَي أخيها تستضيفهما معظم أيّام الأسبوع ليملأ فجوات رأسها. أحبّت الصّغيرين وتعلّق فؤادها بهما منذ لاحظت بوادر الخلاف، ثمّ الانفصال، بين أبويهما. الزّوجة تصرّ على الطلاق، والأخ يماطل ويسوّف على الرّغم من عزوفه عن العلاقة. ربّما رأفةً بالصّغيرين اللّذين توزّعت إقامتهما بين أمّه وأخته. وجودهما في حياة أروى يحرّض أمومتها الهاجعة، ويُهيّئها لدور لطالما تمنّته وحلمت به. تُمضي أيّامها في تلبية حوائجهما، وتوصيلهما إلى المدرسة، وتفقُّد أمور النّظافة والمأكل والنوم، كأنّها استمرأت الدّور وتلبّسته.

تحلّ هذه اللّيلة ذكرى ميلادها. سيأتي الأصحاب كالعادة بصخبهم وهداياهم اللّطيفة لإنعاش روحها. لا بأس في بعض المرح والحيويّة يجذّدان وجوم المكان، ويجعلان الثلاثين تمرّ بأقلّ قدر من البؤس. نهضت تتفقّد أحوال الشّقّة الصّغيرة، متطلّعةً إلى أن تكون أكثر بهجة وترحيبًا بالزائرين. ستغسل مَفرش الطاولة، وتجلو المرآة التي تتصدّر البهو. ستجلب بعض الزهور الطازجة تُحيي بها الزهريّة الفارغة، وتُخرج طقم الملاعق والشوك، وتعيد ترتيب المقاعد القليلة التي إذا لم تكفِ الحاضرين فيمكنهم الجلوس على قطع الوسائد كما يفعلون في مثل هذه المناسبات. أعدّت قائمة صغيرة بما يتحتّم عليها جلبه من مقبلات ومقرمشات. أمّا سائر احتياجات حفل الميلاد، فيمكن لأخيها بشير أن يأتيها بها بعد توصيل الصّغيرين إلى أمّهما في زيارة «الويك إند». وجوده ضروريّ في هذا اليوم، ليُعينها على ترتيب المكان وغسل الصحون بعد انصراف الضيوف، وليملأ لها المكان بطمأنينة تحتاج إليها بشدّة في نهاية المساء، حين يخلو المكان بعد صخب، ويصبح موحشًا كأنقاض غادرها ساكنوها. تعرف هذا الشّعور الكئيب جيّدًا. تعرفه حين تعود من سفر لتراه رابضًا في الزوايا متربّصًا بها، وتشمّه حين يغادرها الزائرون مرشوشًا في الجوّ كأنفاس مبيد حشريّ.

يدخل الضيوف متعاقبين، يحملون الهدايا والتّمنّيات بعمر مديد

وحياة هانئة. وهي، في غمرة ترحيبها بهم، تبدو كفراشة خرجت للتوّ من شرنقتها، تجرّب الطيران بجناحين رطبين يضربان الهواء ويلمعان تحت الضوء. كانت، وهي ترتدي تنُورة طويلة من الشّيفون المشجّر، تبدو أصغر سنًا بوجهها الطفوليّ، وقوامها اللّطيف، وابتساماتها المكركرة التي لا تدري من أين تخرج لتغسل كلّ شيء. لا تعرف كيف تتكوّن هذه الكركرات في حنجرتها، ثمّ تنطلق مُزيحةً الأقذاءَ إلى بقعة أكثر عمقًا في روحها، ثمّ تنقذف نحو الخارج ككرة بينغ بونغ. يرتخي وجهها حينها وتعود إلى طفولتها ومَرَحها القديم وخُلوّها من الشوائب، لتتصالح مع ذلك كلّه إلى حين. تأتي نجوى وسميحة وهشام ويوسف ولبنى ووليام ومنال، وتصل سهام بصحبة فايزة التي نادرًا ما تُرى في مثل هذه المناسبات. ولكن، يبدو أنّ إلحاح سهام عليها بضرورة الخروج من نَمَط حياتها الرتيبة قد بدأ يأتي بنتيجة. فبدت فايزة كأنّ بريقًا من الحيويّة بدأ يغزو روحها في تلك الأمسية. ظهر ذلك في رتوش المكياج التي وضعتها، وفي كعبها العالي، وجاكيت الحرير اللّامع الذي أظهر استقامة كتفيها واستدارة خصرها. كانت تبدو منسجمة مع روح الاحتفاليّة على الرّغم من تحفُّظها المعهود وميلها إلى قلّة الكلام، واختيارها زاويةً مجاورة للباب، كأنّها على أهبّة الاستعداد للخروج والعودة إلى مسكنها ما إن تبدأ تباشير انتهاء الحفل.

ما إن أوشك عدد الضيوف على الاكتمال حتّى وصل بشير. أعلن عن وصوله برنّ الجرس، ثمّ إعطاءِ إشارة من بعيد إلى حاجته إلى من يُعينه على حمل الأكياس والحاجيّات إلى الداخل. وجدت فايزة، وهي الجالسة قرب الباب، أنّ الأمر يستوجب التّحرّك بشكل تلقائي لتقديم يد العون لبشير، الذي بدا موزِّع الجهود بين ما يحمل بيديه، وما تركه داخل المصعد الذي يوشك على الإغلاق. ألقى عليها تحيّة مقتضَبة وهي تتلقّى ما يحمل بابتسامة مرحِّبة. وضعت الأكياس في الداخل، ثمّ عادت لترى ما يمكن فعله بالحاجيّات المتبقية داخل المصعد. وكان بشير قد سبقها إلى داخل المصعد، ثمّ ضغط على أزرار فتح الباب ريثما تأتي. دخلت فايزة معه وانحنت تأخذ بيديها ما تيسّر من عُلَب الأطعمة، إلّا أنّ باب المصعد لم يمهلهما وانغلق بعد أن تمّ استدعاؤه من طابق آخر.

وجدت فايزة نفسها وجهًا لوجه مع بشير، الذي لم يسبق لها أن رأته غير مرّة وحيدة، وبشكل خاطف. وها هو الآن محصور معها في هذه المساحة الضيّقة، ينسكب على وجهه ضوءٌ خافت يجعل ملامحه السّمراء أكثرَ غموضًا وجاذبيّة. رمشت عيناها المثقّلتان بالكُحل باضطراب، وتمنّت

ألَّا يصله عطرها الذي ظنَّت أنَّها بالغت في رشِّه لهذه المناسبة من دون داعٍ. أمَّا كعبها العالي الذي بدأ يؤلم كاحليها الآن فقد جعلها تصل إلى مستوى كتفيه، على نحو يجعل النظراتِ المتبادلةَ أكثرَ تصويبًا وارتباكًا. فُتح باب المصعد عند الطابق الرَّابع حيث تمَّ استدعاؤه. وحين رأى المستدعي امتلاءه بشخصين وحاجيَّات أخرى، اعتذر وأعطى لهما إشارة الانطلاق. عاد المصعد يرتجّ بهما وبما تحت أقدامهما من أغراض نحو الطابق السَّابع، وبدت مسافة الوصول إليه مشحونة بالتوتُّر، وبامتزاج عطرين، وأنفاس راكبين، وبالتماعة غير واضحة المعالم في ذهن فايزة، لا تدري إن كانت التماعة إثارة، أو خوف، أو توجُّس.

وصل المصعد إلى مقصده، فتعاونا على تجميع شتات حاجيَّات تنوَّعت بين أكياس وعُلَب ولفائف. في غمرة التَّجميع، مسَّت أصابعه ظاهرَ كفِّها، وكادت ذراعه تلفح كتفها وهما في صدد الخروج. دخلا أخيرًا إلى الضيوف والصخب، وذابا في نثارات التحايا وكلمات التَّرحيب. عادت فايزة إلى كرسيِّها وهي لا تزال في دوَّامة ارتباكها، تتساءل إنْ كان ملمس أصابعه أو لفحة ذراعه أمرًا حدث بالفعل، أم أنَّه من بنات أوهامها، يتراءى لها تحت وطأة احتباسها وإيَّاه في مساحة ضيِّقة تحت ضوء واهن. لامتْ نفسها على تبرُّجها وارتدائها ما لا يتماشى مع شخصيَّتها الرَّصينة التي تنأى بها بعيدًا عن الابتذال. لقد اعتادت أن تستقبل يومها بوجه خالٍ من المساحيق، وشَعر مقصوص لا يحتاج إلى مجهود في التَّصفيف، وملابسَ عمليَّةٍ لا تُعيق حركتها في التنقُّل والعمل. لطالما شعرت بأنَّ جِيَل النِّساء، في التبرُّج وإظهار المفاتن والغنج في الحركة والكلام والضحك، هي من قبيل استجداء مشاعر الرجال أكثر من كونها إحساسًا بأنوثة فيَّاضة. لا تحبّ أسلوب سميحة في التزيُّن وطريقة المزاح ومظ ضحكتها لتبدو أكثر إغراءً. ليتها تتأسَّى بسهام في احتشامها وأناقتها الرَّصينة، وأحمرِ شفتيها الذي ما إن تضعه عليهما حتَّى تسارع بمسحه والاكتفاء بأثره، لأنَّ ذلك أفضل في تأكيد ملامح وجهها المكتفية بذاتها، هكذا تقول. وها هي تضع نفسها في موقف سمج، وتتمنَّى لو تركت المكان بمن فيه ونجت بنفسها.

تحلَّق الحاضرون أخيرًا حول كيكة عيد الميلاد وأطفأوا الشموع مع المحتفى بها. ودارت الصحون وتوزَّعت المأكولات، وفايزة في زاويتها البعيدة تنكش في قطعة الكيكة الموضوعة في صحنها من دون أن تأكل منها. توزِّع نظراتها بلا مبالاة على الحضور، ثمَّ تخصّ بشيرًا بلمحات سريعة كلَّما قام، أو جلس، أو حمل بعض الصحون الفارغة إلى المطبخ.

تنظر إلى ظهره أو ساقيه أو رأسه من الخلف، أو تحدّق في ساعته، من دون أن تستطيع التّركيز في شيء ذي معنًى. وحين بدأ يوجّه حديثه إلى الجميع، ويشرح موقفًا طريفًا حدث له في العمل وكأنّه يلقي خطبة، أمكن لها أن تُطيل النّظر إلى هيئته، وأن تتبيّن أنّه يشبه أروى في دقّة ملامحه وسُمرته، ما عدا الذقن الذي بدا رجوليًا عريضًا، والشاربَ الأسود المختلط بالرّمادي، والذي يومئ بأنّه على مشارف الأربعين.

لم يُعِزها بشير اهتمامًا بقيةَ الأمسية، ولولا شكرُه لها للمساعده في المصعد، لظنّت أنّها مجرّد شبح، لا وجود لها في المكان. شعرت بغصّة مباغتة، وغاصت في أعماقها بعيدًا عن الصّخب الذي تحوّل الآن إلى همهمات طريّة، بعد الانتهاء من الطعام والإقبال على المشروبات الساخنة، التي تدعو إلى الاسترخاء والإصغاء المتأنّي. كان ركنها يغوص في عتمة لطيفة بعد أن أسدلت السّتائر مع قدوم المساء، وأشعلت الأضواء الجانبيّة الخافتة. أسندت ذراعها على الكوميدينة اللّصيقة بها، وراحت ترتشف ما تبقّى من شايها انتظارًا لانصراف وشيك. أطالت النّظر إلى ما تناثر على سطح الكوميدينة من أشياء تدلّ على ذوق صاحبة المكان ومتعلّقاتها اللّصيقة: حلقة مفاتيح؛ جهاز هاتف أرضيّ؛ إطار يضمّ صورة لطفلين؛ سلّة صغيرة تحوي نباتات عطريّة مجفّفة، ومفكّرة أرقام هاتف على صفحة الأسماء البادئة بحرف الباء. لا شكّ في أنّ المكالمة الأخيرة كانت لطلب أخيها بشير، وها هو اسمه يتصدّر القائمة. لم تدرِ فايزة كيف انبثق للتوّ هاجس غريب في رأسها وحثّها على أن تسجّل الرّقم الماثل أمامها، أو تحفظه. لم يُسعفها ذهنها المتوتّر على الحفظ، فأخرجت قلمها وسجّلت الرّقم على منديل ورقيّ بخطّ مرتجف، وهي تشعر كأنّ صالة الجلوس تحوّلت، بكلّ مَن فيها، إلى عيون نَهِمة تتابع ما تفعل. عصرت المنديل في راحتها، وأدخلته في حقيبة يدها.

عادت أخيرًا لتستلقي في فراشها كأنّها تُلقي عن كاهلها أحمال يوم ثقيل ومربك. تعرف أنّ الاحتفالات والمناسبات تُتعبها أكثر ممّا تُفتِعها، وأنّها تستيقظ في اليوم التالي متضعضعة وواهنة. لكنّ سهرة البارحة والتقاءها بشيرًا فتحا في ذاكرتها كِوًى غافية ضبّبتها الأيّام. كم يا تُرى مضى من سنوات منذ اقتربت من رجل بهذه المسافة وبهذه الهالة الجاذبة؟ استيقظت في وعيها صُوَرُ خطوبتها الهشّة من معلّم اللّغة العربيّة في ليبيا، حين تقدّم إليها مواطنها الفلسطيني خاطبًا. فرحت أمُّها للنّصيب واستقبله إخوتها بحفاوة. ظلّ يزورهم بين وقت وآخر ويجالس أمّها أكثر

ممّا يجالسها هي، لأنّها تكون في الخارج حين يأتي بلا موعد مسبق. تدخل فتجده يأكل إلى طاولة طعامهم، أو يثرثر عمّا يبثّه التلفزيون من أخبار مع أخيها، أو يقصّ طرائف عمّا يحدث له في الفصل الدّراسي. كانت تشعر بأنّها آخر اهتماماته، أو إضافة جانبيّة إلى حياته.

لم يَطُل به الوقت ليفاجئهم بأنّه حصل على عقد عمل في السعودية للعام الدّراسيّ القادم، وأنّه سيذهب باكرًا لترتيب أمور السّكن والمعيشة. سافر وتقطّعت بينهما الأسباب بالتّدريج. ظلّ يتّصل في بداية إقامته هناك، ثمّ شحّت الاتّصالات، وتغيّرت العناوين والأرقام. وأخيرًا، انتهت الخطبة بسبب مستجدّات لن تتناسب وظروفَ أيٍّ منهما. تذكّرت الخطيب الذي ربّما تزوّج الآن بأخرى، وتذكّرت حسرة أمّها على النّصيب الذي لم يتمّ. تغيّرت بعدها الأمور وانتقلت وأسرتها إلى لندن، ودارت بها الأيّام ماسحةً ما تبقّى من ملامح لم تثبت في ذاكرتها، ولم تحفر أخدودًا واحدًا يستحقّ التّحديق فيه.

والآن، يفاجئها هذا الفَوَران الذي يخصّ شيئًا ما في جسدها المتخشّب، وروحِها التي عركها الزهق وتشابهُ الأيّام. تستعيد حضور بشير ومجاورته لها في المصعد، وكلمته الوحيدة الشاكرة، وطاقةَ الجذب التي انداحت حولها كهالة من نار ونور. أخرجت المنديل الورقيّ المكرمش، وحدّقت في الأرقام السبعة التي كتبتها على عَجَل. أمسكت مفكّرة هاتفها ونقشت الأرقام بإتقان. ثمّ استلقت وهي تستعيد أحداث يومها المختلِف.

From: manal_mosayyan@hotmail.com

To: sihamnahhas@yahoo.com

العزيزة دائمًا، سهام....

أرسلت إليك تباعًا أجزاء لاحقةً من الرواية، آملةً أن تكوني قد فرغتِ من قراءتها الآن، وأن تكوني على استعداد لتزويدي بملاحظاتك وتعليقاتك.

كان في التّسجيلات التي أرسلتِها عونٌ كبيرٌ لي في إعادة هيكلة الصُّوَر التي هربت منّي أو شحبت مع مرور السّنوات. أرجو أن تحتفظي بهذه التّسجيلات الرّائعة لتكون نسخة صوتيّة مساندة لسيرة حياة مفعَمة بالتنوُّع.

كما ترين، فإنّ المخطوطة التّجريبيّة التي أرسلتها إليكِ تراوحت بين الوقائع الحياتيّة والخيال الرّوائيّ، فأرجو أن تكون نسبة الخيال، التي لا تتجاوز الرّبع، مُرضيَةً في التّمويه على الشّخصيّات الحقيقيّة، لئلّا نقع في محظور الاعتداء على خصوصيّات الأعزّاء الذين لا يزالون جزءًا منّا، على الرّغم من بُعد العهد ببعضهم، أو بُعد المزار بآخرين تقطّعت بيننا وبينهم السُّبُل.

ختامًا، كوني بخير وسلام

منال مسيان

الكويت، 27

تشرين الأول/نوفمبر

2017م

From: sihamnahhas@yahoo.com

To: manal_mosayyan@hotmail.com

صديقتي الغالية منال

تلقَّفتُ بريدكِ الإلكترونيّ الأخير بمزيج من الغبطة والدَّهشة. الغبطة لأنَّكِ أحييتِ في نفسي مُرُوجًا خضراء كنتُ قد عَبَرتُها على عَجَل، أو هكذا خُيِّل إليّ! أليست هذه صفة الزَّمن الذي يتسرَّب بين أصابعنا كالماء، كما يقول أحد الشعراء إذا لم تخنِّي الذاكرة. أمَّا الدهشة، فهي من قدرتك على هذه الصياغة القريبة من القلب، والتَّصرُّف في اللُّغة، ثمَّ وقوفك عند المنعطفات بحسّ إنسانيّ لا يخلو من الحَذب والفهم.

تنوِّهين إلى نسبة الخيال في الرِّواية، وأنا أقول إنَّ «الخلطة» كانت مُوَفَّقة وموارِبة، حتَّى إنَّني ما عُدت أميِّز أيًا منهما. العمل المُحكَم، يا عزيزتي، هو الذي يجعلك تصدِّقينه وتعيشينه، إلى درجة تنتفي لديك القدرة على فرز ما هو حقيقيّ ممَّا هو خياليّ. وأنتِ وصلتِ إلى هذه المعادلة الذهبيَّة.

أصدقاؤنا غيَّبَتهم دروبُ الحياة، وشطّ بمعظمهم المزارُ، ولكنْ تظلّ الأيَّام تأتي بأخبارهم بين حين وآخر. وصلتني بطاقة معايدة بالكريسماس من وليام العام الماضي. يقول إنَّ إيما تزوَّجت وانتقلت إلى مانشستر مع زوجها، وإنَّه بخير ومتأقلم مع وحدته بعد التقاعد، ومشغول حاليًا بتأليف كتاب عن العلاقات العربيَّة البريطانيَّة. لا تزال أروى في مصر، متصالحة مع «الروماتويد» الذي يعاود مَفاصلها، وولدا أخيها يطلَّان عليها بين حين وآخر في إجازاتهما، وبشير لا يزال عازبًا بعد طلاقه على الرَّغم من بلوغه السَّبعين. أليس من المدهش أن تظلّ الحياة دائرة على الرَّغم من كلّ شيء. نسيت أن أقول إنَّ يوسف مستقرّ الآن في دبي مع البنات بعد وفاة زوجته مؤخَّرًا، كما تعلمين.

حبَّذا لو ترسلين إليّ ما تكتبين تباعًا، فقد بدأتُ أتعلَّق بالأحداث وأنتظرها كأنَّني لستُ إحدى شخصيَّاتها، وأوشك أن أقول لنفسي، كلَّما قرأت ورقة: ماذا سيحدث بعد ذلك؟ كانت القراءة، ولا تزال، بالنِّسبة إليّ شأنًا مهمًا في حياتي، ومع أوراقك أصبحَتْ شغفًا.

أشكر الله أنَّك في حياتي، فتلك أجمل نِعَمِه.

سهام نحّاس

لندن، 15 كانون الأول/ديسمبر 2017م

تحلّ عطلة عيد الفصح الرّسميّة بعد يومين، أو «الإيستر» كما يسمُّونه هنا. لم تكن العطلة تعني شيئًا لسهام هذه المرّة، فهي قد تركت عملها في البنك منذ شهرين، ولا تزال في طور التأمُّل في أحوالها النّفسيّة والمعيشيّة، منتظرة أن يهديها التّفكير المتأنّي إلى قرار مناسب فيما يتعلّق بالوظيفة. تُمضي وقتها في التريُّض والقراءة، والفُرجة على نوافذ العرض في المحالّ التجاريّة التي امتلأت بالبَيض الملوّن والأعشاش وأفراخ الطيور والكتاكيت المتقَنة الصنع.

يحتفلون ب«الإيستر»، أو قيامة المسيح وبعثه. ويضجّ الجوّ بأنفاس الرّبيع غير عابئ بها وببقايا الأكدار المتلكئة في حناياها، ولا برأسها الممتلئ بأسئلة لم تزل تئزّ كدبابير دائخة. دورة الحياة تنبثق مرّة أخرى في كلّ مظاهر الكون، في سيرة السيّد المسيح، وفي عيد النوروز، وفي شمّ النّسيم، وفي تلك الأغصان المتهدّلة فوق رأسها، وقد أطلّت براعمها الحمراء بنَزَق كأجنّة موعودة بالحياة والشمس، تنفخ بروائح جديدة. عادت الخضرة إلى الجذوع العارية باحتفاليّة صاخبة، لكأنّ النّسغ يكاد يتفجّر بالعصير، ورقّ النّسيم وتلوّن بالضوء والظلّ.

ذكّرت نفسها بضرورة شراء بعض الهدايا الصّغيرة لأختيها في إربد، ولابنة خالها وأطفالها الذين ستزورهم في الزرقاء، فسفرها إلى البلد خلال هذه العطلة لم يتبقَّ عليه إلّا يوم أو بعضُ يوم. حمدت الله على أنّها سترافق لبنى في الرحلة ذاتها، فلعلّ أنس الصحبة يخفّف من تعب ملامحها، ويسرّع في استعادة لياقتها النّفسيّة. دلفت إلى المتجر الفائض بمعروضات العيد، وانتقت علبًا صغيرة من الشوكولاتة المصنّعة على شكل بيضات بنقوش لطيفة. أتبعته بانتقاء مَفارش مطرّزة بالكتاكيت وأغصان شجيرات تطرح ثمارًا حُمرًا كالكرز. طلبت تغليفًا مبهجًا وأنيقًا للهدايا، ثمّ خرجت تكمل جولتها في الحيّ الفائض بالحركة، إلى أن بدأت طاقتها تنفد، فقفلت راجعة، مذكّرة نفسها بضرورة ترك رسالة صوتيّة للبنى على «الأنسرينغ مشين»، تذكّرها فيها بالمكان الذي ستنتظرها فيه في مطار هيثرو حين تفرغ من وَزن الأمتعة.

كانت الحقيبة المغلَقة على أمتعة بسيطة وبعض الهدايا تستلقي باسترخاء عند المدخل، حين آوت سهام إلى فراشها وهي تستغرب ذلك النّعاس اللّطيف الذي أخذ يسري في أعضائها، هي التي لطالما خاتلها الأرَق

طوال الفترة السّابقة وغلبها على أمرها. موعد الرّحلة مناسب، وسيتيح لها نومًا مريحًا ومتّسعًا من الوقت في الصّباح للملمة نثارات الأشياء، ووضعها في حقيبة اليد قبل أن تتوجّه إلى المطار. عاجلها النوم كأنّها لم تنم منذ سنة، فأطلقت ذلك الشّخير الهادئ الخفيض، واضمحلت في أحلامها، كأنّها تقطف سحابات بعيدة.

لا تدري كم غيمة راودتها عن نفسها حين شعرت بعصا جدّها «أبي تيسير» تربّت بلطف على قدمها التي تطلّ من اللّحاف، وصوته يدعوها إلى النّهوض لمساعدته في سقي البستان. فتحت عينيها المثقلتين بالنعاس، ورأت أنّ الوقت لا يزال فجرًا، أو هو السّحَر الذي يندغم فيه الخيطان الأسود والأبيض في العتمة، فتصبح زرقاء عميقة، وأنّ النجوم لا تزال متناثرة تومض بوهن. نهضت، وباغتتها رائحة شجيرات الورد الجوريّ وأشجار النارنج تعبق في الفجر. لحقت جدّها إلى البستان وسمعت صوت خرير الماء يشخب بين سيقان الزرع. داست على الطين الرّطب ومدّت يدها إلى النارنجة المتدلّية. مسحت عنها قطرات الندى وشمّتها بعمق، تاركةً خيالَ العصير السكريّ يعبر بلعومها، ويمرّ عبر وريدٍ ما إلى قلبها، ويتقطّر هناك قطرةً قطرةً. تبعت جدّها وهو ينسلّ بين الشجيرات مستأنسًا بالعتمة وصوت خرير الماء. ركضت وراءه بقدمين أثقلهما الطين، ودارت حول سور البستان الحجريّ تلحقه حتّى اختفى، فتوقّفت والنارنجة لا تزال في يدها. نادت عليه مرّتين، ثمّ أصاخت إلى الصمت. بدأت الزرقة في السّماء تتفتّق إلى لون الفانيليا. رفعت رأسها نحو كوّة فوق السّطح مغبّشة بنور الفجر. كانت هناك حمامة زاجلة تهدل بصوت رخيم: «يا كريييييييم، يا كرييييييييييم». أطرقت برهة، ثمّ شعرت بجدها يظهر فجأة، ويمسك كفّها ليضع فيها حفنة من الحبوب، ويشير إلى ناحية الحمامة لتُطعمها. ثمّ غسل قدميها من آثار الطين، ودثّرها بفروته الصوفيّة واختفى.

تململت سهام في فراشها وهي تتنشّق ما تبقّى من عَبَق الفروة الصوفيّة، وتستعيد طفولتها الشّهيّة في بيت جدّها لأمّها، حين تحلّ عطلة الصيف فيذهب الصّغار مع أمّهم من إربد إلى الزرقاء. استرخت في فراشها الدّافئ ونظرت إلى السّاعة التي لا تزال تتيح لها وقتًا للاسترسال وراء ما أحياه حلم اللّيلة من صُوَر حميمة وغالية.

بيت الجدّ، بحجراته الثماني التي تحيط بالحوش؛ الشرفة الواسعة الممتدّة التي كانت تكفي لأن ينام فيها كلّ أترابها من أطفال الأخوال

والخالات مستمتعين بنسيم اللَّيل وعدّ النجوم وحكايا لا تنتهي؛ البستان الذي يحيط بالبيت من جهتيه، عابقًا بأشجار الحمضيات ودوالي العنب وشجيرات الورد الجوريّ بألوانه الفاقعة؛ استيقاظهم في طفولتهم على رائحة الخبز الذي يُخبَز على الصاج، ثمّ يُغمَس بالحليب السَّاخن والعسل؛ وجهُ جدَّتها «حسنة» بثوبها التَّقليديّ المطرَّز وعصابة رأسها المعقودة بإتقان على الجانب الأيمن، وهي تحادث النّسوة الكادحات اللَّواتي يَعرِضن بضائعهن من سِلال المشمش والتين والخوخ والخيار منذ الفجر. تشتري منهنّ، وهي تجلس على المصطبة تستمع باهتمام إلى همومهنّ، ثمّ تعزم عليهن لتناول الإفطار قبل المغادرة، لأنّهنّ لم يذقنَ شيئًا منذ خروجهنّ الباكر.

تقول جدَّتها، حين تسألها عنهنّ، إنّهنّ يجلبن الفواكه من البساتين المحاذية لنهر الزرقاء. يشتغلن مع أزواجهن كمرابعين، فيزرعنَ ويقطفنَ ويَبِعنَ، بينما ينطلق الأزواج إلى الرعي وتربية الماشية، وتتشارك النسوة معًا في تحضير منتوجات الألبان من حليب وزبدة ولبنة. تذكّرت خزائن جدَّتها الخشبيَّة المقفَلة على مؤونة الشتاء بالمفتاح، التين والزبيب والقمح والعدس والأرُز والسُكَّر واللَّبنة المكوَّرة بالزيت، ومكدوس الباذنجان ومربَّى المشمش وشراب النارنج. تحسّ بالطعوم القديمة تستيقظ في فمها، حتَّى تكاد تقضم وتمضغ وتشم النكهات، وتتحفَّز لمذاق «الشيش بَرَك» الذي لطالما عشقته مُعَدًا من يد الجدَّة.

تتطاير كلّ أطياف الذكريات الممزوجة بالنعاس حين يرنّ هاتفها. على الطرف الآخر لبنى تطمئنّ على استيقاظها وتتفاوض معها بشأن توصيلة المطار. تلتقي الصديقتان في أحد مقاهي المطار، ثمّ على مقعدين متجاورين في الطائرة، ومعًا تصلان إلى مطار عمّان، بعد اتِّفاق مبدئي على لقاءات قادمة في أثناء إجازتهما. ستكون إجازة سهام قصيرة، أمّا لبنى فسوف تكون إجازتها مفتوحة بالقَدر الذي يتيحه لها وقت التَّفكير في أحوالها الزَّوجيَّة المضطربة. لم تزل تعاني الاكتئاب والرَّغبةَ في البعد عن البيت وعن وليام، وإيجاد مساحة من العزلة لها وحدها: غرفة منعزلة، وسرير منعزل، يتيحان لها أن تبكي وتدخّن وتمرض كما تشاء. وجودها في الزرقاء في بيت أهلها شبه المهجور سيتيح لها هذه العزلة المتمنَّاة. وسوف تظلّ صحبة سهام الموجودة في إربد خيارًا مقبولًا في مثل هذه الأحوال، إذ يمكن لهما أن تستأنسا إحداهما بالأخرى، وتُخسنا استغلال الإجازة في التَّفريج عن الهموم متى رغبتا في ذلك.

إذا كانت إربد هي مسقط رأس سهام، فإنَّ الزرقاء كانت، ولا تزال، مآل عائلة أمّها وأخوالها وجدّيها لأمّها، على الرَّغم من امتداد جذورهم في السلط في المقام الأوَّل. ارتبطت الزرقاء بطفولة سهام وصباها الباكر، وتفتّحَ وعيها وحسّها المتوقّد على مشاهد بيت الجدّ والجدّة والبستان المفعَم بالظلّ والثمر، وعلى أترابها من أبناء الأخوال والخالات الذين ترعرعت معهم، ومع حكايات طفولتهم ومشاويرهم وسهراتهم ومغامراتهم البريئة. حلمها البارحة بجدّها والنارنجة وسقي البستان في الفجر، كان أقرب إلى الواقع من قربه إلى الأحلام. واقع يتمدّد في ذاكرتها ويلتحف بالسّنوات الطوال. فقد بَعُد العهد بمرابع طفولتها الغاربة. ومات جدّها «أبو تيسير» وجدّتها حَسنة وتفرَّق الأبناء. ما تعرفه الآن هو أنَّ إحدى بنات خالها وأفراد أسرتها هم من يقيم بذلك البيت؛ بيتِ جدّها العتيق الغافي على زمنه البعيد. كانت إحدى خالاتها تردّد دائمًا أنَّ حوائط البيوت تكون متشرّبة بأرواح ساكنيها، وتظلّ ناضحة بالطّيبة والحبّ ودالَّةً على أهلها. لذلك، كانت تعترض على من يحاول أن يطلي الحوائط بطلاء جديد، فذلك لا يجوز، في رأيها، لأنّه سيمحو آثار الساكنين وروائحهم.

بعد خمسة أيّام من المجيء إلى البلد، بادرت سهام إلى قطع عزلة لبنى بمكالمتها الصباحيّة المفاجئة. كانت ترغب بشدّة في المجيء إلى الزرقاء من إربد كما خطّطت مسبقًا. لم تُرِد أن تكون مجرّد زيارة خاطفة، وإنّما رغبت في رحلة متأنّية تصطحب فيها لبنى لتبديد وحشة روحها من جهة، ولإعادة اكتشاف المدينة التي سكنت طفولتها وصباها الباكر من جهة أخرى.

انطلقت بهما السيّارة على أطراف المدينة الغافية صباحًا. كان الجوّ ربيعيًا معتدلًا سمح للنّسمات الطليقة بأن تتغلغل عبر النوافذ المفتوحة مبدّدة صمتهما المتقطّع. بدت في الأفق بعض الأغنام المتناثرة تقضم الأعشاب أو تتهادى نحو النهر، الذي بدأت تتّضح ضفّته وانعكاس الشمس على مياهه المتهادية بلطف. قطعت لبنى الصمت بقولها إنّها لم تنم البارحة، وإنَّ ذلك امتداد للأرَق الذي ما زال يلازمها على الرَّغم من تغيير المكان. حدست سهام أن لبنى تمهّد لبعض البَوح عمّا يؤرّقها، فتركت لها العنان وواصلت الإصغاء. أكملت لبنى بأنّها تحدّثت مع زوجها وليام عن موضوع الانفصال، وقالت إنّه كان متفهّمًا رغبتَها، ولكنّه لا يزال يعاني قَلَق اتّخاذ القرار. قرارات أخرى لا تزال تنتظر البتّ أيضًا: ما يخصّ بيت الزوجيّة المشترك، وما يخصّ ابنتهما إيما، ثمّ الأمر الأكثر إلحاحًا الآن

التّفكير في الاستقرار في عمّان وشراء شقّة تخصّها. هذا القرار يحتاج إلى قلب شجاع، بعد سنوات من العيش في لندن، والزواج ببريطاني، وإنجاب ابنة ستظلّ جذورها وانتماؤها ممتدّةً إلى هناك.

أطلقت لبنى مخاوفها كلّها دفعة واحدة، كأنّها ترمي أحمالها في نهر الزرقاء الذي يتهادى أمام أعينهما لامباليًا. وعادت الكآبة ترينُ على ملامحها، بينما راحت تُشعل سيجارتها الثالثة وتنفخ في الهواء. لاحت على بُعد أمتار تعريشةُ عنب وشجرة تين عتيقة تكاد جذوعها الثقيلة تلامس الأرض. جلس في ظلّها شابّان يشربان الشاي ويثرثران. نهضت سهام تستطلع المكان، تلاحق بنظرها خروفًا أبيض افترق عن قطيعه وتهادى منفردًا، ثمّ ترفع بصرها نحو السّماء العارية تحدّق في زرقتها، وتستعيد تفاصيل الحلم الذي رأته ليلة السفر. كم كان واضحًا وصريحًا وذا ملمس ورائحة وطعم. كم تشتاق إلى بيت جدّها؛ إلى سريره المنخفض الذي ينصبه تحت شجرة التين في العراء وينام. أمّا إذا نام في الداخل، فيحرص على أن يضع فراشه بين بابين، واحد يُطلّ على الحوش الدّاخلي، والثاني يُطلّ على البستان. كان يخاف الظلام والوَحدة منذ توفّي أخوه على صدره، فبات نومه متقطّعًا، لا يكاد يغفو حتّى يستيقظ. وفي ساعات الفجر الأولى، يكون متيقّظًا تمامًا، يحوم في العتمة وينسلّ متّكئًا على عصاه لسقي البستان قبل أن ينبلج النور.

عادت إلى لبنى الملتحفة بالصمت وقد رانت عليها السكينة. سألتها إذا كانت ترغب في الانطلاق قبل أن تتوسّط الشمس السّماء. في الطريق إلى البيت القديم، مرّت سيّارتهما بما تبقّى من سكّة قطار الزرقاء. كان مشروع سكّة قطار الشام الحجاز منذ سنوات خلت يمرّ بمدينة الزرقاء منطلقًا نحو إربد، فالشام، ثمّ توقّف المشروع وتحوّل إلى أطلال. عاصرت سهام في طفولتها صفّارات القطارات وهرجَ المسافرين، حين كانت تأتي مع أترابها للفرجة ورؤية ما يُدهش ويسلّي. قالت للبنى إنّها حين كانت طفلة، ظنّت أنّها لو تبعت سكّة القطار ومشت قُدُمًا فإنّها ستصل إلى إربد، ثمّ الشام. وهذا ما حدث حين ظلّت تمشي وتمشي حتّى تاهت وأدركتها عتمة المغيب، إلى أن وجدت نفسها أمام بيت أحد أخوالها، الذي أدرك ورطتها وأعادها إلى بيت جدها مرهَقةً وخائفة. تساءلت سهام بصوت بدا واضحًا في جوّ السيّارة الحميم، عمّا إذا كانت الأحداث التي تمرّ بالإنسان مثل حكاية تتبّعها سكّةَ القطار ثمّ ضياعها تحمل أيّ إشارات إلى خريطة حياته المقبلة، وعمّا إذا كان يجب الإنصات إلى تلك الإشارات ومحاولة

تفسيرها وفهمها، أو تجنُّبها إذا أمكن. كان يبدو سؤالًا وجوديًا ملغزًا، لم تحاول الصديقتان المناورة بشأنه، فظلَّ معلَّقًا في الهواء.

مالت الشَّمس نحو العصر، وجلست الصديقتان في مطعم ريفي أمام تشكيلة من المقبّلات الطازجة وكأسين من عصير النارنج، الذي اشتهته سهام بشدَّة منذ حلم ليلة السفر. أخذ الهواء يرقّ ويمتلئ بروائح البرّيَة، وانطلق عزفٌ رائق على العود من اللّامكان، كأنّه يأتي من حلم غامض أو زمن سحيق تَشكَّلَ على مهل. عزفُ عود سمعت سهام مثيله ذات أمسية ليست كالأمسيات. كان المطر قد كفّ عن الهطول وترك الأرض رطبة ودافئة، وهي تمشي في هدأة المساء منطلقة لتوديع قريبتها في ليلتها الأخيرة في إربد، والأخيرةِ في العام. تقف بُرهةً لتستمع إلى العزف المنبعث من نافذة مضيئة في عطفة الحي، وتتأمَّل كيف يُصنَع ذلك المزيج من اللَّحن وبقايا المطر وهدأة الطريق، وكيف تفاجئها فكرة أنَّها ذاهبة في رحلة طويلة لا عودة بعدها إلى إربد. كيف جاء سفرها في آخر ليلة في العام؟ كأنَّ هناك خريطة كونيَّة تدبر المصائر والأحداث بمشيئة تدهش العقول المتسائلة. سوف يأتي عام مقبل تنتظره، ومكانٌ آخر ينتظرها، لتبدأ منه رحلة حياة مغايرة. هكذا، تتشكَّل السَّوانح، وهي جالسة أمام طاولة تطلّ على الطريق، وشمس العصر تتخلَّل كأس العصير فتزيدها صفاءً، سانحةً في إثر أخرى، لتعيدها إلى بداية طريق بدأ من الكويت بعد تلك اللَّيلة الماطرة. ثمَّ كيف أخذها الطريق، بعد بضع سنوات من العمل الممزوج بمُتَع الصداقة والاكتشاف، إلى لندن، التي تقف في هذه المرحلة على جسورها المتقاطعة، لا تدري إلى أين ستعبر؟ وكيف؟

حان وقت الانطلاق بعد استراحة الغداء، إلى الهدف الأهمّ في هذه الرّحلة، وهو زيارة بيت الجدّ. لم يَطُل بهما الطريق حين انعطفت السيَّارة نحو مداخل المنطقة الموزَّعة بين بساتين مسوَّرة لا يبدو منها غيرُ رؤوس أشجار، وبيوت مبنيَّة من الحجر بشبابيك خشبيَّة عالية وبوابات مغلَقة على أسرارها. بدا الحيّ ساكنًا كأنَّه ينام على ماضيه، ولا يزال. احتاجت سهام إلى عدَّة محاولات من الصواب والخطأ للتَّعرُّف إلى الطريق المؤدّي إلى بيت الجدّ، فقد تغيَّرت المعالم، وبدت لها الأشياء مختلفة، والبيوتُ أصغرَ حجمًا، والمكانُ أكثرَ شحوبًا أمام أشعَّة الغسق الآخذة بالتلاشي.

وأخيرًا تقف بهما السيَّارة، وتترجَّل الصديقتان. تبحث سهام عن الباب الذي بدا لها كأنَّه غيَّر مكانه أو تقهقر عن عتبته نحو الداخل. تَتبَعُ السور الحجريّ الذي يعلو ويهبط، ثمَّ ترفع نظرها إلى هيكل البيت الذي

اسودَّت أحجاره، وبدا أصغر حجمًا كأنَّه انكمش على حين غِرَّة. استدارت نحو الفناء حيث كان يقع البستان، وهالها ألا ترى غير هياكل أشجار يابسة يميل بعضها على بعض، تتعلَّق في أغصانها بقايا هشيم ينتظر أن تذروه الريح. في الزاوية لفائفُ لنباتات متسلِّقة تلتصق بالجدار، كأنَّها الآن حبال مهترئة توشك أن تتقطَّع. أمَّا أحواض الورد، فقد اختلطت معالمها، وتحوَّلت إلى تربة حائلة مكسوَّة بطبقات من الفُطر الأسود.

شمَّت رائحة عفن وتحلُّل تنبعث من شقوق الأرض، ومرَّ طائر فوق رأسها وحلَّق بجناحين مديدين حجبا شفق الشمس لوهلة خاطفة، ثمَّ أطلق صيحة بعيدة وغاب في الأفق. مشهد يمثِّل النِّهايات في أبسط صُوَرها، وأكثرها تعقيدًا، وأدعاها إلى الشجن والتأمُّل، ثمَّ الركون إلى التَّسليم الفارغ من الحيلة. جلست سهام على أقرب حجر، فشعرت ببرودته تسري إلى ظهرها، فكتفيها، فرأسها، ثمَّ تنقّط قطرة قطرة في عصَبٍ ما في مكمن ذاكرتها، فتصيبه بالشلل. هل هذه الخرابة هي بستانُ جدِّها «أبي تيسير»؟ تجمَّعت الدُّموع في حنجرتها، وكادت تنهمر جارفة صُوَرًا ومشاهدَ وحياةً، كانت تُسمَّى حياةً حقًّا وصِدقًا.

تنهض منال من نوم مضطرب في عطلة نهاية الأسبوع. أحلامها كانت مشوّشة وشاحبة الألوان، سرعان ما تبدّدت كنديف الثلج وذابت ما إن سحبت نفسها من الفراش بتثاقل. استعادت أحداث يوم أمس، وإيقاع صوت ياسر الممزوج بالشّجن، وهو يسرد لها بعضًا من صُوَر حياته ومواقفه ممّا يحدث في وطنه. وها هي الآن، وهي تستعيد ما سمعت، تستحضر وجه صفاء بقوّة، وتمدّ جسورًا من أحوال متشابهة بين الاثنين، وتراهما معًا يكمّلان مشهدًا واحدًا اختلفت فيه التفاصيل وتوحّد المعنى. ودّت لو سألت ياسرًا إن كان يعرف مواطنته صفاء تويجان، أو مرّ بحيّها في بغداد، في طفولته أو صباه. لم تكن متأكّدة إن كان وجه صفاء أو وجه ياسر قد مرّ بأحلام ليلة البارحة، وما إذا كان الرّبط الملحّ بينهما هو أحد آثار الحلم الذي تبدّد في الهواء.

لا تستطيع أن تنكر ذلك الميل الذي يجذبها إلى ياسر. ما إن تجاوره حتّى تشعر بأنّه يدخل بلطف في ذلك الفراغ الذي يحيط بها كهالة أبديّة. يزيح الفجوة الفاغرة ويدسّ في حيّزها شيئًا من روحه أو هالته، أو ما يطلقه جرمه اللّطيف من ذبذبات لامرئيّة. في كلِّ مرّة تلتقيه يزيد رصيدها من المعرفة القلبيّة في بعدها الأعمق؛ المعرفة التي تتكوّن على مهل وترتّب أبجديّاتها الإنسانيّة حجرًا حجرًا. لا تتأسّس المحبّة بغير هذا البناء المتأنّي، المتماس مع الأسئلة الأولى عن الذّات والآخر وما تتيحه الجسور بينهما من مقدّمات العبور واشتراطاته، التي تأتي معرفةُ الذّات ومعرفة الآخر أولى عتباتها الأهمّ. وإن كانت معرفة الذّات أمرًا ميسّرًا لمن امتلك البصيرة والحكمة، فإنّ معرفة الآخر تحتاج إلى غير قليلٍ من الكدح، والمداومة على القراءة في كتابه، الذي يستلزم أن يكون متاحًا ومستقبلًا للعابر إليه والداخل في متنه.

هكذا تدرك منال يقينًا أنّ معرفة الآخر هي مفتاح الحبّ وقنديله الأبهى الذي يبدّد عتمة الطريق؛ طريقها الذي امتلأ بالضباب والعتمات. كيف لبدهية مثل هذه أن تستغلق على النّفوس والعقول وتجعل الدّرب أكثر مشقّة؟ كلّ محطّاتها في الحبّ كانت مغبّشة النوافذ. لم يكن أحد يراها في كينونتها الأبعد؛ في روحها المتعطّشة إلى الفهم والملامسة، المنتظرة أن تُقشّر بتؤدة كما تُقشّر البرتقالة وتُفصَل فصوصها فصًّا فصًّا. هل كانت بِسَفتِها الرزين وهدوئها، وبساطة مظهرها، عصيّةً على الفهم؟

تسترجع من أحداث حياتها الأخيرة تلك الوقفة، حين أطال معها عبد الله الحديث في تلك الأمسية، بعد انتهاء جلسة المؤتمر السّنويّ للطلبة، ثمّ دعاها إلى فنجان قهوة في مقهًى قريب، وتتساءل عمّا كان يدور في خُلده آنذاك؟ ظنّته حديثًا وديًّا بين زميلين، ثمّ لم تستبعد أنّه محاولة تعارف. هي فتاة راشدة، ولا بأس في المعرفة التي قد تقود إلى علاقة جميلة تؤسّس لحياة أجمل. كان شابًا مهذّبًا، يتكلّم بثقة ويُبدي احترامًا ولياقة ذهنيّة لا يُنكَران. بعد الخروج من المقهى، اقترح عليها المشي تحت ظلال أمسية ربيعيّة هادئة، ما دام مسكنها قريبًا. وصلت بعد أن زاد اطمئنانها إلى دماثته ولطفه، وودّعها بأجمل تحيّة وتمنّيات بأن تصبح على خير.

في اليوم التّالي للمؤتمر، رأت كتفيه من بعيد، وهو مُقبل إلى مجموعة من زملائه وقد بدا منغمسًا في حديث طويل. اقتربت حتّى باتت في دائرة نظره، ثمّ نادته بالاسم متوقّعةً أن يرحّب بها ويقدّمها إلى حلقة الزملاء، كما هو معتاد في مثل هذه المواقف. ولكن، لدهشتها الكبيرة، ما إن لمحها حتّى أولاها ظهره، وقد تغيّرت ملامحه، متظاهرًا بعدم وجود معرفة أو صلة بها، ملمّحًا إلى أن تحذو حذوَه في التّجاهل وعدم المعرفة. وكانت الرّسالة واضحة جدًا: هو يريد صحبة في الخفاء. وهي لا تعني له شيئًا سوى كونها طيفًا عابرًا، يوفّر الصحبة المسلّية وَملْءَ الفراغ بعيدًا عن العيون والفضول.

عبد الله نموذج، وله نماذج مشابهة للشّخصيّة المتناقضة التي تُظهر كلّ إشارات الاهتمام والرعاية، وتطلق العنان للآمال بأن تتبرعم. ثمّ يكتشف صاحبها أنّه عاجز عن فهم مشاعره وتصرّفاته، وعاجزٌ أيضًا عن الوصول إلى درجة من التوازن بين العاطفة التي تتلبّسه، وعيشِ هذه الحالة على أرض الواقع، باقتناع وتحضّر. فينكمش ويتراجع، ثمّ يتقهقر كقائد هُزم في معركة غير متكافئة. وأخيرًا يعود إلى الوطن طالبًا من أمّه أن تختار له بنت الحلال وتخطبها، بحسب ذوقها.

في ذهن منال لطالما دارت رحى الأسئلة عن تفشّي الجهل في معرفة الذّات ومعرفة الآخر، وفي فهم الإيقاع الدّاخليّ للنّفس البشريّة وهي تتلمّس طريقها في العتمة، بحثًا عن بصيص من الضوء يدلُها على مظلّة آمنة، تُنيخ عندها رحال القلب. في بيئتها هناك، وفي وسطها الاجتماعيّ هنا، لا أحدَ يعرف أحدًا، اللّهمّ إلّا التّجاذب الجسديّ المراوغ، الذي سرعان ما يسيح تحت شمس الواقع الحارقة. وما ذلك الفراغ الذي

تستشعره عن يمينها وعن يسارها، وفي ذاتها الجوانيّة، سوى توق إلى أن تُعرَف وأن تُكتشَف، وأيضًا أن تَعرِف وأن تَكتشِف، وأن تصل إلى هذه المعادلة الذهبيّة من العرفانيّة المستنيرة، التي، وإن كانت نادرة في واقع فقير ومشوّش، فإنّها ليست بمستحيلة.

لم تكن تدرك في تلك الأيّام الرخيّة أنّها بدأت تأنس بياسر أو أنّها بدأت تتلمّس طريقها إليه. كلّ ما تعرفه أنّه يتيح نفسه لها، يتحدّث عن ذاته باسترسال وطلاقة من دون وَجَل. يشخص في البعيد، ويطلق لهواجسه وأفكاره العنان. يترك نفسه على سجيّتها كأنّه سائر في حلم مطمئن. يبتسم أو يعبس أو يصمت من دون أن يقنّن امتدادًا للابتسامة أو مدًى للصمت، وإنّما تأتي الحالات كما تأتي من دون قلق أو حذر. وعدا عن أنّه يتيح نفسه لها، فهو أيضًا يصغي إليها ويتقن الإصغاء، بل إنّ الإصغاء لديه يتحوّل إلى لون من التأمُّل؛ تأمّل فيما وراء الصّوت، وفي امتداد النَّفَس وهو يصوغ الكلمة، وفي ظلال المعنى. قال لها إنّه يقرأ كثيرًا في علم اللُّغة، وكيف تعبّر اللُّغة المنطوقة عن دواخل الإنسان ولاوعيه، ثمّ كيف تشي الألفاظ بما وراءها من أصول المعنى وجواهره؛ بل إنّ الصوت، في ارتفاعه وانخفاضه وتموُّجاته، يحمل الكثير من البصمات الشَّخصيّة والسّمات النّفسيّة للمتحدّث. وإنّ لا كلمة منطوقة إلّا ولها دالّة على وضع أو حالٍ أو معنًى. أعجبتها تعريفاته لأخصّ خصائص الإنسان، وهو النطق. وبدأت تدرك أنّ كلماتها المتناثرة وأحاديثها القليلة، بل حتّى صمتها، باتت كلُّها ذات مغزى في سياق رابطة قلبيّة وعقليّة تتأسّس على مهل.

في الوسط الجامعيّ في عمومه، وفي الأسرة الطلّابيّة في «إمبيريال كوليدج»، على وجه الخصوص، هناك لون من المعرفة الأوّليّة بالأحوال الشّخصيّة. كأن يدرك أحدهم، ممّا يدور حوله، مَن هو المتزوّج، ومن هو الأعزب، ومَن هو «بين بين». وقد استطاعت منال أن تلتقط معلومة عابرة عن كون ياسر قد سبق له الزواج. لم يكن ذلك ليعني لها شيئًا ذا بال، وهي التي لا يخطر في بالها حتّى تلك المرحلة أيّ معنى من معاني التّملُّك فيما يخصّ العلاقة. في رأيها أنّ الإنسان نَفْسٌ حرّة، وتظلّ حرّة تحت أيّ مظلّة من مظلّات العلاقة الإنسانيّة، وأنّ الحبّ ليس امتلاكًا، بقدر ما هو اندياح أوسع نحو حرّيّة أكبر، يكون فيها الإنسان هو ذاته، وليس تابعًا أو مستعبَدًا تحت أيّ ذريعة كانت. لم يكن يعنيها وضع ياسر الاجتماعي، ولم تفكّر في أن تسأله قطّ، إلى أن جرت حادثة طارئة حرّضته على التّحدُّث في الموضوع.

كان يومًا مشمسًا ودافئًا، حين لمحته وهي خارجة من بوابة الكلّيّة نحو الباحة الأماميّة، يمسك بكفّه كفّ طفلة في نحو العاشرة من عمرها، وكان يهبط بقامته ليحاذي قامتها الصّغيرة كأنّه يواصل حديثًا خاصًا لم ينتهِ. ابتسمت لهما منال عن بُعد، ثمّ أطلقت تلك الإشارة بعينيها ويدها، الدّالّة على الدّهشة والتساؤل. بادرها، وهو يضع كلتا يديه على كتفي الطفلة باحتواء حنون، قائلًا: «جنى، ابنتي». صمث، وعدّل ياقة الطفلة واطمأن إلى إزرار سترتها الورديّة، ثمّ أكمل قائلًا إنّها في زيارة إلى لندن مع أمّها، وقد وعدها بأن يُمضي اليوم معها. ولكنّه الآن لا بدّ من أن يمرّ على مشرّفه العلمي في القسم، بحسب الجدول الأسبوعي. لن تطول الجلسة أكثر من نصف ساعة. وهو مضطرّ إلى اصطحاب جنى معه الآن، أو تركها في قاعة الاستراحة القريبة ريثما ينتهي. دلق كلّ ما عنده أمام منال التي كانت تستمع باهتمام، وتقلّب نظرها بين ياسر وابنته. لم تكن تحتاج إلى وقت طويل لتدرك أنّ للحديث بقيةً، وأنّ ما سمعته ليس إلّا مقدّمة ستليها توضيحات لاحقة.

بحدسها، ثمّ بمعرفتها باللّياقات، عرضت على ياسر أن يترك جنى معها ريثما ينتهي من جلسة عمله، معلّلةً بأنّ الجوّ الجميل يدعوهما معًا إلى الترئّض في متنزّه الحيّ القريب. وفوق ذلك، هناك الكثير من المراجيح والألعاب التي ستحبّها جنى وتتسلّى بها في هذه الفسحة القصيرة. وهكذا، تمّ التّعارف الأوّل بين منال وابنة ياسر في مصادفة لم تكن في الحسبان. كانت منال، طوال انشغال جنى باللّعب، تحدّق في ملامحها الصافية البريئة، محاوِلةً أن تجد بصمات جينيّة تربطها بأبيها. لم ترِثْ لون العينين الزيتيتين، ولكن ورثت شكل الحاجبين والجبين الواسع، وورثت ويا للغرابة تلك الشامةَ الصّغيرة إلى جانب الأنف. لم يكن هناك مجال لإجراء أيّ أحاديث شخصيّة لا تحبّذها منال مع طفلة في هذا العمر، ولكنّها استطاعت، بما دار من نثار الكلمات القليلة، أن تعرف أنّ الطفلة قادمة في إجازة من أمستردام، حيث مدرستها، وحيث تقيم مع أمّها وجدّها لأمّها.

لم يَطُل الوقت بمنال لتدير التساؤلات في رأسها عن ظهور ابنة لياسر، أو عن وضعه الاجتماعيّ بعد ثبوت زواجه السّابق؛ إذ لم يمضِ يومان إلّا وكانت تجالسه في ذلك المقهى الحميم الهادئ الذي يتيح متّسعًا من الألفة والرّاحة. للمقاهي أرواح وشخصيّات مثل البشر تمامًا. هناك مقهى يصلح للصّخب والموسيقى والحركة الموّارة والزّحام. وهناك مقهى

يرخب بالأصدقاء ويمتلئ بالضوء والضحك. وهناك مقهى ينكفئ على العتمة والعزلة ويرحّب بمحبّي الوحدة والتأمّل. كان في المقهى الذي جلسا فيه قاسم مشترك من هذا كلّه؛ ففيه موسيقى تتسرّب هادئة كأنّها آتية من لامكان، وفيه ذلك الشّعاع النهاري الذي يخترق الزّجاج وينسكب على ذراع ياسر، ثمّ يمتدّ ليضيء خصلات من شعر منال، إلى أن ينكسر على الأرضيّة الخشبيّة تحت أقدامهما. وأخيرًا، فيه تلك الهدأة المحبّبة، التي تُشعر بطمأنينة وانسجام مع محيط مهادن.

حين حضرت القهوة الساخنة كان ياسر قد بدأ حديثه عن جنى؛ وعن استقرارها مع أمّها وجدّيها في هولندا. هو مطمئن كما يقول إلى وجودها مع عمّه في أجواء من الاستقرار والسّلام بعد هجرتهم من العراق. ولكنّه يخشى ألّا تعرف جنى جذورها في مقتبل عمرها، وأنّه لا يزال مترددًا في شأن نشأة الطفلة في المنفى، وما يجرّه ذلك من اضطراب في الهوية والانتماء.

كانت مسارات الحديث تقود إلى تشعّبات أخرى تستلزمها مقامات الجلسة، التي كانت ترهص بالمناورة عن المزيد من الإضاءات. قال إنّه تزوّج باكرًا بابنة عمّه بعد التّخرّج من الثانويّة مباشرة. كانا مجرّد طفلين تجري في عروقهما دماء ساخنة، وتدفعهما مرحلة التوهّج العاطفي العاصف إلى هذا اللّون من الزواج، الذي لا تصحّ الحياة الاجتماعيّة وتستقيم إلّا به. هكذا ظنّ الطفلان العاشقان، وهكذا سلّم بهذا الظنّ الأهلُ وشجّعوه. عاشا تحت رعاية أسرتيهما بضع سنوات إلى حين التّخرّج من الجامعة. وبعده، كانا إزاء طفلة أتت إلى الحياة، وإزاء شخصين ناضجين لا يمتّان بصلة إلى طفلَي الأمس.

أطلق ياسر علامة تعجّبه من خضوع الإنسان لمتغيّراته العمريّة أمام منال، كأنّه يحلّل، بدراية العالِم، كيف يُعاد تشكيل الإنسان ونحته وتحسينه عبر مراحل العمر، وأنّه عبر هذه المراحل يظلّ في حالة دائمة من التّعديل والتّشكيل في رحلته نحو الاكتمال، أو ما يظنّه اكتمالًا. يقول إنّهما كانا مجرّد طفلين يظنّان أنهما يعرفان ما يريدانه، ثمّ بعد سنوات وجدا أنّهما انسلخا عن تلك الكينونة الساذجة، وأنّهما خَلْقٌ آخر، لكلّ منهما سماته وخصوصيّته. هي تحوّلت إلى امرأة منطلقة، تفيض بالحيويّة والضحك، مفرطة النّشاط تحبّ الرّياضة وكرة السّلة والغناء، وتجد نفسها في الصّخب والتّجمّعات. وهو تحوّل إلى رجل منطوٍ على الرصانة، يبحث في القوانين الفيزيائيّة، ويدمن القراءة والقهوة، ويميل إلى العزلة والتأمّل.

وهكذا، باعدت بينهما السّمات، حتّى ما عادا يلتقيان سوى في حبّ ابنتهما جنى.

تزامنت هذه المتغيّرات النّفسيّة والشّخصيّة لكليهما مع قلق جامح عانته أسرة الزّوجة بعد تعرّض شقيقها للملاحقة والاستجواب من قِبَل السّلطات. وبات حتميًا، والوضع كذلك، أن تجد الأسرة مَخرجًا لأزمتها بمغادرة العراق في ظلّ إرهاصات خاصّة وعامّة لا تبشّر بخير. وهكذا كانت الظروف تحضّر لمصير زيجة لم تعد صالحة للاستمرار، وبات حتميًا أن يتمّ الانفصال المؤجّل كذلك، ليغادر أفراد أسرة العمّ جميعُهم إلى هولندا، بعد الاتّفاق على أن تظلّ جنى تحت رعاية أمّها وجدّيها.

لم يطل الوقت بعدها بياسر حتى قرّر أن يغادر إلى لندن، بعد ترتيب أمر الدّراسة العليا في «إمبيريال كوليدج» في فرع الفيزياء. لم يكن بأقلّ من ابن عمّه في تحسّس الأوضاع غير المطمئنة في البلد، ولم يكن بأقلّ منه تململًا ورفضًا لما يحدث من انتهاكات إنسانيّة، ووضع سياسيّ مأزوم، وطلائع حرب عبثيّة قادمة. يتذكّر الجهود المستحيلة التي بذلها أبوه ليسهّل له أمر الرّحيل إلى لندن تحت مسمّى طالب علم. باع ما يملك من أرض زراعيّة في «أبو الخصيب»، بعد أن لم تعد تصلح لشيء في إثر تجفيف الأهوار، وتحويل الرّوافد النهريّة لمصلحة الحرب. وساعد في استقراره الدّراسيّ إلى حين، ثمّ ترك له أمور حياته الأخرى يدبّرها بمعرفته وجهوده، تاركًا الظروف والمتغيّرات تأخذ مساراتها في ترميم هذه الحياة وسدّ ثغراتها.

كانت منال تصغي بكلّيتها إلى ياسر وهو يستعيد مراحل حياته، كأنّه يَجري في مضمار ويقفز فوق الحواجز، ولا يزال يَجري، ولا تزال الحواجز تتراءى، والطريق مغبّشة بالضباب. انحسر الضوء عن الجالسَين وتركهما في عتمة شفيفة. بردت قهوتهما، ولاذا بالصمت الذي تركاه يأخذ حيّزه كما يشاء. لم تعد هناك حاجة إلى الكلام، وبقيت حاجة في نفسيهما إلى التأمّل، واكتفاء أحدهما بقرب الآخر، وما يشغه من سلام يتسرّب على مهل.

أوشكت جلسة ملتقى النادي الثقافي على الانتهاء. كان الحضور جيّدًا والنقاش مشجّعًا. جلس الحاضرون فيما يشبه الحلقة المستديرة، التي تناثرت فيها المقاعد وطاولات القهوة الصغيرة، وتموّجت فيها الأصوات بين تعليق أو تعقيب أو نقد موارب. كانت مجموعة نجوى القصصيّة «لا طيور في السماء» هي مدار النقاش. حضرت سهام ومنال وفايزة، وكأنّ وجودهنّ في المكان يشكل عنصر أمان ودعم لنجوى في يومها الأهمّ.

أجاد الدكتور عبد المنعم إدارة الجلسة كالعادة، وحاول أن يظلّ محايدًا ودبلوماسيًا فيما يخصّ رأيه في إصدار نجوى الجديد، بينما جلست نجوى في حالة بين التوتّر والاستثارة، تنظر إلى كفّي عبد المنعم وهو يحمل كتابها، أو وهو يشير بهما ويحرّكهما في الهواء تأكيدًا أو إيماءً لأقواله وكلماته المتناثرة. لم تستطع طوال وقت الجلسة أن تُبعد ناظريها عنه، متابعة ما يقول، أو شغفًا بحضوره وقربه، أو انتظارًا لبارقة من المديح أو التّقريظ ترفع بها معنوياتها المتأرجحة. كانت بادية الانشراح قبيل الجلسة، ثمّ تحوّل انشراحها إلى قلق ممزوج بالتوتّر. وما إن أوشكت الجلسة النقاشيّة على الانتهاء، حتّى تحوّلت ملامحها إلى وجوم بيّنٍ تداريه بابتسامات مرتبكة. تفرّق الحضور بعد انتهاء الجلسة، وكان عبد المنعم أوّل المغادرين متعذّرًا بارتباطه بموعد، الأمر الذي حوّل الوجوم في ملامح نجوى إلى كآبة خالصة.

تعلّقت نجوى بذراع سهام وهي تهمّ بالخروج. وبدا من حديث الصديقتين، وهما تقفان على الرّصيف في انتظار الحافلة، رغبةُ نجوى في مصاحبة سهام إلى بيتها لتمضية ما تبقّى من أمسية لم تأت على قدر توقّعات نجوى وأمانيها. دخلت سهام مطبخها لإعداد شراب ساخن يليق بأمسية باردة ومزاج متناقض لم يكن ليخفى عليها، وهي العارفة بدواخل نجوى وما تعانيه من فوضى وجدانيّة لم تستقرّ قطّ على حال. أخذت كوبَي الشاي وقطعتين من كيك الشوكولاتة ودخلت بهدوء، كأنّها تخشى أن تزعج «الطيور» التي تركت «السّماء» واستوطنت رأس نجوى بلا بهجة، كما يقول عنوان مجموعتها القصصيّة. كانت نجوى قد كوّمت أمامها بضعة مناديل ورقيّة مبلّلة بالدّموع والمخاط. وبدت، وهي تجلس بعينين محمرّتين وأنف متوهّج، كومةً من البؤس. لم تعرف سهام كيف تبدأ مهمّتها في تخفيف هذا البؤس الذي تعرف أسبابه ومصادره، ولا في تلطيفه، وهو

الذي لطالما كان موضوع حوارات سابقة ونصائح لم تأتِ بفائدة. انطلق صوتها في صمت المكان كأنَّه يحاول أن يزيح ستارًا من العتمة المتلكّئة، بادئة باستنكارها لحالة نجوى في يومها الأهمّ، ووجوب أن تسعد بإنجازها الذي حرَّك ركود النادي الثقافي. ثمَّ أردفت بأنَّ مجموعتها جيِّدة، وتلامس الكثير من هموم الإنسان الراهنة، وأنَّها خلَّفت أصداءً واضحة، ظهرت جليَّة فيما دار من تعليقات وتعقيبات، هي في مصلحة الإصدار بلا شك.

استمرَّ صمت نجوى وترقرقُ دموعها، بينما كانت تنظر إلى سهام تلك النَّظرةَ التي تفهمها. لم يكن ما قالته سهام عن الإصدار غيرَ كلام جانبيّ خارج عن سياق الحالة التي تعانيها نجوى. ولم تقل ما قالته جهلًا بهذا السِّياق والحالة، وإنَّما كان من قبيل إيجاد عكَّاز صُلب يسند قلب نجوى ومعنويَّاتها المتداعية. تعلم يقينًا بأنَّ نجوى تعاني إهمال عبد المنعم وتجاهله، وأنَّ كلّ إشاراتها المفعمة بالحبّ والتوق لم تحرِّك فيه عِرقًا أو التفاتة. وآخر تلك الإشارات القصَّتان اللَّتان ضمَّنتهما المجموعةَ، وكانتا بعنوانين ومحتويين واضحين. كان أمل نجوى الأخير أن يعلِّق عبد المنعم على القصَّتين حين تمَّ اختياره لإدارة الجلسة، ففيهما الكثير من الوصف المرهف الممزوج بآراء فلسفيَّة عن التشابه والتنافر بين الهالات والأرواح، مجسّدة ذلك في الشَّخصيَّات وما يدور بينها من أحداث وصراعات. ولكن ما حدث هو أنَّه تجاهل تمامًا هذين النصَّين، كأنَّه أسقطهما من الاعتبار.

كانت المشاعر العاصفة تفتك بنجوى طوال الجلسة النقاشيَّة، موجة ترفعها وأخرى تأخذها إلى الحضيض. وحين انتهت الجلسةُ أخذت أمانيها تعوِّل على الأحاديث الجانبيَّة التي غالبًا ما تدور بعد انفضاض الجلسات الرَّسميَّة. وفي أمثلة هذه الوقفات الجانبيَّة، قد تسدّ بعض الكلمات ثغراتٍ نفسيَّةً أو قلبيَّة تتوق إلى الامتلاء. ولكن ما حدث هو أنَّ عبد المنعم هرول خارجًا، مبرِّزًا استعجاله بموعد ينتظره، كأنَّه يهرب من قضاء وشيك.

هدأت نجوى وذهبت في سوانح بعيدة وهي تستمع إلى سهام. تذكَّرت أباها الذي تركهم للعمل في الخليج منذ كانت في السَّابعة. لم تكن تراه بعدئذ إلَّا لمامًا في إجازات قصيرة، ثمَّ اختفى من حياتهم بعد زواجه هناك. استعادت مكابدات أسرتها لأوضاع تستلزم التَّحمُّل والمناورة حتَّى تمَّ الطلاق، وكيف بدا لها البيت بعدها فارغًا إلَّا من أمِّها وأختها الأصغر سنًّا. رأت أمَّها تدمن الوحدة وتنفر من الرجال، ولم تعد أنيقة كما كانت بعد أن باتت لا تلبس غير الألوان القاتمة. تُمضي نهارها في العناية بقطِّها الأليف وطائرَي الكناري، اللذين باتت تغريداتهما بهجتَها الوحيدة في عالم

لامُبالٍ. أختها ذابت في قادم السّنوات في زيجة غير متكافئة واستسلمت لقَدَرها، كأنّ حياتها انتهت في محطّة مغلقة على الأيّام. لم يكن أمام نجوى للهروب من تلك الحياة الرّتيبة غير أن تقذف بنفسها إلى المجهول، وتجرّب العيش في مكان آخر.

كانت قد تخرّجت من كلّيّة الإعلام، وامتلكت مهارة الكتابة في أيّ شأن من شؤون الصحافة، تقارير كانت، أو تحقيقات وأخبارًا ومقالات. كانت في مهاراتها المتنوّعة نتاجَ مدرسة الإعلام بحق. وأمكن لها أن تعوّل على هذه المهارات في الفوز بوظيفة في إحدى الصحف العربيّة في لندن. عانت في البداية مثل غيرها بسبب ظروف العيش والتأقلم، إلى أن قويت ثقتها بقدراتها بعد أن اتّسعت دائرة معارفها، وزاد اختلاطها برموز العمل الصحافي والإعلامي، وانطلق قلمها محاولًا أن يرسم لنفسه خطًّا فكريًا وإبداعيًا خاصًّا وسط الأقلام المنافسة. لم يكن «لا طيور في السماء» إصدارها الوحيد في هذا المجال، ولكنّه كان خطوة إلى الأمام، وفيه الكثير من الاشتغال على النّفس ومحاولة تخطّي هَنات الأعمال السّابقة.

لم يكن كلّ هذا الاندفاع نحو العمل ومحاولة الإجادة في مهمّاتها سوى أثر من آثار الخوف الدّاخلي من ضَعفها، ومن وقوفها وحيدةً في عالم مليء بالتّحديات والأخطار التي تستوجب الحذر، وخصوصًا في مجال مثل مجالها. لم تكن المغريات ومحاولات التّحرش من رئيس قسمها هي المحاذير الوحيدة، وإنّما هناك سلسلة من المتطلّبات التي لا بدّ من أن توطّن نفسها على القبول بها واكتساب مهاراتها، مثل التّدرُّب على المجاملة والنفاق، ومثل تحوير الحقائق، والانتقائيّة في إعداد الأخبار والتّقارير. وقد يصل الأمر إلى التلفيق في صناعة الخبر بما يتماشى مع سياسة الصحيفة وتوجُّهاتها. ولطالما رأت أقزامًا يتحوّلون إلى أبطال، وشرفاء تُشوَّه إنجازاتهم استجابة لمصالح مُلّاك الصحف، أو أهواءِ من يدفع إليهم ويشتري ولاءاتهم، أو خدمةً لأجندات خاصّة قد لا تفهمها محرِّرة صحافيّة بسيطة مثل نجوى.

هل كانت هذه الملابسات المقلقة كلُّها تكمن وراء تعلُّقها المَرَضي بالدكتور عبد المنعم؟ بدا أنّها كانت تدرك هذا البُعد النّفسي في ذاتها التي تتوق إلى الأمن والحماية. هي التي لا تزال تتحسّس معاناتها في افتقاد سقف الأب وظلّه منذ الطفولة، باتت تفهم مدى حاجتها إلى التّعويض بظلّ آخر يملأ فراغ الأب الذي يصفّر في روحها. فكان عبد المنعم، بحضوره المفعَم بالرّجولة ولين المعشر وفارق العمر، يشكّل الهدف المشتهى لفتاة

مثل نجوى لا تزال تتلمّس مواطئ قدمها في عالم مربك.

ويبدو أنّ محاولة إيجاد موقع راسخ في مدينة مثل لندن، لفتاة تظنّ أنّها تقدر على الكفاح، جعلت نجوى، إلى جانب عملها الإعلاميّ، لا تستنكف الهرولة لتقديم أيّ خدمات أخرى إلى مواطنيها أو غيرهم من العرب الوافدين أو السّائحين من عِليَة القوم: ترتيب جولات سياحيّة؛ مواعيد طبّيّة؛ حجوزات تذاكر؛ تأجير شقق وفنادق بالتعاون مع المكاتب العقاريّة؛ تقديم نصائح مبتسرة عن الاستثمار في المال والعقار. وقد حرصت، خلال هذه المساعي، على تقديم نفسها بصيغة لطيفة ودمثة؛ صيغة قد تؤسّس لعلاقات ومصالح متوقّعة ومفيدة. والأهمّ أن تبدو نجوى لزبائنها، من خلال هذه الجهود، في صورة الشّخصيّة التي تعرف المسالك، وتحتكّ بالطبقات المهمّة، وتُتقن فنّ تقديم الخدمات. وإنْ خذلتها هذه «الشطارة» في بعض الأحيان، نتيجة الاشتطاط واللّهاث غير المدروسين، لتجد نفسها في مواقف لا تُحسَد عليها. هكذا بدت نجوى في صورة التي تعرف «بعض الشيء عن كلّ شيء»، أو هكذا ظنّت، غير عابئة بالمطبّات والخيبات التي تربض لها في كلّ زاوية.

لتبديد أجواء الوجوم التي رانت على الجلسة، بادرت سهام بسؤال نجوى الساهمة وراء ظلال أفكارها عن أمّها وأحوالها الراهنة. أرخى السّؤال ملامح نجوى حتّى لاح ظلّ ابتسامة أو ما يشبهها، وتمخّطت للمرّة الأخيرة، ثمّ لملمت أكوام المناديل الورقيّة الرّطبة وألقتها في سلّة المهملات. قالت إنّها تحدّثت إليها يوم أمس، متطلّعة إلى دعواتها بالتّوفيق فيما يخص مناقشة إصدارها، ثمّ أردفت متهكّمة بأنّ الدّعوات الصالحات ربّما ارتطمت بالزجاج أو بالسقف ولم تخرج من الحجرة إلى الفضاء، ولهذا انتهت الأمسية بهذا الشكل.

نفضت كفّها بما يشبه الاعتذار عن كلام مهلهل بلا معنى، وأكملت بأنّ أمّها بدأت تتعافى من حياتها الباهتة، وراحت تشغل نفسها بزراعة النباتات العطريّة في بلكونتها الوسيعة، وتشعر بالانشراح وهي تتعهّد أصص الفلّ والريحان وتنبش التربة وتنقّط الماء. أرسلت إليها تقول صورة أخيرة تبدو فيها مبتسمة وهي تقف في البلكونة، وقد تركت شعرها الأسود المموّج يطير في الهواء. قالت إنّ شعر أمّها ظلّ الشيء الوحيد الدّالّ على أنوثتها بعد اختفاء أبيها. وظلّت تتعهّده وتتعهّد شعيراته الشائبة وتعتزّ بكثافته ولمعانه على الرّغم من التقدّم في السنّ، والتجاعيد الجديدة والوهن. تقول إنّ نثره في الهواء الطلق يُشعرها بالبرودة والانتعاش،

وخصوصًا حين تهاجمها الهبّات الحارّة والتّعرّق. بات الهواء الطلق، ورائحة الفُلّ، وتغريد الكناري، هي عالمها المكتفي بذاته.

لم تمرّ فترة طويلة على أمسية النادي الثقافي، حتّى بدأ الجميع يلاحظ جملة متغيّرات أخذت ترينُ على أسلوب نجوى في الحديث والكتابة، وكذلك في تعبيراتها وآرائها في مقالاتها المتناثرة. بدأ الأمر بترصيع العبارات ذات البعد الدّيني، كالبسملات والتهليل والحوقلة، تدسّها في كلامها كيفما اتّفق، وفي أيّ مقام كان. ثمّ تبعه استعراض ما حفظته من أدعية دينيّة وأقوال مأثورة، تنثرها برصانة حديث العهدِ بالتّديُّن، وحذرِ مَن يتعلّم المشي في حقل لم يأنسه بعد. لم تخفّف اختلاطها بالوسط الإعلامي وتجمُّعات زملاء المهنة، ولكن أضافت إلى ذلك نشاطًا آخر جديدًا، هو حضور الدروس الدّينيّة التي تُعقَد في الحلقات الخاصّة أو في المسجد، حيث يتحلّق المريدون حول شيخ أو داعية، يعلّمهم ما لا يعرفون من فروض ونواقض، وأحكام شرعيّة، وحدود الحجاب، وفريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر.

لم يَطُل الوقت بنجوى، وهي في هذه المخاضات النّفسيّة، حتّى خرجت على الجميع ذات يوم وهي ترتدي الحجاب. كان حجابها لا يزيد على إيشارب ناعم تلفُّه حول وجهها، ثمّ تعقده بإحكام تحت الذقن. لم يتغيّر شيء آخر في ملابسها، غير الحرص على بنطلون طويل وكُمٍّ ضافٍ، تاركة ما تبقّى من تفاصيل الموضة العصريّة كما هي، بما فيها المكياجُ اليوميّ والسيجارةُ التي بقيت رفيقة دائمة، تنفث مع دخانها ما يعلَق في مزاجها من هموم ومنغّصات.

لم يكن حجاب نجوى وما طرأ على شخصها من متغيّرات يعنيان أحدًا سواها، ولكنّها، تحت تأثير هذا التوجُّه، أخذت تعطي لنفسها فرصَ التدخُّل في تفاصيل حياة مَن حولها. لم يعجب الصديقات ما كان يصدر عنها من مواعظ غليظة، تتبرّع بها كيفما اتّفق: تحلّل وتحرّم، وتُزجي النصائح الفائضة عن الحاجة. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّها ظلّت في أعماقها معلّقة بين ضفّتين مربكتين لا تدري إلى أيّهما تنتمي: تتحرّج من مصافحة الأغراب من الرجال، لكن لا مانع من المزاح المتساهل معهم. تُصغي إلى تلاوة عبد الباسط عبد الصمد كلّما ركبها الهمّ، وفي الوقت ذاته تميل إلى الطرب وهزّ الخصر كلون مساند للترويح عن النّفس. تستنكر بعض معتقدات المسيحيّين الدّينيّة وتجاهر بذلك، ثمّ تسارع إلى دعوتهم إلى مائدة إفطارها الرّمضاني. وكأنّها تنسى في كلّ مرّة ما وطّنت عليه نفسَها

من التزامٍ تشوَّشت في ذهنها حدودُه وأبعاده. وفي غمرة هذه المتغيِّرات والارتباكات التي اجتاحت حياة نجوى، ثمَّة شيء واحد لم يتغيَّر، وهو تعلُّقها بعبد المنعم، ثمَّ أملُها في أن تمس رياحُ متغيِّراتها بعضَ الأشرعة الخاملة في قلبه.

عادت سهام إلى لندن بعد انقضاء أيّام إجازتها في الأردن، وإن لم يكن سفرها له علاقة بالإجازة، لأنّها لا تزال فارغةً من العمل، تنتظر الفرصة والمزاج المناسبين لبدء وظيفة جديدة. بعد الوصول بخمس ساعات والنوم لمدّة ساعتين مشبعتين، تجد نفسها مرّة أخرى في فراشها الأليف، تحيط بها وسائدها الكثيرة كما تحب، تسند ذراعًا إلى واحدة وتضع ساقًا على أخرى، وقد غاص رأسها بين اثنتين أخريين وثيرتين تنبعث منهما رائحة اللاقندر. ها هي مرّة أخرى تعود إلى مكانها وهدوئها وروتينها المعتاد، وإلى قهوتها الصباحيّة ونافذتها المستطيلة المضيئة وحمّامها الشّخصي ومنمنماتها الصّغيرة التي لا تكتمل الحياة إلّا بها. تفكّر كيف افتقدت كلّ هذه الأشياء في رحلتها القصيرة، وكيف تراجع ترتيب بيت العائلة في أولويّات الخصوصيّة، وتقدّمت عليه هذه الشّقّةُ الصّغيرة التي باتت تحمل ملامحها وذوقها، وتتّسع لرفيف روحها وتقلُّبات مزاجها من دون مزاحمة أو تدخّل. أنصتت إلى دبيب السكينة يغمر المكان، وإلى قطرات الماء تنقّط من الصنبور برقّة كأنّها تطمئنها إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّها تستطيع أن تعود إلى النوم، أو تسترخي كما تشاء في المكان الذي يخصّها، وأنّ اليوم لا يزال ممتدًا، والغد ما زال بعيدًا.

لا تدري من أين جاءتها هذه الطمأنينة الناعسة، بعد مخاضات نفسيّة ومزاجيّة وكدمات قلبيّة عانتها في الشهرين الأخيرين. استعادت مشاهد رحلتها الأخيرة، كأنّها تمعن للسّفر في إحداث مزيدٍ من الفوضى الوجدانيّة، التي أزاحت أعباء نفسيّة كانت تراها أشدّ وطأة من التّوهان في الطائرات والمطارات والأماكن المنفلتة في ذاكرة مراوغة. كرّت أمامها شوارع إربد؛ محالّها التجاريّة؛ المخبز؛ سوقُ الخضار؛ مدينة الزرقاء؛ النّهر؛ شابان يشربان الشاي تحت شجرة تين؛ عزفُ عود بعيد؛ بيتُ الجدّ؛ البستان الخَرِب؛ وجهُ لبنى الشاحب الذي تركته هناك. فكّرت: ماذا بقي لها من هذا كلّه؟ وما علاقتها الان بكلّ هذه الأشياء التي لا تني تراوح في النأي والقرب، وتلعب معها لعبة الحضور والغياب. أشياء تغيم حتّى تتلاشى، ثمّ تهجم لتشدّها من قعر روحها. لم تعد تدري: إلى أيّها تنتمي، وأيّها هو مسقط روحها ومنتهاها. كلّ ما تعرفه، على الرّغم من السّكينة المراوغة ومن الفراش الوثير ونعومة الوسائد، أنّها تقف الآن عند مفترق طرق. تقف في النّقطة المتوسّطة تمامًا؛ النّقطة التي تتفرّع عندها الطرقات فلا تدري أيّها تسلك. وهي ليست المرّة الأولى التي تقف فيها هذه الوقفةَ المحيِّرة.

هكذا ترى حياتها دائمًا، ولا تزال، تقاطعات لا تنتهي من الطُرُق، ووقفات حائرة قد لا يفلح معها التّخطيط ولا النوايا، التي غالبًا ما تتّخذ لنفسها مساراتٍ قَدَريَّةً أخرى.

هاجمتها وقفات مماثلة في خريطة حياتها التي لا تدري منذ متى أمكن لها القبض على خطوطها الجغرافيّة وبَوصلتها. هي لن تحتسب سنوات الطفولة والصّبا، فتلك من اختيار الأقدار التي أوجدتها في زمن ومكان وظرفٍ لا يدَ لها في تدابير أيٍّ منها. هكذا وُلدت طفلةً لنبيهة وأسعد؛ الأبوين اللّذين إنْ لم يكونا متكافئين في السّمات والطّباع، فقد استطاعا، بقَدر من التّحمُّل والتّدبير، تسييرَ حياتيهما وحياة أسرة كثيرة الأبناء. بَوصلة حياتها وُضعت في كفّها كما تعتقد منذ أن أنهت صفوفها الثانويّة، وتحتّم عليها التّفكير في الخطوة التالية. فأسرتها الكبيرة ستعطي الذكورَ أولويّةَ التّعليم الجامعي، وهي تتفهّم هذا المنحى التّقليديّ في تفضيل الذكور. وقفت أوّل وقفة لها في نقطة تقاطع الطُرق في هذه المرحلة المبكّرة. فكّرت ودبّرت واستعدّت للوثوب، فكانت الوثبة الأولى خروجَها من محدوديّة مدينتها الصّغيرة نحو فضاء آخر. تشبّثت بتلابيب أخيها رياض الذي يعمل في الكويت وصاحبته في السّفر والإقامة، إلى أن استطاعت، بمؤهّلاتها التي لا تزيد على إتْقان الكتابة بالآلة الطابعة، ثمّ التّحفُّز لتعلُّم مهارات مماثلة، أن تفوز بوظيفة في مصرف كانت بوابتها إلى تلمُّس الطريق.

عاودتها متلازمة تقاطُع الطُرق، والوقوف في تلك النُقطة المحيّرة مرّة أخرى بعد ثماني سنوات من العمل في الكويت. كان رياض قد تزوّج واستعدّ لتكوين أسرة وإيجاد عشّ قد لا يتّسع لأكثر من زوجين في مقتَبَلَي حياتيهما، في الوقت الذي لا يتيح الظّرف ولا البيئة لفتاة مثلها أن تسكن بمفردها. كانت أجراس التّحوُّل في حياة سهام قد بدأت تقرع بشدّة في رأسها، وهي تتابع خطط أخيها، متمنّية له الرّفاهَ والبنين. بدأ تحرُّكها بزيارة سياحيّة خاطفة لصديقه تدرس في لندن، ثمّ امتدّت الزيارة إلى الانتظام في فصل دراسيّ مكثّف للغة الإنكليزيّة. ولم ينتهِ الفصل الدّراسيّ إلّا وهي تجرّب حظّها في البنك العربيّ في لندن كموظّفة تحت التّمرين، تساعدها خبرتها البنكيّة المكتسَبة سلفًا.

حين تفكّر الآن في هذا التّسلسل المُحكَم، تشعر كأنّ بوصلتها كانت محمولة بأصابع غير مرئيّة، وأنّها ليست غير تلك الفراشة التي تلاحق النّوافذ التي تُفتَح أمامها، واحدة بعد الأخرى، فتنطلق هائمة تكتشف

حدائقها، متلفِّتة على أيّ زهرة تحظ. لا تُنكر أنّ العوسج كان يختلط أحيانًا بالزهر، ولكنّها كانت، كأمِّها، تحتال على النّقص بالرضى، وعلى القلّة بالتّدبير، وعلى الأسى بالابتسام والمنح اللذين يغسلان روحها كلّما امتلأت بالشوائب.

والآن، في هذه اللّحظة المزدحمة بالوسائد والنعاس، تعود إلى نقطة التقاطع إيّاها. لا تدري ما الذي يزيح عن كاهلها التّفكير في أعباء المعيشة، بعد أن تناقصت مواردها الماليّة بعد سفر ومصاريف طارئة. كيف لا تفكّر في قسط الشّقّة المستحَق بعد أسبوعين، وفي سَداد حساب البطاقة الائتمانيّة، وضرورة ملء بطاقة المواصلات العامّة برصيد جديد. هل أضحت قَدَريّة محتسِبة في تفكيرها كالعجائز الصالحات؟ أم هو لون من التّسليم المُوَقّت تحت وطأة متغيِّرات لا رادّ لها؟

رنّ جرس الهاتف لينتشلها من الاستغراق في ملاحقة طيور أفكارها. كانت طيورًا بيضاء وسوداء تتناوب على النقر في رأسها الممتلئ بالضباب، لا بالحَب. كان المتّصل يوسف كما خمَّنت. راح يتكلّم باعتياديّته المعهودة، بلطفه وتهريجه واهتمامه. يقول إنّه سيمرّ بعد نصف ساعة حاملًا بعضَ المؤونة. هو يعلم بأنّ ثلّاجتها فارغة في يوم الوصول الأوّل، وأنّها حتمًا جائعة ووحيدة. أغلقت سهام السّماعة وهي تتعجَّب من قدرتهما معًا على تجاوز الأزمة. هو يتكلّم في منتهى الاعتياديّة، كأنّه عاد بالزمن إلى أيّامهما الأولى، مجرَّد صديق عزيز له مكانة في النّفس. صديق صاغته العِشرة والتّعوُّد على قَدر الحاجة، وعلى قَدر الودّ الذي يملأ القلب برياحين أليفة وعَطِرة لا تخدش الشغاف، وإنّما تصنع له وسادة من عبق بريء وباقٍ على مرّ الفصول. وهي، الفتاة الرّصينة التي تجاوزت «ثلاثينها» ببضع سنين، بينما هو لا يزال يتلكأ عند منتهى عقده الثاني، هل تعرف أكثر منه في الحياة؟ وأكثر منه في اللّياقات الإنسانيّة وعلاقاتها؟ هكذا تفكّر وتحلّل. ولكن، مَن منهما يعرف أكثر من الآخر عن الحُب؟ الحبّ الذي بدا لها كلحاف الفقير، الذي لا بدّ من أن تمدّه على قَدر العلاقة المركّبة والمربكة، لئلّا تنكشف في ذلك الجزء المستتر من روحها، فيلفحها هواء المرض.

هل كان الحبّ من أولويّاتها في أيّ منعطف من منعطفات حياتها؟ هكذا تسأل نفسها باستغراب وهي في أوْج العمر الممتلئ بسخاء الجسد والرُّوح. تشعر بأنّ أولويّتها هي كينونتها التي تربأ بها عن كلّ ما يأخذها خارج مسارات الاكتمال المأمول، حيث لكلّ ذات صنوُها ومثيلها. في أعماقها تتطلّع إلى روح تحاذيها في استبصار ألوان الطّيف، تلك التي تلوّن

روحها الهائمة وراء المعنى المكتنز في الأشياء. هي تتوق إلى القلب الذي يأتي على قَذر هذه الطيوف اللَّونيَّة وتدرُّجاتها المائلة إلى اللَّازورد، بحيث يتماهى اللَّون الأزرق بالورديّ بالبنفسجيّ المضيء. كانت قد مرَّت على قلوب أخرى في ريعانها، خضراء وحمراء وبرتقاليَّة، ولكنَّها لم تجد إلى الآن لونًا يتماهى مع اللَّازورد الذي يسكن روحها ويغلبها على أمرها. حتَّى يوسف لم يكن غير لون ناصل من الأخضر ربَّما، وهو في طوره إلى الشحوب الآن، إلى أن يغدو وريقة ذكرى صفراء تنام بين طيَّات كتاب، سترصُه، برأفة، في رَفّ العِشرة المعتَّقة.

وصل يوسف قبل أن تنقضي فترة نصف السَّاعة. انشغلا في ترتيب الحاجيَّات ورصِّها في الثلَّاجة ورفّ الخزانة الفارغ، وحين امتلأ بدا لهما الوقت كأنَّه يأخذ مساراته مسترخيًا، فقد عاد كلّ شيء إلى اعتياديَّته: الطعام إلى الثلَّاجة، وماء الإبريق إلى الغليان، والهواء إلى الانسكاب رخيًا من النافذة، والكلام إلى جَرَيانه على عواهنه. ولم يبقَ غير حُجيرة صغيرة في قلب كلّ منهما تنطوي على سرّ صغير متكتّم، لم تعد في نفسيهما حاجة إلى الالتفات إليه. سألته فجأة عن كلير، كأنَّها تفتح خزانة منسيَّة في قعر ذاكرتها، إلى درجة أنَّها استنكرت صوتها الذي رنَّ مثل آنية فارغة. وكانت قد لاحظت أنَّه لم يعد يذكرها أو يصطحبها معه مؤخَّرًا. كانت تتوقَّع ما سيجيب به بخصوص كلير، ولكنْ لم يخطر في بالها ما ستسمعه من إضافة أخرى كانت أشبه بفرقَعة في وادٍ، لن تجد لها أثرًا في نفسها أو صدًى. قال إنَّه يحاول التَّخلُّص من علاقته بكلير على الرَّغم من تعلُّقها به، فهي لن تناسب نمط حياته ولن تتناغم مع تقاليد عائلته ودينه. والأمر الآخر الذي يجعله أكثر حرصًا على إغلاق دفاترها، هو توطّد علاقته بفتاة أخرى، باكستانيَّة مسلمة، يمكن له أن يعوّل على الارتباط بها والاستقرار معها، بمباركة أسرته.

صمتت سهام وهي تستقبل هذا البوح برصانة الأصدقاء المعتَّقين، وكأنَّ في صمتها ما يدعوه إلى أن يسترسل ويعقِّب ويشرح كما يحلو له. قال إنَّ أطروحته الدّراسيَّة وصلت إلى طريق مسدود، وإنَّه سيكتفي بالماجستير من دون الدكتوراه كما يقترح مشرفه العلمي، وهذا الأمر يعني محاولة التأقلم مع خيبة الأمل والبحث عن عمل أو وظيفة. وهو في وضعه هذا يحتاج إلى من يسنده معنويًّا وماديًّا. وفاطمة فتاة ذكيَّة ومجتهدة، وذات مستقبل واعد في مجالها، وفوق ذلك هي تحبُّه، كما يقول، ولعلَّ الارتباط بها فرصة مؤاتية للاستقرار والبحث عن انطلاقة

جديدة في حياته. لم يعد هناك ما يقال بعد أن خلت جعبة سهام من المشاعر المتلكّئة، والتي كانت قد رمتها في الهواء منذ أن صعدت إلى الطائرة ذاهبةً في إجازتها الاستشفائيّة. لم يبقَ شيء في قلبها عدا أن تشعر بالتعاطف، الذي جاهدت أن يكون أخويًا كورقة نظيفة مغسولة من البقع.

رنّت إشارة التّذكير برسالة صوتيّة من الهاتف الأرضي. كانت سهام قد سمعتها منذ أكثر من ساعة، ثمّ تكاسلت في النُّهوض لالتقاطها، وها هو الجهاز يذكّرها بها. ضغطت زرّ الاستماع، وأنصتت إلى الصوت الذي اتّضح أنّه لصفاء تويجان، حتّى قبل أن تذكر اسمها في نهاية الرّسالة. كانت تطلب منها الاتّصال في أقرب فرصة لشأنٍ ما قد يهمُّها. ارتسمت علامة الاستفهام على وجه سهام، فآخر عهدها بصفاء كان قبل سنة تقريبًا، حين زارتها في البنك واستفسرت عن أسهل طريقة لتحويل مبلغ من المال إلى بغداد، بعد أن بات أمر التّحويلات محفوفًا بالمحاذير، تحت وطأة الحصار الاقتصادي، ومشاكل الحرب، ومنع السفر. سألت يوسف إن كان يخمّن سببًا ما للرّسالة الصّوتيّة. فأجاب بأنْ ليس لديه أدنى فكرة، ولكنّه صادف صفاء منذ يومين في محطّة الأندرغراوند، وأنبأها بآخر أوضاع سهام حين سألت عن أحوالها. نهضت سهام حينها لتُعِدّ صينيّة الضيافة للصديقات الآتيات في الطريق، وأجّلت الردّ على رسالة صفاء إلى حين.

كانت منال أولى القادمات للسّلام على سهام بعد طول غيبة. تلاها وصول سميحة ونجوى اللّتين لا يمكن أن تكونا قد جاءتا معًا لاختلاف طريقيهما، على المستويين الواقعي والكنائي، ولكن يبدو أنّهما التقتا عند مدخل البناية. وما إنْ بدأ صخب التّرحيب والتّهليل بسلامة العودة، حتّى وصلت فايزة تحمل طَبَقًا أعدّته للتّعبير عن شوقها إلى سهام. وحين التمّ الجميع حول طبق «المجدرة»، حام السّؤال عن غيبة أروى عن مثل هذا اليوم الفائح برائحة الوَصْل. لم يطل انتظار التّعليل حين قدّمت نجوى اعتذارًا بالنيابة عن الغائبة، سببه توعُّك أخيها بشير الذي يصعب تركه مريضًا ووحيدًا في بيت بلا زوجة. انشغل الجميع بعدها في التّعقيب على أحوال أروى وخيباتها وقلّة حظّها، ولم ينتبه أحد إلى تغيُّر سحنة فايزة وارتباكها، ثمّ مداراتها الشّعورَ بالتوتّر حين لاذت بالصّمت، وافتعلت الانشغال بحمل الصحون إلى المطبخ، بحثًا عن زاوية بعيدة عن الصّخب ترتّب فيها أفكارها المضطربة.

انفضّ الجمع مع تقدّم المساء، وران الصّمت مرّة أخرى على المكان

الذي أوشك أن يغفو على الأضواء الخافتة. جلست سهام على أريكتها المفضّلة وقد مدّت ساقيها وأرخت رأسها محاوِلة أن تستعيد أحداث يومها، منذ وصولها فجرًا، مرورًا بتأمُّلاتها في دفاتر قديمة، ثمّ مفاجآت يوسف ومستجدّات خططه العاطفيّة، وانتهاءً باستغراقها في وجوه الصديقات اللّواتي غادرنَ في التوّ، وجهًا وجهًا، متسائلةً كيف تتصوَّر حياتها من دون حضورهنّ الطاغي، الذي يضيف إلى أيّامها بهجةً ودفئًا لا يعرف طعمهما المتوحّدون والمستوحشون.

طرأت في خاطرها فجأة رسالةُ صفاء الصّوتيّة، فسارعت إلى إجراء المكالمة قبل أن يتأخّر الوقت. استجابت صفاء للرّنين مباشرة، وبادرت إلى توضيح مقصدها من الاتّصال السّابق. أخبرت سهامَ بأنّها التقت مصادفة يوسفَ منذ يومين، وأنّها عرفت منه أنّها تبحث عن عمل، وأنّها ألمحت إليه بخلوّ وظيفة سكرتير الملحق الثقافي في السّفارة التي تعمل فيها. صمتت سهام تتابع ما تسمع، ثمّ استزادت صفاء في المزيد من المعلومات. قالت لها إنّ السّفارة في صدد نشر إعلان عن الوظيفة الشاغرة في الصّحف العربيّة غدًا. وإنّ عليها، إذا رغبت في شَغْلها، أن تسارع إلى مراجعة مكتب الملحق الثقافي باكرًا، قبل أن يكثر المنافسون والمنافسات وتضيق الفرصة. وقبل أن تغلق خطّ الهاتف، أردفت بأنّ ليوسف الفضلَ في سؤالها عن وجود وظائف شاغرة لها، ثمّ تذكيرها بهذه المسألة التي لم تكن لتخطر في بالها، وهي في خضمّ الرّكض وراء القطارات المنفلتة. ثمّ له الفضل أيضًا في الإلحاح عليها للتواصل معها بهذا الشأن. وختمت المكالمة بتمنّياتها أن تكونا زميلتَي عمل قريبًا.

غاصت سهام في مقعدها الوثير وقد تكاثرت في رأسها طيور الأسئلة؛ طيورٌ لم تعد بيضاء وسوداء فقط، وإنّما ملوّنة أيضًا، وكأنّ هذا اليوم يأبى أن ينتهي إلّا بحدوث هذه المعجزة الصّغيرة. كانت في الصّباح تستعيد تقاطعات طُرُقها، ووقوفها ممتلئة بالأحلام، ولكن ببَوصلة مربكة لا تدري إلى أين تحملها. هي التي وطّنت نفسها على الكدح، تتطلّع وراءه إلى نوافذ جديدة مشرَعة، وترضى بما تجود به الحياة وإن كان قليلًا، فلعلّ في القليل فَرَجًا نحو ما هو أكثر. أدركت كم كان حَدسها صادقًا حين غفت في الفجر وهي ممتلئة بالتسليم. كان تسليمًا صافيًا من الشوائب والشكوك، وكأنّها تحوّلت إلى طاقة روحيّة لطيفة تسبح على حافّة الوجود، وترى ببصيرتها كيف تتشكّل المصائر بتلقائيّة كما تتشكّل الغيوم.

استحضرت وجه شاليمار؛ البصّارةِ التي استأنست بالجلوس في

حلقتها ذات يوم، وهي تتحدّث، بصوت خفيض متأنٍ، عن خريطة الإنسان الرُّوحيَّة؛ صوت كأنَّه يأتي من الما وراء ليخوض في سكونيَّة اللَّحظة. حدّثتها سهام يومها عن تقاطعات الطُّرق التي تتربَّص بها في كلّ منعطف، فأشارت عليها شاليمار بالمداومة على إدارة الأسئلة الوجوديَّة المهمَّة في ذهنها: من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟ وها هي، بعد ردح من التعب، لا تزال تُدير هذه الأسئلة وتردِّدُها من دون كلل: من أين أتيث؟ وإلى أين أنا ذاهبة؟ وكيف سأقطع الطريق؟

كانت ليلةً عصيبة، تلك اللّيلةُ التي اختفت فيها آية. وكانت أيضًا فاتحة لمكابدات أشدّ على قلب سميحة. إرهاصات كثيرة مهّدت لهذا الاختفاء المريب: الخروجُ المتأخّر؛ العزلة المتعكّرة بتقلّبات المزاج؛ الشجار والملاسنات المتبادلة. تحوّلت اية إلى طاقة قابلة للاشتعال في أيّ لحظة، وتحت أيّ طارئ من نقد أو تلميح. منذ أن عادت من مصر في الإجازة الأخيرة وهي مشحونة بالنّقمة، ومنقلبةً في غيظ مكتوم، تعاني أطوارًا وتبدُّلاتٍ في الشّخصيّة والمزاج، وعُسرًا في التّواصل.

لم يجرؤ الأبوان، حتّى بعد أن قاربت آية عامها السادس عشر، على الحديث عن مسألة التبنّي. لكأنّهما يقبضان على جمر، أو يواجهان عاصفة لا يعرفان كيف يديران إزاءها أشرعةَ حياتهم. حين ذهبت العائلة في إجازتها الأخيرة إلى مصر، لم يكن أفرادها يدركون أن أوان فضّ السرّ قد حان واقترب. لم تكن آية تدرك أنّ مجرّد الشكوى إلى أحد أبناء أخوالها، من معاملة أمّها وتشدُّدها معها، سوف يفتح أمامها الصندوق الأسود المغلَق على حين غِرّة. كانت متّكئة على سياج البلكونة في ملل الظهيرة، تزجي شكواها من قبضة الأمّ على تحرّكاتها وحزنها، فبادر ابن الخال يعقّب على المسألة، قائلًا بأن ليس لسميحة كلُّ الحق في ذلك، لأنّها ليست أمُّها في الأصل!! وحين فرقعت هذه الحقيقة في أذن آية في تلك الظهيرة القاسية، تطاير في رأسها غبش الظنون المتراكمة، وتحوّل إلى أجنحة سوداء تخوض في قلبها، وتربك سنوات مراهقتها المتوهّجة بالتمرّد، وتهيّئها لغضب عاصف.

عادت الأسرة إلى لندن، لكن لم تعد آية إلى سكينتها، إن كان ثمّة سكينة في عمرها الغضّ وأيّامها الضاجّة بالقلق. لم تكن أسئلة: من هي؟ ومن تكون؟ ومن هما أبواها الحقيقيّان؟ هي الأسئلة الأكثر إلحاحًا وألمًا، وإنّما كانت هناك أسئلة أكثر إرباكًا تتعلّق بالثقة والأمان، وبالرّكون إلى سقف وظلّ يضعان كيانها في إطاره الصّحيح والمريح. حين انتفى الفهم والتواصل في البيت، وانقطت حبال الكلام، ولم تجد ما يجيب عن أسئلتها ويُشبع فضولها المشروع، اتّجهت آية بكلّيتها إلى الخارج. فرّت كقطّة جائعة ومريضة. لم تدرك، وهي في عاصفة التساؤلات الموجعة، معنًى للحدود واللباقات، أو سببًا للحفاظ على الأطر المتعارَف عليها كتقاليد اجتماعيّة، حاولوا زرعها عبثًا. هي الآن وحدها والفراغ؛ هي ونفسها الموزّعة بَدَدًا في الرّيح؛ هي ولونها الأسمر النافر، ولغتها الهجينة، وجيناتها

المحيّرة؛ هي واللاانتماء إلى أرض أو أصل أو هوية؛ هي المفتّتة كقطعة بسكويت هشّة، إلى أين تفرّ؟!

كان الغياب عن البيت، وعن الوجوه الملغِزة، وعن أشيائها التي غدت في نظرها بليدةً وميّتة، هو الباب الذي يخفّف من توتُّرها وفورة دمائها. راحت تطيل التسكُّع في الشوارع الرَّطبة من دون هدف، وتطيل الجلوس في مطاعم الوجبات السَّريعة من دون شهيّة، وتتلكأ في محطّات الأندرغراوند تاركةً القطاراتِ تفوتها واحدًا وراء الآخر، متمنّية ألَّا يأتي قطارٌ آخر، أو أن تغلَقَ المحطّة فجأة، وتُطفأ أنوارها، وتتركها جالسة على مقعد الانتظار المعدني إلى الأبد.

أصدقاؤها القليلون الذين لم يكونوا يعنون لها الكثير، أصبحت تجد في صحبتهم الآن مَنجاةً من جحيم البيت، ومن سَخنة أمّها المتقلّبة، ووجه أبيها الذي تكره طيبته وقلة حيلته وركونه إلى الصمت والغياب. أخذت الساعات التي تُمضيها آية مع جيمي، البريطانيّ الأسود، تطول وتصبح أكثر حميميّة، بعد أن أظهر تفهُّمًا سريعًا لمعاناتها. فهو في النهاية يشبهها في التّمرّد وكراهية السُّلطة الأبويّة، وعنصريّة المجتمع، ويقاربها في لون البشرة وحدّة المزاج. وهي بدأت تجد فيه حضنًا وشريكًا للتسكُّع والتّدخين والثرثرة، ومهدّئًا مناسبًا لغضبها ورغباتها الجامحة. التصقت به في معظم ساعات نهارها، ثمّ أخذت تتسلّل إليه في حُجرته الوحيدة في مساءاتها الطويلة، تاركةً أبويها على صفيح من جمر من دون التفاتة أو ندم، إن لم تخالجها متعة خبيثة في إلحاق الضرر بقلبيهما المتوجّسين، من دون أن تأخذها بهما رحمة.

حين لم تعد آية إلى البيت تلك اللَّيلة، توجّست سميحة خِيفةً ممّا سيأتي، وانكمش هشام على نفسه يجترّ الصّمت وقلّة الحيلة كعادته. ظنّت سميحة أنّ آية تعبّر في تأخُّرها تلك اللَّيلةَ عن حالة عابرة من السّخط، الذي اعتادت التعامل مع جنونه وتجرَّعت مراراته. ولكن التأخُّر تحوّل إلى مَبيت خارج البيت، من دون خبر أو إشارة. وحين أصبحت ليلة الغياب ليلتين وثلاثًا وأربعًا، بات جليًا أنّ الفتاة اختارت الهرب من بيت العائلة.

غاص قلب سميحة بوجعٍ حارق، حين اتّضحت أمام ناظريها قسوةُ الفتاة وتنمُّرها المعلن. صرخت بهشام وانتابتها نوبة من الهياج، وهي تتّهمه بالضّعف والخَوَر، وتنعته باللّا مبالاة والتّخلّي اللذين لا يليقان بأب. وهشام، الذي أُخذ على حين غِرَّة، حين هربت الفتاة، يبدو في انكساره وتَوَهانه، كأنّه بلا أهليّة أو إرادة، كما كان بلا أهليّة أو قرار حين تمّ تبنّي الفتاة سلفًا.

كانا في فورة الصِّدام والصدمة، يتبادلان الاتِّهامات، ويجتزان الحنظل، ويواجهان فشلهما بأصابع عارية وقلبين مكلومين وحيرة سادرة.

بدأت محاولة التعامل مع المشكلة بالاتِّصال بالأصدقاء طلبًا للدعم والمشورة. ثمَّ التَّطلُّع إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بإقناع آية بالعدول عن فكرة الفرار والعودة إلى البيت. استعان الزوجان بسهام، كونها الألصق بالأسرة، والأقدر على استمالة آية منذ كانت طفلة، تشتري لها الهدايا، وتُجلسها في حجرها، وتدير معها حوارات طريّة لا يفهمها سواهما. وعلى الرَّغم من تجنُّب آية للجميع منذ سنوات مراهقتها الباكرة، وانعزاليّتها، فإنَّ الأمل ظلَّ قائمًا في فتح حوارات ليِّنة معها من خلال سهام.

كان طريق التواصل شائكًا وملغَّمًا بالتَّحدِّيات. اجتهدت سهام وحاولت، ثمَّ أعادت المحاولة، وفي كلّ مرّة تصطدم بقسوة آية وشراستها. ينقطع التواصل بينهما، ثمَّ يعود، لتعود معه القسوة إيّاها، ويمتزج الغضب والنِّقمة برفض باتّ. ثمَّ جاءت المحاولة الأخيرة لتكشف عن وصول الكرب إلى ذروته: آية حامل.

عاش الزوجان طوال فترة غياب آية، ثمَّ شهور حملها، في دائرة مغلقة من الهمّ ومراجعة الحسابات. يتساءلان إن كانت آية لا تزال تمتّ إليهما بصلة. وما هو المطلوب منهما الآن كمعيلين، أو كأبوين. تُمضي سميحة نهارها ساهمة، وقد شحب لونها وقلّت شهيّتها للحياة والزينة، وغادرتها الضحكة. تحتال على طُول يومها بالنوم، وبالجلوس أمام شاشة التلفزيون من دون مشاهدة. تنتابها حالات متناقضة: فهي إمّا تثرثر في الهاتف مع أناس لا يعنون لها شيئًا، غيرَ عابئة بالفاتورة الثقيلة الوطأة، وإمّا تخلد إلى الكآبة في ركن مظلم، متحاشية التَّحدُّث مع هشام بعد أن أصبحت الأحاديث بينهما بلا معنى. تزور سهامَ أحيانًا لتدلق عندها ما يساورها من غثاثات ودموع، ثمَّ تنسحب كجنديّ خسر معركة حاسمة، حاملةً معها الهمَّ لليلة أخرى ويوم آخر، ستحتال عليه بالنوم أو التكوُّم أمام شاشة مضيئة بالأشباح.

حين وضعت آية حملها، عاملتها دائرة الشؤون الاجتماعيّة في لندن معاملةَ الأمّ الوحيدة، أو الأمّ المعيلة لطفلة حديثة الولادة بمفردها. فوفَّرت الدائرة الحكوميّة لها شقَّة سكنيّة ومعاشًا شهريًّا، كما هو معمول به في بلد يحفظ حقوق مواطنيه ممَّن يحملون جنسيَّته. وهكذا، استقرَّ الحال بآية، فأقامت بمفردها، كما أرادت وخطَّطت. واستطاعت الأيّام بمرورها أن تأخذ سميحة وهشامًا إلى دائرة التَّسليم، وتشذِّب الكثير من الخدوش الغائرة،

التي ستظلّ أوجاعُها تعاودهما كلّما خلدا إلى نفسيهما، وأحصيا خسائرهما.

لم تستطع سميحة، على الرّغم من خسائرها النّفسيّة والمعنويّة، أن تغضّ الطرف عن آية. فعادت إلى التّواصل معها بعد شهور من الولادة، ليتبع ذلك المزيدُ من التورُّط في إدارة شؤون شقّتها الصّغيرة، ثمَّ رعاية ابنتها الوليدة. وكأنَّ سميحة تأبى أن تتعلّم ممّا مرّ بها من عقوق وقسوة، فعادت لتطبخ لها، وترتّب شؤون الشّقّة وتسدّ نواقصها، وتلاعب الطفلة وترعاها في غياب آية للدّراسة في الجامعة، كما زعمت في البدء. ثمَّ استمرَّت الرعاية، حتّى بعد أن تكشّف لسميحة خداعُ آية وكذبها، فيما يخصّ الدّراسة المزعومة.

لا تزال سميحة ترعى وتصرف وتبذل. ولا تزال الطفلة تترعرع بين ذراعيها، تغمرها بأمومة فيّاضة، ولكن من دون انتظار شيء. فقد تساوى لديها أسود الآمال وأبيضُها، واختلطت على إدراكها المعاني وتشابهت. ولم يعد في جعبتها مكانٌ للّوم، أو ضغينةً.

لم تنم فايزة كما يجب البارحة، منذ أن خططت لإجراء المكالمة اليوم. مكالمة عسيرة تعرّضت للتسويف والتأجيل، منذ أن نقشت أرقام بشير السبعة في مفكّرتها، إلى أن سمعت بتوعّكه في صدفة محضة في لمّة الأصدقاء المجتمعين عند سهام، عشيةَ عودتها من الإجازة. حدست، وهي تقرّع نفسها على تردّدها، أنّها إذا لم تستغلّ هذا الظرف المَرَضي لإجراء المكالمة، فعليها أن تشيّع أملها اليتيم في التّواصل مع هذا الوجه الذي عَبَرها كطيف. ثمّ استدركت أنّ حجّة الاطمئنان على مريض قد تبدو متهافتة، وخصوصًا أنّها لم تتعدَّ كونها مجرَّد ضيفة طارئة من ضيوف أخته ليلة احتفالها بعيد ميلادها، منذ ما يزيد على أسبوعين. وعليها، والأمر كذلك، أن تفكّر في حجّة أكثر إقناعًا تدعم سبب اتّصالها وتبرّره.

ضغطت الأرقام السّبعة بإصبع مرتجفة وحنجرة جافّة، وكأنّها مراهقة تجرّب لأوّل مرّة أن تكون امرأة قادرة على أن تفتح مغاليق العالم اللّامبالي، وتقول للرّجل الذي أعجبها: ها أنذا. بَيد أنّ صوتها سرعان ما خانها، حين سمعته كصرير مكتوم، يصارع أن يبدو في أفضل حالاته. على الضّفة الأخرى، جاءها صوته أكثر عمقًا واسترخاءً ممّا تتذكّر، إن كانت تملك حصافة تذكُّر الأصوات، أم أنّها حميميّة المهاتفة تعيد صياغة النبرات، وتُكسبها غموضًا ودفئًا. شعرت كأنّه يستعجلها للإفصاح عن سبب الاتّصال الغريب، أم ربّما تراءى لها ذلك. تلعثمت وتعجّلت لتُبعد عن نفسها شبهة الإطالة بلا داعٍ، ولتثبت أنّها ليست امرأة الثرثرة والخِفّة. تشبّثت بشجاعتها الهاربة، وبدأت ترتّب الكلمات التي أعدّتها سلفًا.

قالت إنّها في صدد ترتيب احتفاليّة عائليّة، وإنّها استطعمت قالب الكيك الفاخر الذي أحضره إلى عيد ميلاد أخته، وتودّ أن تعرف من أيّ محلّ للحلويات يمكن أن تطلبه. شكر تقديرها لذوقه في الانتقاء، ثمّ أردف بأنّه سيبحث لها عن رقم هاتف المحلّ في مفكّرته أو بين أوراقه. ازدادت رغبة فايزة في إطالة أمد المكالمة، على الرّغم ممّا تشعر به من توتّر وصل إلى ذروته، حين امتدّ الصمت الفارغ بينهما وتعلّق في الجوّ. استحثّت ذهنها المشتّت على التّركيز في السّبب الآخر للاتّصال، المُعَدّ سلفًا. وهو سبب يستلزم أن تتصرّف بصوتها بطريقة ما، تجعله طريًّا ومعبّرًا عن الاهتمام. إلّا أنّ صوتها ظلّ محتفظًا بنبرته الجدّيّة رغمًا عنها، وهي تسأله عن صحّته، وإن كان قد اجتاز الوعكة التي ألمّت به مؤخّرًا. ثمّ جاءت الجملة الأخيرة، بعد أن بذلت جهدًا إضافيًا ليبدو صوتها أكثر رقّة وصفاءً،

لتتمنّى له السّلامة والشّفاء، مع الإشارة إلى ضرورة العناية بنفسه. جملتها الأخيرة لم تعجبها، وبدت لها نافرة وخارج السياق، ومُبالَغًا فيها أيضًا.

وضعت فايزة سمّاعة الهاتف في مكانها، وهي في حالة إعياء، كأنّها كانت في سباق للجري أو تسلُّق جبل. لامت نفسها كالعادة على تصرُّف لا يشبهها، وكرهت روحها بقية اليوم، وانصرفت للعمل بلا حماسة. العلاقات في عمومها كانت، ولا تزال، شديدة الوطأة عليها. أمّا محاولات نسجها، فهي الأكثر ألمًا واستهلاكًا للطاقة. لا تفهم كيف تستطيع سهام استقطاب ذلك الكمّ من العلاقات المتشابكة، وكيف توازن في حساباتها الذهنيّة والنّفسيّة بين علاقات الأهل والأصدقاء والمعارف والزملاء، وتعطي لكلٍّ جهدًا ووقتًا وعناية، حتّى ليظنّ كلُّ واحد أنّه بؤرة كونها، والجرمُ الذي حوله تدور وتحيا. شعرت بأنّ قواها تخور قبل أن ينتهي اليوم، وأنّها تريد أن تنام وتنسى.

لم يمضِ يومان على مكالمتها لبشير، حين شعرت فايزة بضرورة سدّ الثغرة التي فتحتها على نفسها. هو قال إنّه سيجهّز لها العنوان والرّقم المطلوبين لمحلّ الحلويات، الأمر الذي يتطلّب منها مراجعته في هذا الشأن. وبعدها، إمّا أن يُتاح لها المواصلة في نسج العلاقة، وإمّا إغلاق الباب من دون ندم. كلّ شيء سوف يتّضح بعد المكالمة الثانية بلا شكّ. أخذت نفَسًا عميقًا وهي تهيّئ مشاعرها المهتاجة لجولة جديدة من التوتّر والعبء النّفسي. حين جاءها صوته هذه المرّة، شعرت كأنّها طلبته في وقت غير مناسب. سمعت في الخلفيّة صخب أطفال مختلطًا بأصوات صادرة عن تلفزيون أو موسيقى مشوّشة. سأل مَن المتحدّث للمرّة الثانية، وكأنّه يجاهد ليُرهف سمعه وسط الضجيج. تمنّت حينها أن تغلق الخط فجأة، أو تدّعي أنّها تطلب الرقم الخطأ. هو لن يميّز صوتها في أيّ حال. حين عرف المتّصلة، وتذكر طلبها بعد جهد، أو هكذا خُيّل إليها، اعتذر عن سهوه ونسيانه الأمر، ثمّ أردف بأنّه إذا وجد رقم هاتف المحلّ، فسوف يرسله عن طريق أخته أروى. وكرّر اعتذاره بانشغاله بأمور عائليّة في الوقت الراهن. لم يبقَ ما يُقال أو يُسمع، فأغلقا الخط معًا.

أدرك بشير، بحسّ الرجل المجرّب، ما وراء المكالمتين من رغبة في الوصل، ظنّت فايزة أنّها من الممكن أن تتأسّس على مهل. وهو، الذي لا يريد أن يطيل أمل المتّصلة سدًى، أعطى إشارة واضحة إلى موقفه، بإحالة طلب فايزة إلى أخته، بعد أن شعر بافتعالها سببَ التّواصل بطريقة ساذجة ونيّئة. لم تخفَ نيات فايزة على أروى حين أخبرها بشير بالأمر، على الرّغم

من محاولته إسباغ البراءة على الموضوع برمّته، وعدم تحميله أكثر ممّا يحتمل.

لم تكن أروى في أحسن أحوالها، حين سمعت بمحاولات فايزة الفاشلة مع أخيها. كانت تفتقد سلمان بشدّة، وتحيّرها ملابسات غيبته الطويلة، فتشتاقه، وتتعلّق بما تبقّى من روائحه وظلاله. لم تكن تأبه لعلامات الهجر، كأنّ مراراته لا تزال قابلة للاجترار مرّة بعد مرّة، مستجلبةً متعةً لا يعرفها غير العاشقين لعذاباتهم وانتظارهم. تتساءل أروى، وهي في أتون خيبتها، عمّا تريده هذه الفايزة منهم؟ ولماذا تريد أن تسعد ببشير، وهي لا تعرف السّعادة؟ وكيف للزهور أن تنبت في قلبيهما، وهي تعبر صحراءها خاوية اليدين والقلب؟ لتدع بشيرًا في حاله، يلملم شتاته، ويرمّم زواجه المتضعضع والموشك على الانهيار. أمّا طفلاه، فهما ذخر لأيّامها العجفاء الآتية، ولن تتركهما لغريبة مثل فايزة.

حين التقت أروى سهام في مسكنها، بعد انتهاء يوم عمل، هاجت أروى وماجت، وهي تشرح لها ما حدث. كانت في غضبتها تتّكئ على قلب مكلوم، ونفس جائعة إلى الحبّ، وبصيرة لا ترى أبعد ممّا هي فيه من خيبة وانتظار. كأنّ سعادة فايزة، لو تحقّقت، ستجرح نياط روحها المعلّقة بخيوط عنكبوت.

كانت سهام تفهم أحوال أروى وتعيها، ولكنّها لم توافقها على لوم فايزة، وتحميلها ما تعانيه من خيبات. ففي المحصّلة، فايزة حرّة، وبشير حرّ. وهما ناضجان بما فيه الكفاية، ليقرّرا ما يصلح لهما. هذا ما كان يدور في خُلد سهام، وهي تشهد العاصفة المريرة التي اقتلعت ما تبقّى من عقل أروى، وحبال تحمّلها. لكنّها آثرت الصمت والإصغاء، حين شعرت بأنّ كلّ ما تحتاج إليه أروى الآن، هو الفهم والاحتواء والتهدئة، ليس إلّا، وأنّ حديث المنطق والعقل يمكن أن يؤجّل إلى جلسة أخرى قادمة.

نهضت سهام لتحضير ما يُؤكل. أطلقت بضع زفرات حارّة، وهي تتأمّل أحوال صديقتيها، وتهيّئ نفسها لحياد لا بدّ من أن يُطبخ على مهل. هكذا هي، منقادة قدريًّا من حيث لا تعلم، للخوض في أوجاع الآخرين؛ مدعوّة إلى الدّخول والتعايش والتنزّه على ضفافهم. تحمل ما يفيض منهم، تعاقره، تشفه، تقبض على روحه، وتنام معه وتستيقظ، وتنهض لهم، وتسكب الدّموع. تفعل ذلك راضية مَرضية، كأنّ إرثًا من التّحمّل وتكريس الذات يربض في تاريخها.

كان قلب سهام مثقلًا بأحمال أخرى متناثرة. منها ما يخصّ الوظيفة

المنتظَرة بعد إجراء المقابلة الشَّخصيَّة، ومنها التَّفكير في اختبارات كُورس الترجمة الفورية الوشيك، ومنها ذكريات مشوَّشة تتناهبها منذ سمعت بزواج يوسف المرتقَب. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّها وجدت نفسها تتفقَّد أحوال فايزة في اليوم التالي، بعد أن سمعت ما سمعته من أروى. اعتذرت فايزة عن استقبالها، لأنَّها مريضة ومتعكِّرة المزاج، وطلبت تأجيل الزيارة إلى يوم آخر من دون الدخول في التَّفاصيل والأسباب. لم تخفَ على سهام كآبةُ فايزة وتهدُّل ملامحها، حين التقتها مساء اليوم التالي. أمام فنجانين من القهوة المُرَّة، سرحت فايزة في اللَّاشيء. لم تعتد أن تبكي أمام أحد، حتَّى سهام، بل إنَّ دموعها أصبحت عصيَّة حتَّى في خلواتها. كأنَّها نسيت البكاء وطعم الدُّموع، ورمتهما هناك وراء الحدود؛ حدودِ فلسطين، وحدود لبنان، وحدود ليبيا. كان في حياتها بلاءاتٌ أخرى، أكثرُ استحقاقًا لدموعها ممَّا حدث منذ يومين. فلماذا توطِّن نفسها على إمكانيَّة الفوز برجل، وهي التي خسرت ما هو أغلى منه: الوطن، والأم، والأمل بحياة أكثر خصوبة ومعنًى.

خلدت سهام إلى الصَّمت وتركت فايزة تلاحق خواطرها الأشد قتامة. تعرف من طُول مخالطتها لها، إشارات رغبتها في النُّكوص إلى الماضي واجترارِه. كأنَّها تؤُول إلى عش تجد فيه أمنها على الرَّغم من بؤسه وخشونته. تركتها ترحل وراء طفولتها في «مخيَّم عين الحلوة» في لبنان، تجلس على عتبة ما يسمَّى بيتًا في حي العشوائيَّات. أطفال المخيَّم يلعبون في الزقاق الضيِّق بما تيسَّر من إطارات قديمة وصناديق مهمَلة. وفوق رؤوسهم تتدلَّى خِرَق الغسيل تحت شمس شحيحة. بضع دجاجات تائهة تلوب في الجوار وتنقر الحصى. عادت للتوِّ من فصلها الدراسيِّ المكتظ، وفي جيبها قلم الرَّصاص خاصَّتها، لا يزال. عليها أن تبريه من جديد لعمل الواجب المدرسي، مع الحرص على ألَّا ينقص طوله كثيرًا. فلا يزال الوقت باكرًا على استلام إعاشة «الأونروا» وشراء قلم جديد. تسند دفترها على العتبة، وتشرع في رسم شجرة مورقة، ووراءها تطلع شمس صفراء كابية. تتخيَّل اللَّونين الأخضر والأصفر، فهي لا تملك أقلامًا ملوَّنة الآن، انتظارًا لإعاشة «الأونروا»، كما تقول أمها. تنغمس في الكتابة والرَّسم، وأمامها تمرّ نسوة يحملن الرضَّع ويثرثرن، ومراهقون يفتعلون شجارات نَزِقة، ويشوطون ما يصادفهم من حجارة بغضب. تسقط الحجارة في مياه الصرف الآسنة. تطرطش. تهرب الدجاجات نحو الأبواب المواربة، حيث تتسلَّل روائح الطبيخ... والانتظار.

كان انتظار فايزة، وهي تودّع سنوات صباها في «مخيّم عين الحلوة»، هوالانتظار الأكثر قلقًا وتحفُّزًا. تستطيع الآن، بعد أن أنهت الثانوية وبعضَ الدّورات في تخصُّص التّربية والتّعليم، أن تنهض ببعض الأماني؛ أن تلاحق تلك الشمس التي رسمتها ذات يوم في دفترها، وهي جالسة على عتبة دارهم في المخيّم. أُولى الأماني توفيرُ حياة أكرم لأمّها وأختيها. إخوتها الشباب يتلمّسون دروبهم في الخارج، ويعرفون كيف يعتنون بأنفسهم. ولكنّ أمّها وأختيها لا يزلن يَتُقنَ إلى مظلة رؤوم تعوّضهنّ عن سنوات الشتات ومرارة المنفى.

ارتحلت فايزة إلى ليبيا للعمل. اشتغلت معلّمةً للرّياضيّات في مدرسة للبنات. ادّخرت رواتبها وقنّنت مصاريفها، إلى أن وفّرت سكنًا مريحًا لأهلها، واستدعتهم للإقامة معها. بدأت الحياة تُلين للأسرة، وترمّم بعض كدماتها. ركنت فايزة إلى شيء من الطمأنينة، وهي ترمق أمّها تلقط وريقات الخبّيز والزعتر البرّيّ في باحة البيت الرّيفي، كأنّها تواصل سيرتها في قريتها الفلسطينيّة الغابرة، فتبتهج، ويعاودها الحنين والغبطة. تغمّس لقمة رغيفها في طبق الخبّيز المشوّح بالبصل وزيت الزّيتون والسمّاق، وتنظر إلى وجه أمّها مليًا. تسأل نفسَها، إن كانت قد قامت بما يتعيّن عليها القيام به، لإسعاد هذه الأمّ الكادحة، المستسلمة للصّبر الجميل. وحين فشل مشروع خطبتها لمعلّم اللّغة العربيّة، تنفّست الصعداء، فلعلّ ذلك خيرٌ. إذ كيف ستكون حال أمّها وشقيقتيها، لو تمّ ذلك؟ وكيف ترضى بأن يعشن من كرم زوج لا تعرف إن كانت العِشرة ستستقيم معه، أم لا!

هكذا تفعل فايزة كلّما حزّ بها أمر. تستذكر ما هو أشدّ وأقسى. تتأسّى، وتلوذ تحت جناح الهمّ الذي أصبح تاريخًا وملجأ. باتت لا تتعرّف إلى نفسها خارج إطار كونها ضحيّةً أبديّة: ضحيّةٌ للمحتلّ؛ للتهجير؛ للشتات؛ لكلّ شيء لا يُقتنى أو يتحقّق. استجابت ملامحها ولغة جسدها لهذه البرمجة النّفسيّة، وتَشكّلت على مقياس الخيبة واليأس. وجهها الخالي من المساحيق؛ شعرها القصير الذي أخذ يخفّ ويرقّ من دون أن تبالي؛ ملابسها المتقشّفة المكرّرة، وحذاؤها المسطّح والذي لا يليق إلّا بامرأة كادحة. رضيت بما تجود به الحياة من فُتات الأماني. في المحصّلة، مَن ستكون فايزة لولا هذا الإرثُ النّفسيّ والذهنيّ الغائر في الوعي واللّاوعي. هكذا فهمتها سهام، واستجابت لشروط شخصيّتها المركّبة. وأدركت أنّ لكلّ فرد من ثلّة أصدقائها مفتاحه المتاح، وقُفلَه الذي باتت تتعرّفه وتُحسن معالجته، إلى أن يستجيب، فينفتح.

مفتاح فايزة الذي يسمح بالدُّخول إليها، هو موافقتها على ما ترى وتعتقد. مجاراتها سلامةٌ، والتماهي مع مزاجها العَكِر منجاةٌ. في أوقات هبوطها المعنوي، تفضِّل أن يظلّ من تحتكّ بهم على مستوى ما تعانيه من السَّأم والكآبة. تطلق الشكوى فيعزفون على أوتارها، وتتذمَّر فيسبقونها في آماد النكد والقرف. حينها تشعر بأنَّها في مأمن، وأنَّها تقتات من الشرنقة التي تمدّها بالغذاء. حين تصل إلى هذا المدى من الانسجام، ترتخي ملامحها، وتدخل في حالة صفاء واستسلام للحظتها الراهنة.

ما أنجزته فايزة في حياتها، من قبلُ ومن بعدُ، هو إنجازٌ للآخرين، ومن أجلهم فقط. هكذا تفكّر وتتصرَّف. تَرحُلُها من لبنان إلى ليبيا، ثمَّ من ليبيا إلى لندن، منجزاتٌ تصبّ في مصلحة العائلة، ومن أجل تحسين أوضاع أفرادها. اشترت سيَّارة، وتكبَّدت مشاقّ التكلفة ودروس القيادة، من أجل توفير الرَّاحة لأمِّها المريضة. تشارك في أقساط المسكن من أجل لمّ شمل أختيها. تطبخ كلّ يوم أحَدٍ من أجل أخيها وزوجته وأطفالهما، الذين اعتادوا زيارتهم في هذا اليوم. لم تفكِّر يومًا في أن تفعل ما تفعل من أجل إسعاد نفسها، أو إرضاء رغباتها، أو صناعة مَجدٍ صغير يخصّها. وإن بقي لها وقت من فراغ، قتلته بالعكوف على حياكة الصوف مساءً. تحرِّك الصنَّارتين بعصبيَّة وسرعة، ومن دون أن تنظر إليهما، صانعةً كنزات بمقاسات غريبة وغرز متداخلة، قلَّما تصلح للُبس. وإن فكَّرت في تسلية مساندة تنجيها من هواجسها المتلكِّئة، لجأت إلى تنضيد قطع ال puzzle، الذي تحرص على أن تزيد أجزاؤه على الخمسمئة، لتضمن وقتًا كافيًا لكنس تلك الهواجس والمزعجات.

كان يومًا مختلفًا وشديدَ الوطأة على قلب أروى. عائدة نهاية اليوم، وقد حملت أكياس مكونات السباغيتي بصوص الطماطم، واعدة نفسها بعشاء ساخن لم تطبخه منذ أمد. وضعت ما تحمل على طاولة المطبخ، وقد باغتتها مشاعر عاصفة، وهي تلمح خطًا مألوفًا على ظَرف يُطل طرفه تحت كومة بريد اليوم، الحافل بالفواتير والمراسلات الرّسميّة. كلّ الظروف البريديّة تتكوّم كالعادة تحت الباب. وقد تمرّ ساعات طوال قبل أن تحمل أروى نفسها على تفحُص ذلك الكمّ من البريد الوَرَقي الذي يثير السّأم، أو يدفع إلى الغيظ إذا كان إشعارات وتذكيرًا بفواتير مستحَقّة للكهرباء والهاتف وأقساط الشقّة والبطاقات الائتمانيّة.

كلّ البريد الورقي ممهور باسمها وعنوانها بخطّ الآلة الكاتبة، ما عدا ذلك الظرف الذي يطلّ بخطّ اليد. خطّ تعرفه، وتشتاق إلى أن يحط على وقتها المنسرب بلا قيمة، ليهزّ شجرته لتورق وتزهر. امتزجت الإثارة بالتوجّس وهي تقلب البطاقة البريديّة، القليلة الكلمات، القادمة من الخارج، الممهورة بتوقيع سلمان، الذي غاب لأكثر من ستّة أشهر، ثمّ عاد على جناح هذه الكلمات المتقشّفة. يقول إنّه بخير، وإنّه يفتقدها، ويضع لها في نهاية السطر الثاني رقم هاتفه في جدة. أعادت النّظر إلى كلماته المتفرّقة، حتّى خُيل إليها كأنّه يعيد حساباته، أو يتهجّى الكلمات، أو يعصرها عصرًا، وهو ينقشها عامدًا ألّا تزيد على جملتين.

جلست إلى طاولة مطبخها الصّغير، مشوّشة الخاطر، محاطةً بحبّات الطماطم وباقة الريحان وجبنة البارميزان. تنظر إلى البطاقة بعينين مغرورقتين، وقلب مكلوم يطفح بالعتاب واللّوم، يعذّبه الهجر، ويحييه الأمل، إلى أن يأتي اليأس فيعضّه ككلب عقور. وهذه البطاقة تبدو لها كجزرة منقوعة بهذه الخلطة من الأوجاع، تتدلّى أمامها بخيط الوهم والشك.

قبل ما يقارب الشهرين، ضاقت بأروى الحيلة، فتوسّلت نجوى أن تستقصي أيّ خبر عن سلمان، ظانّةً أنّه لا بدّ من أن يكون لنجوى معارفها ومصادرها، كونها تعمل لحساب صحف كبرى، وتختلط بطاقم صحافيّين لهم صلة برجال الأعمال ومن لفّ لفهم. وقد تستطيع بقليل من الجهد أن تشتمّ أيّ معلومة أو خبر عن سلمان. يومها وعدتها نجوى خيرًا مموّهًا بأمل ضئيل، وخصوصًا أنّ العوائل السعودية متشابهة في الألقاب والأسماء.

وحين طلبت منها أروى حصر التقصّي في مدينة جدّة، ضحكت نجوى متهكّمة بأنّها ليست شارلوك هولمز أو كولومبو. ثمّ ساورتها الشّفقة، ولم تُرِد أن تقطع أملها الأخير، بالقول بإمكانيّة أن يكون قد تزوّج في بلده. فالرجال لا يتسلّلون من العلاقة العاطفيّة ويختفون من المشهد فجأة، إلّا إذا كانت هناك خطة زواج. لم تتكلّم يومها نجوى عفا حدست، ولكن ألقت في قلب أروى الظنون. ثمّ استكمالًا لاقتراح التقصّي والبحث، اقترحت، بين الجِدّ والهزل، أن تذهبا معًا في إجازة إلى جدّة، هي لأداء العمرة، وأروى لاستقصاء أمر الهارب من الحبّ، ووضع نهاية لأمل طال أمده.

دارت في ذهنها المضبّب كلُّ هذه الحيثيّات، وهي لا تزال ممسكة بالبطاقة التي قلبت يومَها رأسًا على عقب. لم تطبخ السباغيتي، ولم تتمدّد على كنبتها المفضّلة وتثرثر مع أمّها عبر الهاتف، ولم تخلع ملابس العمل وتغتسل. جالسة في مكانها، وقد تصلّب ظهرها، تفكّر في سؤال وحيد: ماذا يريد سلمان منها؟ لماذا اختفى؟ ولماذا ظهر مرّة أخرى؟ لم تستطع أن تحدّد ذلك الشعور المتأرجح بين الأسى المكظوم والإثارة المتصاعدة، التي أخذت تدبّ في كيانها كنمل خرج من جحوره، بعد ليلة ماطرة. شعور ليس هو بالسّعادة المطمئنة فتسعد كفراشة مسّها الضّوء، ولا بالبؤس الخالص فتعود إلى كمونها كدودة وحيدة. ها هو يضعها من جديد في منطقة «الما بين»، ويهزّ الجزرة، يهزّها عن بُعد كصيّاد محترف.

قرأت للمرّة العشرين، أو الخمسين ربّما، كلماته القليلة. لم تعد تعرف كم بقيت تدير عينيها المتعبتين في هذه البطاقة المحيّرة. ما يحيّرها الآن أكثر من الكلمات، هو رقم الهاتف الذي اصطفّت أرقامه كقطار صغير يصفِر عاليًا في رأسها. هل المقصود إعلامها كيف تجده؟ أم المقصود أن تطلبه هي؟ قال إنّه يشتاقها، فلمَ إذن لا يطلبها هو؟ أم أنّ كلّ هذه المناورات لا تخرج عن جسّ لنبض، وانتظارٍ لمبادرة؟

تعبت من الهواجس والأسئلة، فنامت على ذراعها من دون أحلام. كأنّها قد استهلكت في أيّامها السالفة كلّ ما في جعبتها من أحلام، وباتت فارغة كعود قصب يصفِر فيه الهواء. استيقظت في منتصف اللّيل وهي تشعر بعطش شديد وجوع. شربت جرعتين من الماء، ثمّ تذكّرت أنّها لم تطبخ السباغيتي كما كانت تنوي في بداية يومها. وضعت الأغراض المتناثرة في الثلاجة، وأخرجت شريحتين من الخبز لعمل شطيرة سريعة. لم يكن للشطيرة طعمٌ وهي تلوكها ساهمة، وتشرب الحليب البارد، الذي ذكّرها بطفولتها وبالمدرسة، فعاجلها البكاء. تركت دموعها تنهمر من دون

مقاومة، وهي لا تزال تلوك لقمتها من دون شهيّة. سكون اللّيل وهدأة المكان ملآ قلبها بالوحشة، فأحكمت رداءها البيتي حول جسمها الضئيل، كأنّها تعاين رجفة برد طارئة. اقتربت من النافذة وحدّقت في قلب اللّيل، وأطالت النّظر، ثمّ أسندت جبهتها إلى الزجاج البارد. ليس هناك من أحد، غيرُ حفيف أشجار الرّصيف الذي لا تسمعه، وغيرُ أضواء صفراء واهنة وبعيدة، وغيرُ الوَحدة التي أخذت تقضم قلبها كفأر صغير.

تكّات السّاعة لم تكن تلفتها قطّ، ولكنّها اللّيلة تتك كنقر منقار يحفر رأسها. كانت السّاعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف اللّيل. شيء ما يتكوّر في جوفها ويُوجعها. كأنّ الدّنيا باتت فارغة وخاوية إلّا من هذا الوجع. كأنّ لا شيء هناك إلّا تلك البطاقة الملقاة على الطاولة، وإلّا تلك الكلمات التي جعلتها تنهض من نومها جائعة وبردانة، وإلّا ذلك الرّقم الذي يستلقي كحيّة مغرية، توشك أن توشوشها بإثم لا تريد اقترافه.

أمسكت سماعة الهاتف وأدارت الرّقم. شعرت بأنّها على وشك أن تقضم التفاحة التي حذّرت نفسها طويلًا من الاقتراب منها. مضت ساعات العصر واللّيل وهي في سجال مع ذاتها، تؤنّبها وتُقرّعها وترفع في وجهها مرّةً إصبعَ التّهديد، ومرّةً إصبعَ الرجاء، إلى أن تعبت وخارت قواها، فنامت كطفل أرهقه الجري في الطُّرق الموحلة. وها هي تخاتل ذاتها الممتلئة بالرضوض والسهر، وترفع سماعة الهاتف لتطلبه.

جاءها الصّوت الناعس، كأنّه داخلٌ في غفوة أو مُنتَبِه منها للتوّ. لم تنتبه لفارق الوقت الذي تذكّرته فجأة، حين آنست صوته المغمّس بالنعاس. لم تقوَ على البدء في الكلام، كأنّ في الصمت عتابًا مستحقًّا ومفهومًا وواجب السداد. نظرت إلى اللّيل السادر في الخارج للمرّة الأخيرة، وانسابت بكلّيتها إلى الصّوت النائم، كمن يقفز في حقل من القطن.

في اليوم التالي بدت في وجهها الباهت وقواها المتهافتة كمريض في طور النقاهة. احتاجت إلى جهد مضاعف لتنهض إلى العمل، وقبل ذلك لترتدي ملابسها، وتضع بعض رتوش الماكياج، لعلّها تخفي سهر البارحة وأرقها وتقلّباتها. يباغتها السّؤال المزدوج عن السّعادة والشّقاء، وهي جالسة تهتزّ برتابة في قطار الأنفاق، وتكاد تغفو من تعبها كوليد في مهده آنس غفوة سانحة. كرّر على مسمعها أنّه يشتاق إليها، وأنّها ستظلّ تلاحقه بطيفها وابتساماتها أينما حلّ. أمّا الغياب والقطيعة، ففسّرهما بالظروف والانشغالات. ثمّ أردف بأنّ السّبب الجوهري للغيبة يحتاج إلى حوار يطول، وإلى صبر وفهم من جانبها. تشعر بوخز في قلبها، كلّما استرجعت

كلمتي «الصبر» و«الفهم» الملغومتين بالتوجُس. إذ يبدو أنَّ وراء الاكمة ما وراءها. لم تلمس في كلامه نية العودة القريبة إلى لندن، وخصوصًا بعد انتقال مكتبه العقاريِ إلى جنيف. ولكنَّ هناك لهفة إلى معاودة الوصل، ونبرةَ حنان آسرة لم تستطع مقاومتها.

تواصلت المكالمات، وعاود الحبّ سيرته، وبات أكثر توقُدًا وإلحاحًا. يخالط ذلك العتاب والملامات، والأشواق المعلَنة، وسجالات الجِدّ والهزل. كانت أروى تسبح على سجيَّتها في نهر الحبّ. تبتلّ وتجدِّف وتغطس، وتطرطش كدولفين صغير سحَره دفءُ البحر، فعاش لحظته وغضَّ النَّظر عمَّا عداها. استعجلته ممازحة أن يظهر بعد أن طالت الغيبة، وإلَّا فستضطرّ إلى البحث عنه، والعمل باقتراح نجوى. وحين سأل عن اقتراح نجوى، عرف بفكرة الفتاتين التي مفادها المجيء إلى جدّة: نجوى لأداء العمرة، وأروى للبحث عنه. راقه الاقتراح بعد تفكير، ثمَّ تحوَّل إلى أمنية، فطلب، فإلحاح.

بقي سلمان في سجال متواصل مع أروى، في محاولة لإقناعها بالمجيء إلى جدّة في إجازة قصيرة. فهناك كما يقول ما يحتاج إلى حوار، وإلى الحديث عن إمكانية الارتباط. والأهمّ من ذلك إعطاء نفسها فرصةً لإثبات أنَّها قادرة على أن تعيش في بلده ومدينته، بعد أن «فرنجتها» لندن وشكَّلتها على نمطها. ثمَّ وصل الإلحاح إلى ذروته، حين دعاها إلى حضور حفل زفاف أخته، المزمعة إقامته قريبًا، وأنَّه وضع اسمها ومعها نجوى من ضمن أوائل المدعوِّين إليه، كونها موظَّفة بنك قديرة، كان من أهمّ زبائنها المستفيدين من خدماتها.

تمَّ ترتيب الأمور على وجه السُّرعة والدِّقَّة. ووجدت نجوى نفسها محظوظة بكرم الدَّعوة التي أصابت عصفورين بحجر واحد: أمنية أداء العمرة، وحضور حفل زفاف فاخر.

سارت خطة زواج يوسف بفاطمة بسلاسة. أهلها من الجالية الباكستانيّة، أسعدهم ارتباط ابنتهم بشاب مسلم، في بيئة ليس من السهولة فيها ضمانُ مثل هذه الزيجة. هو مصريّ، ولكنّه بدا الخيار الأفضل للبقاء ضمن الملّة، مقارنة بانتظار زواج تقليديّ غير مضمون للفتاة، بعد أن بَعُد ببني جلدتهم العهدُ والمسافات. سار الترتيب للزفاف على قدم وساق في أسرة الفتاة، بينما شهد قبول مثل هذه الزيجة تسويفًا وتردُّدًا من «الست الحاجّة» وأخوات يوسف، اللّاتي استغربن تسرُّعه في القرار، على الرّغم من عدم استقراره دراسيًا وماليًا. وحين تقرّر موعد عقد القِران، لم يجدن في أنفسهن دافعًا إلى تنكُّب مشقَّة السّفر إلى لندن، فهو ليس مكانًا مناسبًا للمّ الشمل، وخصوصًا في ظلّ التردُّد في القبول وعدم تصديق ما يحدث.

اتّكأ يوسف، كالعادة، على أريحيّة سهام، وعلى أدائها دور الدّاعم المساند في تفاصيل حياته وعيشه. استقبلت سهام فاطمة بصدر رحب، وتأمّلتها طويلًا، وهي تمسك بيد يوسف وترمقه بحنان وخجل. وقد احتاجت إلى بعض الوقت لتتمالك مشاعرها التي هبّت من ثقب ما في روحها. استأذنت لتحضير الشاي، ووقفت في مطبخها تردّ عن نفسها تلك الهبّات المباغتة، وتسدّ الثقب الذي انفتح من دون داعٍ من منطق أو عقل. عدّلت من هيئتها وارتدت ابتسامتها، وأعادت تهنئة الخطيبين، متمنّية لهما زفافًا مباركًا وحياة مثمرة. تناولت منهما بطاقات دعوات الزفاف التي أودعاها لديها، لتعينهما في توزيعها على الصديقات. فرزتها بأصابعها وقرأت الأسماء، ثمّ وضعتها في مكان بارز على رفّ الكتب في صالة الجلوس، وطمأنتهما إلى حُسن سير الأمور. ودّعتهما عند الباب، ثمّ تلقّت إشارة هامسة من يوسف، يستأذنها بالمرور عليها في اليوم التالي لأمر مهمّ.

حدست سهام الأمرَ المهمّ، الذي لن يخرج عن طلب خدمة أخرى تخصّ الترتيب لزفافه، في ظلّ غياب أسرته. وكان حدسها في مكانه، حين جاءها في اليوم التالي يطلب إعانته في اختيار مصاغ «الشبكة» للعروس، بما يتناسب وميزانيّته المتقشّفة. بلعت وخزًا صغيرًا في حنجرتها، مستنكرة هذه المشاعرَ الغريبة التي تغلبها على أمرها. استجمعت رباطة جأشها، وسايرته في الحماسة والاهتمام. دخلت حجرتها، واستلّت من الدرج بضع أوراق من فئة عشرة جنيهات إسترلينيّة، تُعينه بها على

استكمال المبلغ الذي يتطلّبه مصاغ العروس. وضعتها في حقيبة يدها، وانطلقت معه لشراء «الشبكة». وقع الاختيار أخيرًا على خاتم وعقد من الذّهب. ستفرح العروس، وستقدّر لسهام عونها وذوقها الرفيع فيما سيأتي من أيّام.

عادت سهام بعد جولة التّسوّق، مثقَلةً بإرهاق بدني ونفسي، استنكرتهما في البدء. ثمّ لامت نفسها وعنّفتها على الاستسلام لهذه المشاعر الحمقاء. دسّت المفتاح في قُفل باب المدخل، بينما كان يناديها من خلفها صوت مألوف. التفتت. كانت الواقفة وراءها كلير. هكذا هبطت عليها من حيث لا تحتسب. رحّبت بها، وحثّتها على الدُّخول، بعد أن لمست أنّها آتية بقصد الزيارة. صعدا معًا إلى الطابق الأوّل، وطيور الحيرة والتّوجُس من هذه الزيارة الغريبة، تدور في رأسها. أدخلتها صالة الجلوس، ثمّ استأذنتها لإعداد ما يمكن شربه. أعدّت الصينيّة، والمفرش الدانتيل، وجلبت فنجانين. وانتظرت أن يغلي الماء، وهي تدير في رأسها إمكانيّة وجود أيّ سبب وجيه لزيارة كلير، بعد أن تقطّعت الأسباب بينها وبين يوسف. بل إنّه، كما قال، كان يجتهد لإنهاء العلاقة، وخصوصًا بعد قرار الزواج بفاطمة.

ما كادت سهام تصب الماء الساخن فوق كيسي الشاي، حتّى سمعت شهقة استنكار وصرخة مكتومة شقّت سكون المسافة الصّغيرة، الممتدّة بين الصالة، حيث كلير، والمطبخ، حيث تقف هي. تركت ما في يدها، وسارعت تستطلع الأمر. رأت كلير واقفة في ذهول، وقد احمرّ وجهها وانتفخت أوداجها، وهي تحمل في يدها بطاقة زفاف يوسف. شهقت مرّة ثانية من قعر روحها، وتهاوت على المقعد منتحبة. أسقط في يد سهام، وتراجعت نحو الداخل، تستخير نفسها في كيفيّة معالجة الموقف. بدا لها من المشهد المؤلم الذي تعانيه كلير: أنّ يوسف لم يضع حدًا نهائيًا لعلاقته بها، وأنّها لا تزال معلّقة بحبال الرجاء. والمؤكّد أنّها أتت إلى سهام تتقصّى أخباره، وتستبطئ وصله.

كرهت سهام هذه المواقف التي يضعها يوسف في خضمّها. شعرت بنفسها يضيق، كأنّها بين فكّي كماشة. وودّت لو تهرب من الجميع: من يوسف؛ من فاطمة؛ من كلير؛ من نفسها الموزّعة بينهم جميعًا؛ من ذلك الثقل الذي يمضّ قلبها ويطحن مفاصلها. ودّت لو مسحتهم جميعًا من ذاكرتها لوهلة، وعادت إلى صفائها بلا أحمال. لم يكن هناك بدّ من تهدئة كلير ومواساتها. فهي في المحصّلة، في حاجة إلى هذا التعاطف، سواء

أجاءت من أجل استقصاء أخبار الغائب، أم لمواجهة ما لا يخطر في بالها من مفاجآت. الرابح في المعادلة هو يوسف. فقد كفته حادثة اكتشاف كلير زواجه المرتقب مؤونةَ المواجهة. واستطاع أن يتملّص من علاقة غير مرغوب فيها بأقلّ الخسائر. وكانت سهام الجسر الذي عبروا عليه جميعًا، بخسائرهم وأرباحهم.

حان يوم العرس. تقاطر المدعوّون بأزيائهم اللّامعة المبهرجة، وتصاعد البخور وروائح الصندل والعُود، وامتلأ الجوّ بالأبخرة الثقيلة وحرارة الأجساد والألوان. كانت البهجة ظاهرة على الوجوه المرحّبة، وفي المكان الذي أُعِدّ بحسب الطقوس والتّقاليد. عقود الورود البرتقاليّة والحمراء؛ مقعدا العروسين المبطّنان بالديباج اللّامع؛ الهودج المُعَدّ كالخيمة لاستقبالهما؛ الأسمطة الممدودة على الأرض بصنوف الطعام والشراب. كلّ شيء كان ينطق بعرس باكستاني، كما تقتضيه عاداتهم وتقاليدهم.

وصل الأصدقاء تباعًا بسيّارات متفرّقة. كان كلّ منهم يوصي الآخر بضرورة الحضور والقيام بالواجب، في ظلّ غياب عائلة يوسف. استُقبلوا بحفاوة من قِبَل أهل العروس، وخُصّصت لهم أفضل المجالس، ودارت بينهم صنوف الأطعمة المبهّرة والحلويات الدسمة. غنّى الجميع وصفّقوا ورقصوا، كلّ بحسب جذوره وطقوسه. تهادت الفتيات الصّغيرات بالبنجابي والساري، وكفوف الحنّاء والضفائر المجدولة بالورد. وأطلق الشباب صيحات التّهليل والتّبريك. وشاركت أروى ونجوى في هزّ خصريهما لوهلة، وأطلقت سميحة زغرودة طويلة ومطّتها باحتراف حتّى نهايتها، لسدّ فراغ أهل العريس أوّلًا، وثانيًا لإثبات الهويّة العربيّة وسط طغيان الطقوس الباكستانيّة، بينما راحت منال تلتقط الصور الجماعيّة بكاميرتها «المينولتا»، لتوزّعها لاحقًا على الأصحاب بعد تحميضها، كما اعتادت أن تفعل في مثل هذه المناسبات الجماعيّة. وانشغلت سهام بالأحاديث الجانبيّة مع أمّ العروس وأبناء عمومتها، كأنّها، باهتمامها الجمّ، تتلبّس دور أمّ العريس أو شقيقته.

أُدخل العروسان بموكب من الفرح الغامر، وجُهّزت عقود الورود البرتقاليّة. أحنى يوسف رأسه، فوُضع حول رقبته عقدان من الورد البرتقاليّ الفاقع. وبدا في أطواقه البرتقاليّة كأنّه واحد منهم، ضائعٌ في الصخب والبخور والرّوائح الثقيلة. لم تستطع سهام أن تقرأ ملامحه عن بُعد، ولا أن تتمعّن في هيئته مليًّا، حين شبك ذراعه بذراع عروسه المثقلة بالزينة، واختفى في زِحام الألوان والأصوات.

حين انفضّ الحفل، غادر المدعوّون كلّ إلى وجهته. وصلت سهام إلى شقّتها، ولم تمانع من بقاء أروى ونجوى معها لبعض الوقت، على الرَّغم من الإرهاق الذي بدا جليًا عليها. لعلّ وجودهما يساهم في استرخائها، واسترجاعها لياقتها النّفسيّة بعد يوم طويل ومرهق. كانت تعليقاتهما الطريفة الممزوجة ببهارات النميمة، عن العرس وأهل العروس، وما دار وما قيل، خيرَ مُعين لها على تخطّي التوتُّر الذي ران عليها طوال مراسم الزفاف. شعرت بأحمالها النّفسيّة تذوب وتخفّ، وبالنُّعاس يدبّ في أجفانها. تمدّدت على أريكتها المفضّلة، وغفت كطفلة متعَبة على صدى الأصوات والكركرات.

From: sihamnahhas@yahoo.com

To: manal_mosayyan@hotmail.com

منال... يا عزيزتي

أبكاني الحلم الذي خلته حقيقةً، حين شرعتُ في قراءة بريدك الأخير، في الجزء الخاصّ بذكريات مدينة الزرقاء. لا أدري إن كنتُ قد قصصتُ عليكِ أحلامي، من ضمن أحاديثنا المتواترة، أم هو إلهام يأتيكِ عبر مقتطفات الكلام ونتف الذكريات.

الحديث عن لبنى شجيّ. وورودُه في سياق يربط بيني وبينها، يُشعرني بأنّه لون من التأبين المستحَق. الله يرحمها. تذكّرني سيرتها بسيرة السندريلا. فتاة عادية تعمل سكرتيرة في أحد مكاتب الجامعة الأردنيّة. يأتي فارس جميل من وراء البحار، ليحملها معه على جناح الحب إلى وطنه الغريب والبعيد. تكافح للتأقلم مع البيئة واللّغة والوضع الاجتماعيّ، ولضمان القبول من أسرته الأرستقراطيّة. تنجح أحيانًا، وتفشل أحيانًا أخرى. تتعب؛ تمرض؛ تموت.

هل قلتُ لكِ إنّها توفّيت في لندن؟ كانت قد اشترت شقّة في عمّان، كما خطّطت. ولكن حين اشتدّ عليها المرض الخبيث، رغبت في رعاية ابنتها والقرب منها. كان وليام موجودًا أيضًا في أيّامها الأخيرة وحين وفاتها. المسكين كان متعلّقًا بها على الرّغم من كلّ شيء. وحاول أن يُقنع نفسه، في إبان العزاء، بأنّه لا يزال زوجها، والرّجلَ الذي أحبّها، على الرّغم من الانفصال. وقد طمأنته بهذا الاعتقاد، وأكّدتُ مشاعره المبرّحة في وقتها. أنا كنتُ موجودة في العزاء حينها.

في الجزء الذي يخصّ ياسرًا، أحسنتِ الصياغة والوصف. رأيتُ كيف امتلك باسر في سياق القصّ خلطةً مثالية من السّمات، هذا إن كان لأمثاله وجودٌ حقيقيّ في الأصل! أم أنّه وهذا ما أعتقد مزيجٌ جميل من مجموعة رجال يمرّون كالطيوف، فتأخذين أجمل ما في كلٍّ منهم، لتصنعي هذا النموذج الخالص من الشوائب. هذا تصرّف ذكيّ، حتّى نرفع مستوى التفاؤل وسط واقع أعرج وممتلئ بالثقوب.

أمّا فايزة، فأرى أنّها آخذة في التّشكّل في أُطر مبتكَرة، بعضها يحاكي حقيقتها، وبعضها خيال محضٌ، ولكنّه خيال متناسق مع خطّة الكتابة، كما يبدو لي. وأنتِ طبعًا صاحبة الشأن فيما يخصّ هيكل القصّ، وكيف تتكامل خيوطه وتتشابك. في ودّي لو تترفّقين بها أكثر،

وتعطينها مساحة أكبر من التعاطف. فعلى الرّغم من طباعها الصعبة، فإنّ قلبها ممتلئ بالإنسانيّة، التي تتكشّف لي كلّ حين. فقد أصبحنا أكثر قربًا في السّنوات الأخيرة، كما تعلمين. ظروفنا بدأت تتشابه، وأخذت كلٌّ منّا تتّكئ على الأخرى. وبدأتُ مع الأيّام أدركُ ما تنطوي عليه نَفْس فايزة من شهامة نادرة، واستعدادٍ للدعم والمساندة، وفهمٍ عميق وعمليّ لما تعنيه الصداقة. ربّما أذكر لك بعضًا من هذه المواقف في التّسجيل الصّوتيّ القادم، إن شاء الله.

عاودتني الحسرات باستعادتك حكايةَ أروى وسلمان، وعاودني التّساؤل عن الحياة والأقدار، وكيف تراوغ الإنسان دون أمانيه، على الرّغم من استحقاقه وبذله! لا أريد طبعًا أن أُفسد مُتعة السّياق، ولكنّكِ أثَرتِ شجوني. لم أسمع عنها خبرًا منذ زمن، وأفكّر في أن أحادثها اليوم هاتفيًا للاطمئنان على أحوالها.

بقي أن أعقّب على حفلة زفاف يوسف ومَشاهدها، فأقولَ إنّ الصُّوَر التي قمتِ بالتقاطها، والتي تجمعنا كلّنا مع العروسين وأطواق الورود البرتقاليّة، لا تزال تنام مع مثيلاتها في المخبَأ تحت الكنبة. متى كان العرس؟ أعتقد منتصف الثمانينيّات. أليس كذلك؟

لكِ المودّة الغامرة،

والدُّعاء.

سهام نخاس

لندن، 4 شباط/

فبراير 2018م

from: manal_mosayyan@hotmail.com

to: sihamnahhas@yahoo.com

سهام الغالية دائمًا

أعتذر على تأخُّري في الردّ على إيميلك الوارد منذ عشرة أيّام. كنتُ مشغولة بتأمُّل باسل قبيل سفره إلى لوس أنجلوس، والحَوَمانِ حول الطائر الذي ترك العشّ. أتأمَّل في تقاطيع وجهه؛ لحيتِه التي يطلقها كيفما اتّفق؛ استطالةِ جسمه النّحيل وهو ينحني، ليضع غرضًا ما في الحقيبة، أو ليطويَ سراويل الجينز بعناية، ثمَّ وهو يهرع ليلحقَ بطائرته المغادرة.

لم أشعر باضطراب الفراق الوشيك، فتلك مرحلة قطعتُ بها شوطًا، واجتزتها منذ اعتدتُ رحيله وعودته طوال سنوات الدّراسة. أنا أتأمَّل في تحوُّر علاقتنا؛ في تحوُّل الحبل السرّيّ إلى شعرة رهيفة من حرير. فأبناؤنا أبناء الحياة في النهاية، ولا اعتراض لديّ، ولستُ تلك الأمّ المصابة بسُعار التّملُّك والتّحكُّم. فاختياراتهم متاحة، وحرّيّاتهم مَصونة.

ولكنّني أحبّ التأمُّل في مراحل الأمومة التي قطعتها مع أبنائي الثلاثة؛ البنتين والولد. أفكِّر في الأمومة كمشروع حياة، بل لعلَّه المشروع الأجدر بالاشتغال على تفاصيله وحيثيّاته التي لا تستقرّ على حال. وهو، كأيّ مشروع، قابلٌ للدخول في مفاجآت الصعود والهبوط، والانحراف نحو طُرُق فرعيّة لم تكن ضمن الخطّة. هذا إن كان نهر الحياة ممّا يمكن حبسه في قالب أو خطّة.

هناك من يقول إنّ الأبناء زرع الآباء. أنا لا أتّفق مع هذا الرأي بتاتًا. فأيّ إنسان هو كينونة خاصّة؛ خَلْقٌ يتبرعم من جوهر جديد. وأيّ متعلّقات بالجينات أو الوراثة أو التربية، ما هي إلّا إضافاتٌ لا تخصّ هذا الجوهر المتفرّد. وعليه، فقد تخلّصتُ من مشاعر الذّنب ولوم الذات، حين يتعثّر أبنائي في اختياراتهم، أو تعاكسهم الأقدار، أو حين يتألّمون أو يمرضون.

حين كبر الأبناء، تحوّلت العلاقة إلى تأمُّل عن بُعد؛ إلى حَوَمان لطيف، وليس تقصّيًا أو متابعة. تحوّلتُ إلى فُرجة على من يذهب ويأتي، ويأخذ ويَدَع، وينام ويصحو. فكلٌّ في فلك يسبحون. وأنا أسبح في فلك أمومتي المكتفية؛ الملتفّةِ على ذاتها؛ المتاحةِ حين الحاجة؛

المتلمِّسةِ للثغرات أينما ظهرت، كأنّي موكلة بإصلاح الكون ورتق ثقوبه!

كنتُ منذ عام في زيارة لباسل في مدينته الأميركيّة. دفعني إلى ذلك الاشتياقُ، والرّغبةُ في الخروج من دائرة الاكتئاب التي عاودتني حينها، والأملُ في تنشيط الحواسّ والذهن بعد ركود. حين تأمّلته، وهو يتحدّث أو يضحك، أو ينطلق إلى جامعته في الصّباح، أدركتُ ماذا يفعل الغياب والزّمن. هناك متغيّرات كانت تحدث في إبان الغيبة. اخشوشنت لحيته، وعمُق صوته، واستطالت أطرافه. تحوّرت شخصيّته، وتغيّر تفكيره؛ ذوقُه في الملابس؛ آراؤه في الأشياء. أفكّر في كلّ هذه المتغيّرات التي لم أشهد تشكّلها في إبان الغياب، وكيف عبَرَها باسل، الصّبيُّ الذي أصبح رجلًا، وحدَه من دوني!

أمضيت وقتي حينها، وأنا أطبخ له، وأباشر غسّالة الملابس، وأمسح الغبار عن مقتنياته القليلة المتفرّقة. وعوّلتُ، في جلساتنا المسائيّة، على ما يعنّ من أحاديث، قد تسدّ فراغات الغياب وتعبّئ ما فاتني من تحوّلات لم أشهدها. لكنّ أحاديثنا كانت قليلة ومتناثرة. أنا اعتدتُ الاختصار وقلّة الكلام، حتّى غدَوَا طبعًا متأصّلًا. وهو اعتاد الانصراف إلى اللّاب توب وتناول عشائه بصمت أيضًا. ولكنّ وجودنا على مقربة وتماس، سكب في قلبي دفئًا وسكينة، وغمرني بالغبطة. كان قد ترك لي سريره، واكتفى بحَشِيّة رقيقة يفرشها على الأرض. كنتُ أنام نومًا عميقًا حينها؛ نومًا بلا أحلام أو أرَق، كأنّي عدتُ طفلة لا يشغلها شاغل، ولا تطوف في رأسها الهواجس والأوهام.

لا أدري لماذا أسجّل لكِ هذه التّفاصيل؛ ربّما لأقول لكِ مَن أنا الآن. مشوار الأمومة، في كلّ مباهجه وأوجاعه، كان اختيارًا بلا شك، بالنّسبة إليّ أنا على وجه الخصوص. وعليّ أن أشدّ على قلبي بامتنان، وأرضى بكلّ ما منحني إيّاه هذا المشوار. مرض لينة، على الرّغم ممّا أصابني به من بلبلة في بداية الأمر، ثمّ ما تبعه من مكابدات الفهم، إلّا أنّه انتهى بنا إلى القبول والتّسليم، ولله الحمد. وهي، في رحلتها الشّاقة، لا تزال تناضل، وتتأقلم، وتحاول أن تجعل أيّامها أجملَ وأقلّ وطأة. وعلى الرّغم من وقوف أختها حاليًا في تقاطع طُرُق، في مجال المهنة، فإنّها تظلّ مصدر دعم معنويّ لنا جميعًا. ويكفي روحها الطليقة وضحكاتها التي تملأ البيت بهجةً.

يقولون، أو بالأحرى أنا أقول، إنّ الفتاة في سنّ العشرين تبحث عن رجل يحبّها. وفي سنّ الثلاثين تبحث عن رجل يهيّئ لها بيتًا. وفي

سنّ الخامسة والثلاثين تبحث عن رجل تنجب منه أطفالًا. إنُها السنّ التي تدقّ فيها أجراسُ غريزة الأمومة عاليًا، بل تدقّ بصخب جارفةً كلّ أحلام الحبّ وآمال العيش الرغد. هل تذكرين حين كنّا نجلس بصحبة لبنى ذات أمسية غابرة، وكانت حاملًا، لحظتها تحرّك جنينها، كما شعرتُ، فوضعتُ يدي على بطنها المنتفخ، وشعرت بتموّجات لطيفة لكائن صغير داخل كائن آخر، يعلنان معًا معجزة الخَلْق. ساعتها اهتزّ قلبي، وتيقّظ فيّ حلم الحبّ والبيت والأطفال. وحين كرّت السّنوات واستعصى الحبّ، وجدتُ نفسي ضمن الفئة الثالثة في التّصنيف أعلاه، فاخترتُ الأمومة. وكان عليّ أن ألتقط بذور الحُبّ كطير بَرّي، وأن أؤثّث حياة يمكن أن تترتّب على مهل.

الخلاصة التي وصلتُ إليها، أنّ الإنسان كائن بيولوجيّ، يتنفّس ويأكل ويتناسل وينمو ويموت. وطوال رحلة بقائه، يجد نفسه مدفوعًا بالفطرة نحو المحافظة على أمنه الجسديّ والعقليّ. يساعده على ذلك جملةٌ من الموصلات العصبيّة والإفرازات الكيميائيّة والهرمونات والأنزيمات. كلُّها تشتغل لتدفعه إلى المحافظة على هذا الكيان الحيّ واستكمال رحلة البقاء. من المؤكّد أنّ طبيعة العقل البشريّ، تجعله يتسامى إلى ما وراء الهيكل البيولوجيّ، نحو العاطفة والرّوحانيّة ومتعة التّفكير والحلم. ولكن أعتقد أنّ هذه التجلّيات هي في النّهاية وسائل وأدوات لتنبيه ما هو بيولوجيّ وغريزيّ فينا وتحفيزه. وحتّى أكون منصفة، وغير متورّطة في تشغيل الفِصّ الأيسر من دماغي فقط، أقول إنّ الإنسان في النّهاية، يمثّل معجزة الخلق في جانبيه، البيولوجيّ والرّوحانيّ. نرى ذلك في الحبّ، في الأمومة، في الصداقة، في الفنّ، في الأدب، والقائمة تطول.

كما ترين، هذه الرّسالة ليست ردًّا على إيميلك الأخير، ولكنُّها تداعيات أخذتني على حين غِرّة. ولعلّ العودة إلى الوقت الراهن في سياق حكايةٍ وأحداثٍ سالفة تجعلني أفكّر في السّؤال الذي غالبًا ما نوجّهه إلى أنفسنا: لو عاد بنا الزمن إلى الوراء، فهل سنكرّر سيرة حياتنا كما هي؟ أم نصطنع لأنفسنا حياة أخرى؟ وهو سؤال لا أستطيع الإجابة عنه، لأنّه غير منطقيّ أوّلًا. وثانيًا لأنّ «لو» أداة امتناع لامتناع، كما يقول النّحويّون. وحين بحثتُ في «غوغل» لأتأكّد من تعريف «لو»، قال لي: «يُستعمل «لو» في الامتناع أو في غير الإمكان، أي امتناع الجواب لامتناع الشرط». فنحن، إذن، نناقش في اللّاممكن والممتنع.

وعلى افتراض حدوث خلل كوني، أعاد ساعة الزمن إلى الوراء، كما نرى في خيال الأفلام الهوليووديَّة، فهل يا تُرى سنتعرَّف في البدء إلى ذاتنا السَّالفة وما كانت عليه، لننطلق بعدها إلى حياة أخرى؟ لأنَّ هذا شرط التَّغيير الوحيد. وإذا لم يتمَ التَّعرُّف، ودخلنا في ضباب فَقْدِ الذاكرة، إذن نحن في إزاء ذات أخرى ليست لنا! هكذا تتوالد التساؤلات والتَّخمينات التي تقود إلى الهلوسة لا غير. في الخلاصة، نحن نعيش حياة واحدة، تكمن قيمتها في هذا المزيج النِّسبيّ من النجاح والفشل، والسَّعادة والشَّقاء، وما بينهما من مكابدات الكدح الجميل.

عزيزتي...

سأستكمل في الأوراق التالية الحديث عن منال، في سياقها الروائيّ المتخيَّل. فقد تركتها آخر مرَّة وهي جالسة في المقهى الهادئ، صامتةً تتأمَّل فيما قاله ياسر وفيما تخبئه له الطريق الصَّعبة، تاركةً شعاعَ العصر ينسكب على خصلة شعرها، ثمَّ ينكسر تحت قدميها، ويتلاشى رويدًا رويدًا في العتمة الزاحفة. لا أفضِّل تحديد الزمن، ولكنَّه يقارب السَّنوات الأخيرة المتبقِّية من عقد الثمانينيَّات.

إلى أن نعاود

الوصل، ابقي بخير.

منال مسيَان

الكويت، 15

شباط/فبراير

2018م

نهارات الآحاد تبقى هي الأوسع مدًى أمام منال لتستيقظ على مهل، وتتعهّد شؤونها المنزليّة الصغيرة. تلمّ الملابس للغسيل؛ تتفقّد أصص الزرع المتناثرة؛ تجلو الزجاج. هكذا تحبّ أن تكون الأشياء حولها حيّة وناصعة، تشعرها بأمان المكان ودفئه وتناغمه مع تصوّرها لمعنى البيت. في أحلامها، تتكرّر مشاهد لبيت باذخ وحميم، يسحر القلب بأبهائه وزواياه، كأنْ لم يُبنَ له مثيلٌ في طاقته المتدفّقة بالبهاء. يُوحى إليها في الحلم بأنّ هذا بيتها.

في الواقع، ليس لها غير هذا الامتداد المكاني، في شقّة صغيرة تطلّ على شارع هادئ، يتفرّع من «بيز ووتر» في قلب مدينة لندن. أثّثت المكان بما يشبهها من مقتنيات، تلبّي الحاجة من جهة، وتُرضي فيها الذّوق الجماليّ المريح من جهة أخرى. لوحات؛ نباتات؛ منمنمات صغيرة؛ مكتب يُعين على العمل بلياقة؛ أريكة تتيح إمكانيّات الاسترخاء والكسل بكفاءة، والأهمّ إضاءة جانبيّة مريحة للنّظر والمزاج.

اليوم الأحد، وهو كآحاد نهاية الرّبيع، ممتلئ بالضوء والشمس. هكذا تتعرّى الشمس وتكشف عن نحرها البهيّ منذ إطلالة شهر مايو إلى نهايات أغسطس. هذا إذا لم يغلبها الغيم على أمرها في أيّام متفرّقة، فيرشّ الرذاذ إلى أن يضجر فينقشع. الأحدُ عادة ما يكون للترئّض في المتنزّهات الخلويّة؛ للتأمُّل؛ للكسل؛ للفرجة على الفنّ التّشكيلي والمنمنمات المعروضة على أسوار «الهايد بارك»؛ للمرور على سهام أو نجوى للثرثرة أو تناول فطور متأخّر.

هذا الأحد دعاها ياسر إلى الفُرجة على ركن الخطابة في «هايد بارك». قال إنّ هناك سببين للدّعوة، غير الاشتياق طبعًا. أوّلهما رغبة جنى في دعوتها شخصيًا، وبشكل مباشر، إلى عيد ميلادها الذي سيحلّ قريبًا. وثانيهما رغبته هو في حضورها في ركن الخطباء، للاستماع إلى بعض الزملاء من المعارضة، الذين أعدّوا بعض التّرتيبات للخطابة عن «الحرب العراقيّة الإيرانيّة: بواعثها وآثارها». قال إنّه متحمّس جدًا للدّفع بهذا الموضوع إلى الواجهة، لعلّه يعبّر عن الرأي المقموع، الذي لا يمكن المجاهرة به إلّا في هذا الركن الدّيمقراطيّ العريق.

حين التقيا على أحد المقاعد الخشبيّة أمام كشك المأكولات الخفيفة، بدت جنى منوّزدة بالمرح. لا تكاد تبتعد إلّا لتعود فتلتصق بأبيها،

كأنَّ وجوده بات محور كونها الصَّغير وضياءه. لم يخفَ على منال تعلُّق جنى بياسر في ظلّ غياب أمِّها، كأنَّها قمر صغير يحوم حول أرضه الوحيدة. وجود الطفلة في ذلك اليوم الضاجّ بالضوء ويقظة الطَّبيعة، أدخل في قلب منال الغبطةَ والأنس، وربَّما أيقظ فيها أشواق الأمومة وعبقها، فأقبلت على الفتاة الصَّغيرة بكلّيتها، تداعب، وتصغي، وتستجيب.

تقدَّمت جنى، بإيعاز من ياسر، بدعوة منال إلى عيد ميلادها الحادي عشر، والذي سيصادف منتصف الأسبوع. قالت إنَّها لن تحصل على الكثير من المدعوِّين هنا، لأنَّ أترابها ورفيقات المدرسة في أمستردام. وعليه، فلن يزيد عدد المدعوِّين على أصابع اليد الواحدة، ولكن لا بأس ما دام «بابا» موجودًا. قالت إنَّهم سيحتفلون في ركن صغير في «ماكدونالدز»، الواقع في بداية شارع أكسفورد. وأشارت بيدها الرَّقيقة إلى الناحية التي يقع فيها المحلّ عن بعد، كأنَّها ترغب في المزيد من التأكيد.

بعد الانتهاء من تناول السندويشات الخفيفة، اتَّجه الثلاثة ناحية ركن الخطباء، حيث بدأت الجموع تلتمّ حول منصات متفرِّقة. أحدهم يخطب عن التَّفرقة العنصريَّة في جنوب أفريقيا. وثانٍ يحمل صليبًا خشبيًّا وينادي «الغُصاة» لاتِّباع طريق «المُخلِّص». وثالث خفيض الصوت يتلعثم بإنكليزيَّة ركيكة، لم ينجح في استقطاب أحد. قبل أن يحمى وطيس الخطابة، التمّ أفراد من زملاء ياسر ومعارفه، يتبادلون الأخبار، ويعلّقون، ويسرّون إلى بعضهم البعض بأحاديث جانبيَّة، إلى أن حان وقت اعتلاء أحدهم المنصَّةَ التي نُصِبت بشكل مختصَر، يتيح للمتحدِّث أن يعلو بارتفاع متر تقريبًا فوق المتجمهرين. لم تتعرَّف منال إلى المتحدِّث، الذي بدا لها أنَّه من خارج الأسرة الجامعيَّة، ولكنَّه كان على معرفة متينة بياسر.

كان الجمع يرنو إلى الخطيب، الذي أظهر براعة في الاستهلال، ثمَّ في تفنيد الحجج على عبثيَّة الحرب، ثمَّ باستحضار الشواهد والأمثلة على المآسي التي لحقت بالعراق والعراقيِّين على وجه الخصوص. تحدَّث عن الفواتير الباهظة التي يدفعها العراق جرَّاء استمرار الحرب؛ عن الكلفة العسكريَّة؛ عن تدمير البيئة؛ عن تقهقر التنمية؛ عن خلخلة البنية الاجتماعيَّة الناتجة من التَّهجير والتَّجنيد التَّعسُّفي؛ عن مجزرة الدجيل والإعدامات العشوائيَّة. كان يتحدَّث بالعربيَّة والإنكليزيَّة، فيمزج بينهما، أو يتناوب عليهما تباعًا. المتجمهرون من زملائه كانوا يعقبون بحماسة؛ يصفِّقون عند كلّ وقفة؛ يطلقون صيحات التأييد والدعم. وعلى الجانب الآخر، التفت مجموعة أخرى من العراقيِّين والعرب، وكانت مهمَّتهم

الوقوف ضد هذا الخطاب المندّد. صفّروا استهجانًا، وأطلقوا اعتراضاتهم على «الخونة»، وقدّموا حججهم على حماية البوابة الشرقيّة، ووقف تصدير الثورة الإيرانيّة. أشادوا ب«قادسيّة صدام»، ونددوا ب«الفرس المجوس». واحتدمت الملاسنات، والمناظرات، والتّخوين، والمزايدات على حبّ الوطن. كانت الصّدامات الكلاميّة ساخنة وحادّة، وبقيت في إطار المخاطبات الكلاميّة، من دون تجزؤ على ما هو أكثر من ذلك، في حضور قوات الأمن البريطانيّة. وبدا أنّ الفرقاء كانوا على وعي بما يوفّره المكان من حرّيّة المجاهرة بالرأي، ومن مساحة الدّيمقراطيّة المتاحة في ظلّ القانون الذي يحمي الجميع.

تفرّقت الجموع، وذابت الكلمات في الجوّ. الكلمات الغاضبة؛ الكلمات المُرّة؛ الكلمات المموّهة بالحنين. كلُّها انعقدت في الهواء كزوبعة، ثمّ تبخّرت، لتنثني القلوب بعدها على ضيم أو شفقة أو انتظار. لوّحت منال لياسر وجنى عن بُعد، ثمّ انطلقت نحو رياضتها المفضّلة، وهرولت بحذائها الرّياضيّ مبتعدةً نحو الأفق الأخضر. عوّلت على أن تقطع «البارك» من «ماربل آرتش» إلى «كينزنغتون غاردنز» مشيًا أو هرولة، ثمّ تنعطف في نهاية اليوم نحو حيّها حيث تقيم. استعادت كلّ الكلام الخشن والعقلانيّ الذي سمعته في ركن الخطباء منذ قليل، واسترجعت ملامح ياسر التي كانت تضجّ بحيويّة نادرة، وهو يتابع ما يُقال. ينفعل؛ يحتقن وجهه بالأحمر؛ يهزّ رأسه استحسانًا؛ يرتحل وراء الكلمات المتوهّجة إلى بغداده ودجلته وأبيه الجالس في العصر تحت ظلّ نخلة. تستطيع الآن أن تقرأ ملامحه ولغة جسده وإيماءاته بيُسر. تكاد تدرك ما سيقوله في الجملة التالية. متى سيغادر إن كان جالسًا، واللّحظة التي سيُقبل بها إن كان آتيًا. هكذا تتشكّل خريطة من المعرفة الحدسيّة. ترسم أمامها أبعاده وهالته ورؤيته للأشياء. حين يفكّر؛ حين يعبّر عن دواخله؛ حين يحيل الهموم والقضايا إلى لغة مكتوبة، والأوجاع إلى صندوق السرّ، والغضب إلى صوت متهدّج، والحُلم إلى الممكن.

في اليوم التالي، عرفت منال أنّ ما قيل في ركن الخطباء، لم يكن كلامًا عابرًا، بل هناك شبه اتّفاق بين «المتحدّث» وياسر، على تأكيد وجهة نظرهما السياسيّة، عبر وسيلة أخرى عدا الخطابة الشفهيّة. لم تكن الكتابة والنشر بجديدين على ياسر، وهو الذي اعتاد تكريس جزء من وقته للكتابة، سواء في شؤون تخصّصه العلمي، أو الشأن العام. فهذا يحقّق له هدفين: إرضاء شغفه في التعبير عن شؤون الساعة، وتحسين وضعه

المالي بما يجنيه من مراسلة الصحف والمجلّات المتخصِّصة.

أدركت منال أنَّ للمشهد بقيّةً، حين التقاها ياسر عند مدخل المختبر في القسم العلميّ. أخبرها بأنّه يحمل في الظرف مقالةً مطوَّلة عن وضع بلاده الراهن، ورأيه فيه، وأنَّ ما قيل في ركن الخطباء كان من تحضيرهما معًا، هو وصديقه «المتحدِّث». ثمَّ أردف بأنَّ لكلّ منهما دورَه. الصديق يُحسن الخطابة، وهو يُحسن الكتابة. وما دام الصديق قد أدّى دوره، فالدّور المقبل سيكون له. هزّ في يده الظرف المغلَق، وأكمل بأنّه في صدد نشر المقال في صحيفة عربيّة محايدة: «الشرق الأوسط»، أو «المدى العربيّ». المقال مكتوب وجاهز، ولا ينقص غيرُ طابع البريد. رَنَتْ منال إلى وجهه في عتمة الممرّ المختلطة بنور «النيون» الواهن. رأته متحفِّزًا، في صوته رنين الظفر، وإنْ رانت على ملامحه علاماتُ من سهر البارحة. قرأت تعب عينيه الدّاكنتين واللّتين استحالتا إلى الزيتيّ الغامق، وهو يستدرك اندفاعه. نوّه بأنّه يخشى أن يتأخّر مقاله في البريد، أو يتوه بين إدارات الصحيفة، أو يذهب إلى المحرِّر الخطأ. أطلق مخاوفه كأنّه يستنجد برأي منال، التي توجّهت إليه بكلّيتها مصغيةً، ومتمهِّلةً في استيعاب خشيته والتّعامل معها برجاحة.

قفزت نجوى إلى خاطرها بشكل مباغت. سبق لياسر أن رآها وتعرَّف إليها سلفًا، في معرض الكتاب، ثمَّ في ندوة عامَّة. اقترحت منال أن تقوم نجوى بمهمَّة استلام المقال وضمانة نشره. فهي تعمل في صحيفة «المدى العربيّ»، ولها معارفها ووسائطها الكُثُر. ارتاح ياسر إلى الفكرة، وأثنى على الاقتراح. سلّم الظرف إلى منال لتمرِّره إلى نجوى شاكرًا، وأصرَّ على أن تقرأه قبل التّسليم، فرأيها يهمُّه، كما يُسعده أن تكون قارئته الأولى. لمعت عيناه بمحبّة، فعاد إليهما الألق على الرّغم من التعب. اتَّكأ على الحائط البارد، ونظر إليها مليًا، كأنّه يدفع عن ظهره البرد بحضورها قربه وفي معيّته. مسحت منال على الظرف المغلق، وألصقته بصدرها. حركتها ولغة جسدها كانتا معبّرتين، أو لعلّهما جاءتا بتلقائيّة محضة، وهي تستشعر تيّارًا مغناطيسيًا يدبّ بينهما ويحوك حولهما دوائره. مدّ كفّه نحوها إعرابًا عن مصافحة شكر، أو ربَّما توقًا إلى ملامسة، لن تجود الوقفة المتوتِّرة والمكان بأكثر منها. كانت كفُّه غامرة بالدّفء، وكفُّها مستسلمةً كفرخ يأوي إلى عشّ مكين. غمرها بنظرة «زيتيّة» أخيرة. ابتسمت لنظرته السّابحة بماء أخضر شفيف، ثمَّ هربت بنظرتها إلى البعيد، كما يحدث لها دائمًا حين يباغتها الخجل فتستسلم له صاغرة. حتّى وهي في أوجها، ترى نفسها مسيَّجة

برصانة سمجة تُثقل كاهلها، وتقف سدًا منيعًا دون الانطلاق والارتخاء أمام نظرة عامرة بالمعنى، مثل تلك. حين دلفت إلى معملها كان المكان قد خلع جهامته وروائح محاليله، وارتدى خضرة حقول ليس لها نهاية.

في المساء، جلست تقرأ أوراقه تحت ضوء جانبي، واستغرقت فيها. لم تخرج الأفكار الأساسيَّة عمَّا سمعته في ركن الخطباء، ولكنَّ الصياغة كانت متوهِّجة بالرَّفض لكلّ ما يحدث، وبالرَّغبة في التَّغيير، وبالتَّوق إلى صناعة واقع أكثر إنسانيَّة وديموقراطيَّة. رأت في كلماته كيف يتشكَّل الرأي المعارض، وكيف يبني قاعدته مدعَّمًا بالحقائق والشهادات والأرقام، وكيف يعبِّر عن رؤيته للمستقبل. قرأت الأوراق مرَّة ثانية، ثمَّ ثالثة. تلمَّست الجَمرة المتَّقدة بالمعاناة، وكيف تربض تحت الكلمات وتشعّ بالغضب المكبوت. تحسَّست روح ياسر المعلَّقة بوطنه من نياطها. فهمت اندفاعه وإيمانه وتطلُّعاته المشروعة، وأشفقت على تلك الآمال في واقع فقير ومبتلى بالطغيان. تركت الأوراق ترقد فوق سطح المكتب، ونهضت تُعِدّ لنفسها شرابًا دافئًا، يزيح عن قلبها برودة الخوف. حضنت الكوب السَّاخن بين كفَّين باردتين، وأطرقت تلاحق هالة الضوء المرسومة على السقف، تتَّخذ شكل دوائرَ وأقواسٍ. الدَّوائر التَّامَّة والأقواس المفتوحة كانت آخر ما تذكَّرته، في جلستها المسترخية على الأريكة الطويلة والوثيرة، قبل أن تسقط في حضن الغفوة.

رأت الأوراق تغادر الطاولة، وتحلِّق كسرب من الأجنحة، ورقةً في إثر ورقة. حين ركضت تصطادها عبر النافذة، لمحت ياسرًا يطير وراءها، وقد تحوَّل جسمه إلى شيء يشبه الغيمة المستطيلة. مدّ ذراعيه نحو الأوراق المتطايرة في الرِّيح، فتحوَّلت إلى خيوط وضفائر مجدولة أشبه بالحبال. ياسر يمسك بطرف الحبل الذي كان ورقة، فيُسحَب إلى الأعلى. يغوص في فضاء بعيد ويختفي. تنظر هي إلى الأرض فترى فردتي حذائه وكتابًا. بدأت السَّماء تمطر بغزارة. تبلَّلت بالماء حتَّى عظامها. نظرت إلى فردتي الحذاء وقد امتلأتا بالماء وفاضتا. تعفَّر الكتاب بالطين، وطفت الفردتان كقاربين صغيرين. كان المطر في كلّ مكان يهدر بلا توقُّف. وحين ازداد نقره فوق رأسها، تنبَّهت من غفوتها مذعورة.

كان كوبها قد فرغ من الشاي، وامتلأ رأسها بالهواجس. تستعيد رسم الحُلم الغريب صورةً صورةً. لم تتحرَّك من مكانها خشيةَ تطاير الصّور نحو التلاشي. تريد أن تتمعَّن في الأوراق المتطايرة التي تحوَّلت إلى حبال مجدولة؛ في جسم ياسر الذي تحوَّل إلى غيمة واختفى؛ في المطر

وفردتي الحذاء والطين والكتاب. ماذا يعني ذلك كلُّه؟ وهل كان الكتابَ ذاته الذي كان يحمله ياسر ويُطيل النَّظر فيه يوم المعرض. «تاريخ العراق المعاصر» كان العنوان حينها، ولكن في الحُلم لا يظهر شيء على الغلاف، غير البلل والطين. وماذا يعنى الحذاء الفارغ إلَّا من الماء الذي أغرقه وفاض؟ أغمضت منال عينيها، واستعاذت من خواطرها الجامحة. لمّت الأوراق المبعثَرة وقرَّبتها من وجهها، كأنَّها تلاحق مجاري الحبر، وتشمّ رائحة الأنفاس وهي تلهث وراء الحروف، إلى أن تفرغ من وطأة الأفكار والتعب، فتضع النُّقطة الأخيرة.

طال سهر منال تلك اللَّيلة، وهي تقوم وتقعد، ثمَّ تلوب مشتَّتةَ الأفكار في دوائر المكان وإنارته الخافتة. تنظر مليًا إلى الورقة الأخيرة، وإلى اسم الموقِّع أدناه: «ياسر عبد الهادي أعظمي»، يتمدَّد ناصعَ الوضوح. فكَّرتْ في شجاعة من يضع اسمه بارزًا، في ذيل مقال مثل هذا، يفضح ويعرِّي واحدة من أعتى دكتاتوريات العصر، ثمَّ لا يبالي! يقوم بعدها بالنشر في صحيفة سيَّارة، في عاصمة أوروبيَّة تعجّ بالعيون والجواسيس، من دون أن يبالي أيضًا. هل هذه شجاعة، أم تهوُّر؟ فكَّرت في البدائل المتاحة لشباب ورجال مثل ياسر. بدائل يمارسون من خلالها أدوارهم، ويحقِّقون ذواتهم، فلم تجد ما يجيب عن تساؤلاتها. جلست للمرَّة الأخيرة إلى الأوراق، وقد عزمت على أمرٍ بدا لها عسيرًا في البدء، ثمَّ استجمعت رباطة جأشها ونفَّذته بلا تردُّد.

فرشت الصفحة الأخيرة. مسَّدتها على سطح المكتب حتَّى استوث. أدنت عبوة السَّائل الأبيض ذي الرِّيشة الرَّقيقة، الذي تستعمله في تصحيح الكلمات حين الطباعة. اكتسبت مهارة تصحيح الكلمات المطبوعة على آلتها الكاتبة. تظلِّل حرفًا أو امتداد كلمة، لتتمكَّن بعدها من تنضيد حرف آخر فوقه بيُسر. تأمَّلت في الاسم المستلقي أمامها بخطّ اليد «ياسر عبد الهادي أعظمي». كُتب بحروف واضحة ومَيَلان جانبي، ينبئ بوضعية اليد في أثناء الكتابة. أمَّا المسافات بين الحروف فقد كانت كافية لتنفيذ فكرتها، التي ازدادت إلحاحًا وتوتُّرًا. أمسكت الرِّيشة وظلَّلت الياء ثمَّ السِّين في «ياسر». تركت اسم «عبد الهادي» كما هو، ثمَّ ظلَّلت همزة الألف ونقطة الظاء وحرف الميم في «أعظمي». انتظرت وقتًا كافيًا ليجفّ السَّائل الأبيض، تاركًا لها المسافاتِ المظلَّلةَ فارغةً ومقلقة. تعرَّقت يداها وتسارعت أنفاسها، وهي تمسك بقلم الحبر لتملأ الفراغات بحروف أخرى: ع؛ م؛ و. لم تحتج إلى غير ثلاثة حروف ليتحوَّل اسم الموقِّع أدناه من

«ياسر عبد الهادي أعظمي» إلى «عامر عبد الهادي عطوي». تمويهٌ رأته كافيًا لدفع ضرر محتمل. وعليها بعد ذلك أن تتعايش مع عصف المشاعر المتضاربة التي تكالبت عليها من دون رحمة.

صباحُ اليوم التالي كان مُنهِكًا من بدايته. رشّت منال وجهها بالماء البارد، ثمّ تأمّلت في المرآة مساراتِ القلق الباديةَ في عينيها وفكّها الهابط إلى الأسفل. عاودتها صورة الحروف «المزوّرة»، فانقبض قلبها كأنّه بين فكّي كمّاشة. شعرت بغثيان خفيف، عاجلته بقهوة بيضاء، لعلّها تعدّل المزاج، وتمرّر اليوم بأقلّ الخسائر على المستوى المعنويّ. لا مجال للتّردّد الآن، فقد هاتفت نجوى باكرًا، خشية أن تنهزم أمام مخاوفها، لو أجّلت المكالمة إلى حين. ستلتقي نجوى بعد نصف ساعة من الآن في محطّة «بوند ستريت»، التي يتقاطع فيها مسارُ قطاريهما. الظرف لا يزال في حقيبتها. تتلمّسه كأنّه لغم. تهتزّ يدها المستلقية عليه مع اهتزاز القطار المنطلق. تتمنّى لو غابت عنها الأشياء فجأة؛ لو أنّ القطار لا يصل؛ لو أنّ نجوى تضيع في المحطّات أو تعود أدراجها؛ لو أنّ صحيفة «المدى العربيّ» تتوقّف عن الصدور؛ لو أنّ ياسرًا لم يسلّمها الظرف؛ لو أنّها أصيبت بالخرس ولم تقترح عليه التّوسّط لتوصيله. يا للفطنة المُهلِكة! ماذا تفيد «لو» الآن؟

تنهزم كلّ تمنّيات «لو» الحمقاء. تلتقي نجوى على عَجَل وتسلّمها الظرف، فتطمئنها بأنّها ستقدّم المقال بنفسها إلى إدارة التّحرير، مع التّوصية بالاهتمام، وأنّ أولويّة النشر مضمونة. هزّت منال رأسها المشوّش علامةَ الشكر، وهي تجاهد لتبدو ممتنة، على الرّغم من الشحوب الذي ران على ملامحها وصوتها. المهرولون على رصيف المحطّة، روائحهم، زحامهم، تصادماتهم التلقائيّة، إيقاع العجَلة الذي يلفّ المكان، كلّها بدت لها شاحبة وبعيدة، كأنّها آتية من زمن آخر. بينما تقف هي وسط دخان أفكارها متهافتة وباردة كتمثال شمع. انطلق قطارها مرّة أخرى، وهي تسند رأسها إلى اهتزازاته المتواترة. شعرت بأنّها طفلة موضوعة في مهد. وها هي تُهَزّ وتتأرجح لتنام. طفلة لا تفقه ما تفعل. اختلطت في قلبها مشاعر الحبّ والذّنب، والصواب والخطأ، وتناثرت أمامها أعواد الكبريت، وهي مجرّد طفلة تلعب بها.

كان على سهام أن ترتّب حياتها من جديد. حصولها على وظيفة في السّفارة العربيّة، لا يعني أنّها تنوي أن تحصر تطلّعاتها في حدود ذلك. في روحها وجسمها تضجّ طاقة لا تدري من أين تأتيها. هل فترة الكمون الأخيرة كانت وراء هذا التدفّق الحاز وشهوة الحياة التي تفاجئها الآن؟ تشعر بأنّها ركنت كلّ المزعجات القلبيّة والرّوحيّة على رفّ ما في الذاكرة، وتوجّهت إلى أفق آخر. ربّما ستعاود النّبش في هذه المخلّفات لاحقًا، وفرز الصالح منها للتأسّي والصعود درجةً نحو النموّ الذاتي، ولكن ليس الآن.

لديها الآن هذا المكتب الصّغير الهادئ، المطلّ عبر استطالة النافذة على أسوار «هايد بارك» من جهته الشرقيّة. يمكنها أن تشاهد في الصباح الباكر الخيول البيضاء، يأخذها سائسها للتدرّب اليومي على الهرولة. وعلى مقربة ملعب الأطفال وأراجيحهم وأمّهاتهم من ربّات البيوت اللّاتي لا يهرعن صباحًا للّحاق بالعمل. ولو وقفت على الطرف الأيمن للنافذة ونظرت بزاوية حادّة إلى جهة اليسار، لأمكنها أن ترى جزءًا من نصب الأمير ألبرت الباذخ، المتربّع على حدود «كنسنغتون غاردنز». يمكنها الآن أن تبدأ صباحها بمزاج آخر. هدوء السّفارة، وأناقة أجوائها، ولطف موظّفيها، والتّنظيم الإداري المريح... كلّ ذلك أخذها إلى طقس آخر يختلف عن إيقاع العمل الشريع في البنك، وربكة المراجعين، والنّظام الصارم الذي يحكم المؤسّسة الماليّة.

كانت طبيعة عملها تهيّئها للتّعرّف إلى شبكة العلاقات التي تربط السّفارة العربيّة بالحكومة البريطانيّة ومؤسّساتها العامّة والخاصّة. مجال أتاح لها أن تقترب من مرافق حيويّة، كالإعلام، والصّحافة، والجامعات، والمعاهد العلميّة، والمؤسّسات الصّحيّة والماليّة والقانونيّة... إلخ. فلكلٍّ من هذه القطاعات مكاتب وأقسام تتوزّع عليها، وموظّفون بمراكز دبلوماسيّة يتولّون إدارتها، وطواقم من العاملين ومعظمهم من العرب يُعينونهم في مهامهم. كان نصيب سهام أن تنضمّ كسكرتيرة لمكتب الملحق الثقافي. ولعلّه المكان الأنسب لفتاة ناضجة، اكتسبت مهارة العلاقات العامّة والدبلوماسيّة بشكل تلقائي وفطريّ، قبل أن تتدرّب عليها في أجواء السّفارة ودهاليزها. كلّ مهامّها غدت هيّنة بعد ذلك. تعاملُها مع طلبة الجامعات المبتعثين؛ إعدادُها تقاريرَهم السّنويّة؛ تنظيمُها المؤتمرات العلميّة؛ تواصلُها مع عمداء الكليّات البريطانيّة ومراسلاتها لهم؛ إعدادُها المذكّرات وجداول الأعمال التي يطلبها رئيسها. حضورها معه الاجتماعات

لكتابة التّقارير أو الترجمة.

حين تعود سهام من عملها في السّفارة عصرًا، تجد لديها متّسعًا من الطاقة والوقت لتنفيذ ما يعبُر خاطرها من رغبات طموحة. صلتها بالدكتور عبد المنعم منذ قدومها إلى لندن بقيت مستمرّة، بل أضحت لازمة من لوازم الصداقة التي كانت تتأسّس على مهل منذئذ. كان عبد المنعم، ولا يزال، صخرتَها المعنويّة فيما يخصّ طموحها، علميًا وحياتيًا، بوجه عامّ. تأسرها معارفه الغزيرة؛ شخصيّته كأب روحي ليس لها فقط؛ وإنّما لكلّ مَن حوله من طلبة ومعارف؛ انفتاحُه وثقافته، ثمّ دوره في تأسيس النادي الثقافي العربي، وتشجيعها وغيرها من الصديقات على الانخراط في أنشطته وندواته. بفضله وتذليله الكثير من الصعوبات، أمكن لها أن تدرس الترجمة الفوريّة، بعد أن احتسب حضورها «فُل تايم» على الرَّغم من كونها موظّفة تعمل صباحًا، ولكنّها تجتهد في الحضور والأداء بقيّة اليوم. أكبَرَ فيها التفاني والإصرار، ففتح أمامها بوابات الفرص للتّعلُّم، ودفعها برفق وفهم نحو أمانيها. كانت تتطلّع، من خلال إتْقانها العربيّة والإنكليزيّة وشيئًا من الفرنسيّة، إلى أن تعمل بالترجمة الفوريّة في الأمم المتّحدة. طموح كان يكبر في قلبها على مهل، ويئزّ في رأسها كنحلة تتوق إلى الرَّحيق. حين تقدّمت للوظيفة الحُلم، لم تسعفها لغتها الفرنسيّة التي لم تصل إلى درجة الإتقان.

لكنّ سهامَ عاودت الحَوَمان حول نبع آخر، تسدّ فيه فراغ ما يتبقّى من وقتها، وتعزّز فيه مهاراتها ودخلها الماديّ. هكذا جاءتها فرصة أخرى لتدريس اللُّغة العربيّة للدبلوماسيّين الأجانب غير الناطقين بالعربيّة. وكان الفضل في ذلك يعود إلى الدكتور عبد المنعم الذي آمن بقدراتها ودفعها إلى تجريب التّدريس، مدعومة بمهارات كافية باللُّغة العربيّة المكتوبة والمحكية. وهذه التجربة سوف تفتح أمامها فرصًا مستقبليّة أخرى، فيما يخصّ تدريس العربيّة لأبناء الدبلوماسيّين العرب. فرص ستأتي في وقتها المناسب لاحقًا، وفي زمنها المناسب حين تستجدّ الظروف وتتغيّر الأحوال.

هي الآن مسترخية عقلًا وروحًا. أجواء الزمالة في السّفارة تُشعرها بأجواء الأُسرة الواحدة. الأدب الجمّ في التعامل؛ رُقيّ المراجعين؛ سلاسة الإجراءات الروتينيّة؛ التسامح فيما لا يضرّ بسير العمل بشأن هفوات غير مقصودة؛ التّكرُّم على الموظّفين بالدّعوات إلى الاحتفالات والمناسبات التي تقيمها السّفارة، حالُهم حالُ كبار دبلوماسيّيها، بل خصّهم بالإكراميّات

والهدايا الرّمزيّة في أوانها. ولعلّ أكثر ما أسّس لروح الأسرة الواحدة، تكليفها من قبل رئيسها بمطالب خاصّة تُشعرها بالبُعد الإنساني لما تقوم به، كطلب إرسال زهور في مناسبة ما، أو تكليفها بشراء هديّة لزوجته: إيشارب أو عطر، أو التّحدّث إلى مديرة المدرسة في شأن يخصّ أبناءه، أو الاطمئنان على مريض من معارفه. كانت تؤدّي هذه الطلبات بأريحيّة ومحبّة، لأنّها تُخرجها من جهامة العمل الرّسمي، وتأخذها إلى زاوية حميمة تخصّ العلاقات الإنسانيّة، التي تشكّل حجر الزاوية في شخصيّتها. وكان هو يقابل جهودها بالامتنان، ويضيفها إلى رصيد خبراتها الوظيفيّة.

مرّت سنوات قليلة، استقرّت خلالها سهام في هذا الطقس الحياتي المريح. ساعاتها منذ الصّباح حتى العصر في السّفارة. والمساء، خلال ثلاثة أيّامٍ متفرّقة في الأسبوع، في كلّيّة «بوليتكنيك» مدرّسة لمادة اللّغة العربيّة لغير الناطقين بها. وما بين هذا الوقت وذاك، كانت تعيش حياتها كما اعتادت: تستقبل ضيوفها؛ تطبخ؛ تخرج للنّزهة أو التّسوّق؛ تصغي إلى آهات أروى ومشاكل سميحة وتطلّعات نجوى ونكد فايزة ومستجدّات منال. يوسف لا يزال يتواصل معها بعد زواجه وانتقاله إلى أطراف لندن في شقّة متواضعة. أضيفت الآن فاطمة زوجته إلى قائمة الصديقات، وأمكن لها الآن أن تستشير سهامَ في بعض شؤونها، أو حتى تزورها متى شاءت.

أمس، اتّصلت بها نجوى من مصر، حيث تُمضي إجازتها. بعد ثرثرة قصيرة، حوّلت نجوى السّماعة إلى أمّها لإزجاء السّلام والتحيّات. بدا صوت الأمّ متهافتًا وهي تشكو إلى سهام متغيّرات نجوى وتحوّر شخصيّتها بعد الحجاب. وهمست في أذنها بأنّ نجوى تلحّ عليها و«تزنّ على دماغها»، لإلزامها بارتداء الحجاب. ثمّ أردفت: «والله يا بنتي أنا بتخنق من لبسه... ما اقدرش». فهمت سهام بقية الشكوى. استرجعت صورة الأمّ وهي تقف في البلكون، بين طيورها الدّاجنة وشتلات الفلّ والريحان. تُطلق شعرها الجميل للرّيح، وتغمض عينيها مستسلمة للمتعة الوحيدة في حياتها الفارغة من المعنى.

تضع سهام السّماعة بعد كلمات مواساة وتعاطف لا تدري إن كانت في مواضعها الصحيحة، وهي ترى نفسها تقف بلا حيلة بين نجوى المتقلّبة الأهواء، وصوت أمّها البعيد المتهافت. تلوذ بنفسها في نهاية المساء، وتفكّر في ترتيب أشيائها الصّغيرة في المكتب، قبل أن تنطلق في إجازتها المستحقّة بعد فترة من العمل المتواصل. لا بدّ من تنسيق بعض الأوراق

والملفَّات، والتوصيةِ على معاملات الطلبة الذين تمَّ تسجيلهم وقبولهم في الكلِّيَّات للفصل الدِّراسيّ القادم. لا بأس في بقاء بعض المتعلِّقات الشَّخصيَّة في أماكنها المعتادة: صورة عائليَّة؛ حزمة أقلامها وأدواتها المكتبيَّة؛ كوب قهوتها الخاص؛ الإناء الكريستاليّ بقطع الشوكولاته المغلَّفة؛ مفكِّرتها التي كادت تمتلئ بالملاحظات والمواعيد والأرقام الدائمة والموقَّتة. هذه أشياء ستبقى في أماكنها. إجازتها إلى البلد لن تتعدَّى أسبوعين. وسرعان ما ستعود إلى أشيائها الأليفة، لتجدها في أماكنها.

ستُعِدّ أيضًا قائمة بمشتريات بسيطة لأختيها، ولأطفال شقيقها الأوسط وائل. تتخيَّلهم يهبطون مسرعين من شقَّتهم في الطابق العلويّ، ما إن تدخل بيت العائلة، ليُحدثوا ذلك الصَّخب المحبَّب والذي يملأ سكون المكان، وخصوصًا بعد وفاة أبيها، وبقاء الأختين وحيدتين في الطابق الأرضي، تلوذ كلٌّ في غرفتها معظم ساعات المساء واللَّيل. حين يُتوفَّى أحدٌ في العائلة، يحدث ذلك الخلل في روح المكان. تظلّ بعض الزوايا شاغرة. يتغيَّر ترتيب الأثاث. تخرج أشياء وتدخل أشياء. يختلف الروتين اليومي، وتصبح الأحاديث تذكُّرًا واستعادة وصورًا معلَّقة فوق الحائط. ستفتقد أباها حتمًا هذه المرَّة بالذات. لن يستيقظ باكرًا، ويسعى إلى قهوته المُرَّةُ. لن يعتمر كوفيَّته وعقاله المِزعِزَّ، ويخرج لجلب الحليب والجريدة اليوميَّة. لن يسألها: «يابا... إنتي باقية هون؟ ولّا راجعة كمان مَرَّة؟». لن يجلس ليكتب إليها رسائل تتوجَّس منها، فترجئ قراءتها إلى حين. أبو رياض مات. واختفى وجهه الرَّصين وملامحه المحايدة، التي لا تقول إلَّا أقلّ القليل، تاركةً المعنى مكنونًا في قلب متكتِّمٍ منكفئ على ذاته.

تمنَّى لها مديرها إجازة سعيدة ومريحة، ثمَّ لمَّح في تضاعيف كلامه إلى إمكانيَّة حدوث بعض المتغيِّرات في مراكز العمل، وخصوصًا له هو. فهناك حركة تدوير وإحلال قادمة. ثمَّ طمأنها إلى أنَّ ذلك يخص المراكز الدِّبلوماسيَّة فقط، وليس موظَّفي السِّفارة. وأنهى إشارته بالثناء على جهودها ونصاعة ملفّها الوظيفيّ، وسعادته بالتعاون معها. وعلى الرَّغم من الكلام المشجِّع، فإنَّ سهام سافرت وفي رأسها جملة من التساؤلات الغامضة عمَّا ستكون عليه الأوضاع لاحقًا. لم تفهم التَّلميحات التي يبدو أنَّها كانت لا تزال قيد الإعداد والتَّحضير، ولكن قلبها كان يركن بثقة إلى إنسانيَّة مديرها وتأثيره في الجسم الوظيفيّ للسِّفارة.

عادت إلى إربد كمرَّات سابقة. وكمرَّات سابقة تظلّ تصفعها المتغيِّرات. ليست متغيِّرات المكان البطيئة حدّ الضجر، ولكن متغيِّراتها

هي. متغيرات رؤيتها للأشياء هناك. بَعُدت الشقة بينها وبين الناس، الذين يبدون لها الآن أكثر بساطة وبراءة. لم تعد تلتقي معهم في شيء سوى الدّماء والملامح ربّما، وسوى اللّهجة التي تشتاقها وتجاربها بما تملك من أريحيّة أصيلة. لم يعد هناك كلام يقال أو أحاديث تمتدّ على مهل. المشتركات تقلّصت في حدود النحايا وصور ذكريات باهتة عن الحيّ والمدرسة وجيران أغلقت دونهم الأبواب. الأصدقاء تغيّروا وكبروا، أو ارتحلوا مثلها إلى أصقاع أخرى. والصويحبات تزوّجن وأنجبن وباتت تفوح من أعطافهن روائح الأمومة والطبخ ومهارات قراءة الفنجان والتّميمة. والمدينة صَغرت في عينيها وضاقت أحياؤها على قُدر كف اليد! حتّى بيتهم بات أضيق وأصغر منذ أن اقتُطع منه البستان. وتمّ رصف شارع إسفلتي يمرّ تحت عتبة باب المدخل تمامًا، ويكاد يدخل غرفة المعيشة.

باتت تحتاج إلى وقت أكثر حتى تندغم مع طقس المكان؛ حتى ترتّب حجرتها الصّغيرة بعد طول هجران؛ حتى تُخرج ملابسها القليلة على مهل؛ تعلّقها في الخزانة الوحيدة؛ تشمّ رائحة قديمة لما تبقّى من نفتالين وُضع في زوايا حُجرة مهجورة، لا تأتيها صاحبتها إلّا لمامًا. تأخذ محفظة مستحضرات النّظافة والكريمات إلى الحمام المشترك. تهيّئ لها رفًّا صغيرًا يخصّها، وتدير زرّ سخان الماء، وتنتظر. ليس هناك مغطس كبير تملأه بالماء الدافئ وغسول اللّافندر، وتنام فيه لتغسل تعبها وترخي مفاصلها المتوتّرة. في حمام البيت المشترك، عليها أن تستحمّ سريعًا وهي تقف تحت «الشاور»، ثمّ تخرج قبل أن يطرق الباب طارق. كيف نسيت ذلك كلّه؟

ليس الحمام المشترك هو الأمر الوحيد الذي عليها أن تعتاده حين العودة، أو بالأحرى تستعيد تعوّدها عليه، إذ ليس في بيت العائلة ما يخصّ فردًا دون اخر. كيف لها أن تنسى أنّها كانت تشارك أختيها في غرفة واحدة، وتشارك أسرتها في غرفة المعيشة وملحقاتها، وتشارك الجميع في أوقات الوجبات، وفيما يُطبخ من أكل ويُجلب من مؤونة. والآن، عليها أن تشاركهم أيضًا حتى في الهاتف الأرضي، وأن تعتاد الردّ على مكالمات لا تخصُّها هي فقط، بعد أن ذابت كينونتها في محيط لكلٍّ فيه نصيبٌ وحِصّة.

سيتقاطر الأصحاب وأبناء العمومة ما إن يعلموا بعودتها في إجازة. من الممكن أن يفاجئوها في الصباح الباكر أو بعد العصر أو مساءً، هكذا من دون سابق إنذار. سيدخلون حاملين أشواقهم وفضولهم، وفائضين بتلك

التلقائيّة النادرة، كأنّها لا تزال في نظرهم بنت الجيران أو بنت العم، التي تلعب معهم في البستان أو تعود وإيّاهم من المدرسة. ستنتهي الأحاديث بعد دقائق من السلامات والسؤال عن الأحوال والغربة، ثمّ تطول فجوات الصّمت والنظرات الفارغة، التي سيتحايل عليها الحضور برشف القهوة والسّؤال عن الطقس في لندن، وعن إيجارات الشقق، وعن ابنٍ يدرس في مدينة نائية هناك، وكأنّ لها دالّة أو سببًا يربطها بكلّ من يطأ الأرض البريطانيّة.

ربّما يأتي نجيب أيضًا مصطحبًا زوجته وابنه الذي ناهز العاشرة الآن. سيجلس الاثنان قبالتها كما في مرّة سابقة. هو يتحدّث في السّياسة وأحداث الساعة، موجّهًا حديثه غالبًا إلى أخيها وائل. وقد يخصّها ببعض الالتفاتات السّريعة، منتظرًا موافقتها على ما يطرح حين يحتدم الجدل. لم يختفِ من وجهه الوَلَه القديم، ولكنّه بات يحتال عليه بالتّجاهل والتّظاهر بنقيضه. فباتت ملامحه في نظرها اعتياديّةً، وعيناه فارغتين من الألق، وشاربه أكثر كثافة. في المقعد الآخر، ستنظر إليها الزوجة بفضول كما اعتادت في كلّ زيارة، كأنّها تنقّب في وجه سهام وأعطافها عمّا لفت انتباه نجيب فيها، فأحبّها ذلك الحبّ الذي بات أمره متداولًا في العائلة. هي رضيت أن تتزوّجه على الرّغم من علمها بقصّتهما التي انتهت. بدت لها سهام الآن مسالمة وأليفة. تراهما يتحدثان كقريبين معتّقين، ليس بينهما غيرُ فراغٍ لطيف هشّ تعزّزه صلة الدم والرّحم. تنظر إلى ابنها وهو يجول في المكان، ثمّ تهشّ على أفكارها الجانحة، بشأن فرضيّة أن يكون الطفل ابنًا لسهام مثلًا، لو قُدِر لقصّة الحبّ أن تنتهي بالارتباط. سيشربون القهوة المُرّة كما يحبّونها، ويقضمون «البرازق» والبقلاوة. وستنتهي الأمسيّة بالقفشات والنكات. وسيصافح نجيب سهام مودّعًا بعد الزيارة الوحيدة الواجبة، وستحضنها الزوجة بحنان مباغت، كأنّ بينهما عشرةً وعهدًا مستحقّين.

ستأوي سهام إلى فراشها لاحقًا بعد انتهاء السهرة. لا تدري لماذا لم تستبدل هذا السّرير إلى الآن. فرشة السّرير المفرد الذي لا يزيد على مترين طولًا ومتر وربع عرضًا، لم تعد ترحّب بنزوعها إلى التمطّي والاسترخاء، ولا تسمح برفاه الوسائد المتناثرة تمدّ فوقها ساقيها وذراعيها، وتُلقي برقبتها كيفما اتّفق لتتلقّفها الحشايا الناعمة. تفتقد سريرها العريض هناك. وكلّما فكّرت في استبدال هذا السّرير هنا، تتراجع وتتعلّل بقصر مدّة الإجازة، ثمّ تلغي الفكرة برمّتها، حين تستوحش المكان الذي أصبح مشاعًا، وأصبحت

هي مكتفية بذاتها وملتفة على أناها في مكان آخر.

استعادت وجه نجيب، وصوته الذي أصبح أكثر عمقًا، ونظراتِه التي لم تعد تعني لها شيئًا، اللّهمّ إلّا متابعة تسلسل حديث عام، يسكبه في فضاء غرفة المعيشة، ثمّ يخرج كأيّ زائر آخر يؤدّي واجبًا اجتماعيًا ضمن طقوس العائلة. تتحسّس كفّها التي عصرها ذات يوم، وترك فيها وريقة منقوشة بكلمات حبّه. تسترجع وجهه المحتقن وأنفاسه المتسارعة وشرارات عينين عاشقتين. تتساءل كيف خمد ذلك كلّه، في خيالها، وتبخّر وانطفأ. لم تكن، بسنواتها الغضّة آنذاك، تدرك هذا الاشتعال. وربّما لم تتهيّأ بعد لفهم معناه. كانت خائفة فقط. هذا ما تتذكّره؛ خائفة ومضطربة وموزّعة الفؤاد. أمّها تُشعرها بالخزي حين اكتشفت صورته تحت وسادتها. عمّتها تتنحى بها جانبًا لتلقي في روعها محاذير الاقتراب من أسرته التي لن تتجانس معها. أخوها يترك لها حرّيّة الاختيار من دون عون. وهي ترى نفسها ملتفّة بجوّ من الغموض والغيوم. لم يعد يتحرّك شيء في دمائها بعدئذ. كأنّها أطفأت صباها وألقت به وراء النسيان، فلم تعد للّمسة جذوةٌ، ولا النّظرة ترجف بها عرقًا. تحوّلت إلى كيان معطّل جمّده الخوف، فما عاد ينبض برغبة أو رفيف.

سيرة الحبّ تفتح في رأسها دهاليز ملتوية. من أحبّها أيضًا في ذلك الزمان غيرُ نجيب؟ تغمضُ عينيها وتستلقي، آملة في غفوة مفاجئة تكنس غبار التذكّر. وجدت نفسها تغالب ضحكة كادت تطفر من حلقها. طافت بمخيّلتها الواهنة صورة «أبي رزق»؛ جارهم في آخر الشارع، والذي حوّل حجرة من بيته تطلّ على الشارع العامّ إلى محلّ لبيع الأحذية. كانت كلّما قطعت الطريق من أمام محله عائدة من المدرسة، ممتلئةً بالابتسامات السّخيّة، تطلقها في الهواء بلا عدّ، تجده واقفًا عند باب المحلّ كأنّه ينتظرها. يهمس إليها بوَلَه: «بدّي أقرص هالخدود وأفرك هالشفايف فرك». عاودتها الضحكة المكتومة. وتساءلت إن كان هذا لونًا غليظًا من الحبّ والإعجاب؟ ثمّ تخيّلت «أبا رزق» الآن بعد عقدين من الزمن، بكرش متدلٍّ، وصلعة تفترش رأسه المربّع الضخم. هل من الممكن أن يكون «أبو رزق» من مسبّبات خوفها من الحبّ أيضًا؟

فتاة مثلها في مطلع ثلاثينيّاتها، لا بدّ من أن تمعن في تحليل هواجسها. حين ارتبطت معظم صديقاتها أيّامَ عملها في الكويت أو تزوّجن، ظلّت هي وحيدة. هل كانت تصدّ مَن هم حولها من دون وعي؟ أم أنّ جذب الرّجل يحتاج إلى استعدادات ومهارات لا تتقنها؟ هي الفتاة الرّصينة

المحافظة، والتي لا تُخسن إرسال النّظرات الواعدة، ولا يليق بها الغنجُ والتدلُل. حتى ضحكتها كان لا بدّ لها من أن تُقنَّن ولا تنزلق نحو المحظور. أمًا الكلام، ففي حدود اللّباقة. واللّبس في حدود المحتشم والمقبول. والأنوثة في إطارها المحدّد باللُّطف والتأدُّب. كأنّها ترى أمّها أمامها الآن تُملي عليها الشروط المتعارَف عليها للفتاة طبقًا للتربية والتّقاليد! لا تدري إن كان من التّقاليد أيضًا، تنفيرُ الفتاة من الزواج؟ أو تقليلُ أهمّيّته وأثره؟ أو هكذا خُيّل إليها وهي تسمع أمّها تستنكر الزواج الذي «ما وراءه إلّا الهمّ»، على حدّ وصفها؛ أو وهي ترى خالاتها وقد تقدّم بهنّ العمر من دون زواج، فانكفأنَ على العمل الإنساني، أو الحنوّ على أطفال الأقارب ومراعاتهم.

لم يبقَ من تساؤلاتها، وهي على وشك الدخول في نوم مضطرب، غيرُ التساؤل عمّا إذا كان الحبّ والزواج يحتاجان إلى جهد شخصيّ يُخطّط على مهل؟ إلى حِيَل وأنوثة وغنج؟ إلى تقصير التنّورة، وتوسيعِ فتحة البلوزة، وجعل أحمر الشفاه أكثرَ بريقًا، وتخلٍّ عن الرّصانة وسَفت اللّياقات التّقليديّة التي اعتادتها؟ أم أنّهما «قسمة ونصيب» وقضاءٌ مقدّر؟ وهل كانت، في يوم ما، على استعداد للدُّخول في التّجربة بقلبٍ جَسور وفطرة متوقّدة؟ أم أنّ مخاوفها القديمة ستظلّ حيّة، تلاحقها في كلّ منعطف؟ تقلّبت في السّرير الضيّق، وأدرات وجهها نحو الحائط الذي وقف سدًّا منيعًا دونَ استرسال المزيد من التّساؤلات، فتجفدت الصُّورة الأخيرة في سلسلة استرجاعاتها عند يوسف، وهو يجثو عند ركبتيها، ويمسح بذراعها وجهَه متهدّجًا. ثمّ كيف مسحت على رأسه، وخرجت تلك الكلمة الوليدة المحيّرة: «أنا أيضًا أحبّك»! هل حقًّا كانت تحبّه؟ وما هو هذا الحبّ المباغت الذي يطفر كدمعة خجول؟ ثمّ يداهمه الهلع فينكمش كخنفساء صغيرة انقلبت على ظهرها. تتحسّس الآن موضع قلبها، وكأنّها تطمئنّ على دقّاته التي عادت إلى رتابتها، نبضةً فنبضة، تهدهدها برتابة ممزوجة بانتظام أنفاسها، فتنسلّ روحها نحو غفوةٍ، فنوم عميق بلا أحلام.

لم تكن سهام تعلم بأنّ إجازتها في البلد ستطول أكثر مما خطّطت له، وأن تلك الإطالة ستكون مضمّخة بالأحزان والفَقد. كانت عائدة من عمّان في نهاية يوم دافئ ملأته الشمس صخبًا وضوءًا، بعد زيارة مستحَقّة لصديقة عزيزة تقيم بالعاصمة. ما إن انعطفت بها سيّارة الأجرة نحو رأس الشارع الذي يقع فيه بيتهم، حتى رأت سيّارة إسعاف تغلق أبوابها على عَجَل، وتنطلق مع صوت بوقها نحو الطريق العامّ. كان باب بيتهم مشرَعًا،

وعاملة المنزل تدخل وتخرج على غير هدى، وإحدى أختيها واقفة في وسط صالة المعيشة تُدير قرص الهاتف، ثمّ تدخل في حديث متقطّع ولاهث مع الطرف الآخر، وقد أولتها ظهرها. كان المشهد سورياليًا، وهي تنهض من سيّارة الأجرة وتترك بابها مفتوحًا. لا تدري إن كان عليها أن تنادي العاملة، أم تدلف إلى الداخل، أم تُنقد السّائق أجره، أم تعود من حيث جاءت هربًا من مشهد بغيض وغامض. ستعرف بعد دقائق أنّ سيّارة الإسعاف تمّ استدعاؤها من أجل أخيها وائل. كان قد عاد من العمل ودخل ليغتسل، ثمّ سقط على وجهه فوق البلاط البارد. تشخيص المسعف الأوليّ أفاد بأنّها جلطة دماغيّة مفاجئة. وفي المستشفى سيمكنهم معرفة التّفاصيل.

حين تقدّم المساء، كان وائل يرقد في غرفة العناية الفائقة، والعائلة تتوزّع على مقاعد معدنيّة باردة في الرّدهات. الزّوجة منكفئة على وجه شاحب ودموع حائرة. الأخوة واجمون يتبادلون كلمات مقتضَبة. سهام تقطع الردهة بين حين وآخر متحفّزة لظهور أيّ من الهيئة الطبّيّة، لمعرفة المزيد عن وضع المريض. تدير في رأسها الصور الأخيرة، حيث يجلس وائل ملء إهابه وحيويّته، يجادل نجيبًا في الوضع السياسيّ المأزوم بين الفصائل الفلسطينيّة واللبنانيّة. يرنّ صوته في فضاء المكان فيملأه حياة ولونًا. وهذا الصباح، رأته يُقِلّ طفليه إلى المدرسة. يحمل عنهما الحقائب ويُجلسهما في المقعد الخلفيّ للسيّارة، ثمّ ينطلق. كانت صفحة وجهه اليسرى وراء نافذة السيّارة، هي آخر ما رأته منه. ثمّ تراءت لها يدان صغيرتان في الخلف تلوّحان لها مودّعتين، قبل أن تدلف إلى سيّارة الأجرة التي أقلّتها باكرًا إلى عمّان. ليتها تركت سيّارة الأجرة تنتظر، وركضت خلف سيّارته كطفلة صغيرة، وصرخت تناديه ليعود. لن تهتمّ حينها بالغبار المتطاير أمامها، ولا بدخان العادم ينفث في وجهها. ليته يعود فقط! ليته!

لكنّ وائلًا لم يعد إلى البيت بعدها. هو عاد، ولكن في صندوق، وليس سعيًا على قدميه. أقيمَ العزاء، والتمّ الناس والأقارب في مجلس العزاء حتى فاض. جلست سهام، وإلى يمينها ويسارها أختاها. كانت كأنّها مغلّفة بغيمة؛ إذ لا يزال الموت مجرّد سؤال معلّق. زوبعة لا تزال تدور وتصخب وتلكمُ القلب بقبضة من حديد بارد. تمدّ أصابعها الحادّة كسكّين لتحفر وراء شيءٍ ما، ثمّ تترك تلك الفجوة الفاغرة. ثمّ تأتي الريح لتنفخ في تلك الفجوة ولا تملأها. وائل كان أصغر منها سنًا. كيف يمكن له أن يموت؟ طفلاه يلوبان حول أمّهما المتّشِحَةِ بالسّواد، كأنّهما أيّامه القادمة

التي خلعها قبل أوانها. تنظر سهام إلى وجه أصغرهما الذي يشبهه أكثر، بعينين محمَرَّتين وأنف ملتهب، وتعاودها اللَّوعة. كان في مثل سنّ طفله، حين ضربه رفيقه، فانقضّت على الرفيق تُنجد أخاها. وفي اليوم التالي عضَّها وائل في ذراعها عضَّة قاسية، لأنَّها لم تُتح له الفرصة لأن يدافع عن نفسه بنفسه! والآن، تجلس في عزائه خاويةً من الحيلة، لا تستطيع أن تدفع عنه الموت، ولا يستطيع هو أن يدفعه عن نفسه بنفسه، كما ادّعى.

هذا البيت شهد عزاءات سابقة. أرواح خرجت منه ولم تَعُد. تباغتها أوَّل صور العزاء، وأوَّلُ صور الموت، حين كانت لمَّا تزل في صباها الباكر. تقف عند رأس جدّها الذي يحتضر. تطلب منها الراهبة الموكلة بتفقُّده في اللَّحظات الأخيرة، أن تنقِّط في فمه قطرات من الماء بملعقة. وحين توقَّف عن بلع القطرات، سألتها الراهبة أن تضع كفَّها أمام أنفه وتستشعر إن كان ثمّة أنفاس. وحين أجابت بالنَّفي، التفتت الراهبة إلى المتحلِّقين في غرفة المحتضر وأعلنت: «العمر إلكو». كان أبوها يحتضن رأس أبيه في حينها، وهو يتلقَّى قطرات الماء الأخيرة. وحين أعلنت الوفاة، رأت أباها يذرف الدُّموع لأوَّل مرَّة، بينما التف الآخرون، من رجال العائلة برصانتهم المعتادة، وأقبلوا يعزّون بعضهم بعضًا.

كان البيت والشارع قد غصّا بالناس باكرًا منذ إعلان احتضار الشَّيخ، فأتوا أفواجًا للقيام بالواجب. نُقل الجثمان إلى وسط المجلس، في أوسع مساحة في البيت، بعد أن تمّ إعلان الوفاة في أنحاء إربد والقرى المجاورة، حيث يتوزَّع الأقارب وأبناء العمومة. سيَبيت جثمان الشَّيخ تلك الليلةَ في بيته، وسيحاط بالشموع، ويُرَش بماء الورد والكولونيا، إلى أن يتمّ التَّحضير للجنازة، ووصول سائر المعزِّين. توزَّعت النّسوة في غرف البيت وردهاته حتى ملأن الأمكنة، يردّدن ما تعارفن عليه من ندب ومَراثٍ، أو إشادة بخصال الميْت. وبين هذا وذاك، كن ينقطعن إلى فاصل من الراحة يملأنه ببعض المزاح والحكايات والأحاديث الجانبيَّة، ثمّ يعدن إلى الندب من جديد.

قبل نقل الجثمان، سيتمّ تحضير التابوت، والحرص على فرشه ببطانة ليِّنه، وتغطيته بالقماش الفاخر من الخارج. وسيُجهَّز المتوفَّى بأفخر ثيابه. ألبس الجَدّ «قمبازًا» تقليديًا أنيقًا، وكوفيّة وعقالًا، ولُفّ بعباءة من وبر الجمل. وقف «الخوري» يرش على الجثمان الماء المقدّس ويتلو تراتيل الجنازة، قبل أن يُغلَق النَّعش، ويُحمَل إلى مثواه. مرَّت الجنازة في الطريق، يتبعها المشيّعون بصمت مطبق، لا يُسمَع خلاله غيرُ حفيف الخطى

والأنفاس المتردِّدة بخشوع. وكلَّما مرَّت الجنازة بدكانٍ أو متجرة أم مخبز، سارع أصحابها إلى إغلاق محالّهم، والانضمام إلى المشيّعين من دون إبطاء. يُدفَن المتوفَّى طبقًا للطقوس المتعارف عليها، ويعلن «الخوري» لجموع المشيِّعين أنَّ مكان «غداء الرَّحمة» عن روح الميِّت، سيكون في بيت المتوفَّى وما حوله من بيوت عمومته في الحي. هناك سيتوزَّع الرِّجال والنساء على بيوت العمومة، كلّ على حدة. وستفوح روائح طبخ لحم الضأن، ولبن «الجميد» في البستان والأحواش الخلفيَّة. وسينكبّ الأقربون رَحِمًا وصلة على القدور والنيران، يتعاونون في الطبخ والإعداد والتَّحضير لوليمة العزاء، متضامنين بهمَّة لا تفتر. ستخرج «صدور» وصواني «المناسف» المطهوَّة باللَّحم والأرز واللَّبن، تنفح الأبخرة، في طريقها إلى موائد المشيِّعين. تُمدّ الأيدي إلى غداء الرَّحمة، في مجالس الرجال وغرف النساء، داعين للميِّت بحُسن المآل وقبول الربّ روحَه الطَّاهرة.

يغرب اليوم الأوَّل بعد الدفن، ليستمرّ العزاء لليوم الثالث، ثمّ التاسع، ثمَّ يستمرّ إلى أربعين يومًا بالطقوس ذاتها، ومناسف الطعام العامرة، والقهوة المُرَّة التي لن تتوقَّف عن الدَّوَران. سيَبيت الأقربون رحمًا في بيت العزاء، موزَّعين كيفما اتَّفق على غرف البيت ومرافقه، مستعينين بما يتوفَّر من مستلزمات النوم والرَّاحة لأربعين يومًا متواصلة. سيفرغ البيت خلالها ممَّا تمّ تخزينه من مؤونة الفطور، من لبنة وجبنة ومكدوس وزيتون، وستتسارع بيوت العمومة المجاورة لتقديم مزيد من الإمدادات، بما تقتضيه أعراف الواجب وصلة الرَّحِم. سترينُ أجواء الفقد في المكان، وسيرتدي أهل الميِّت الأسود حدادًا على روحه، وسيمتنعون من الغُسل والاستحمام لأربعين يومًا كما تقتضي الأعراف. وحدها سهام ستتسلَّل إلى الحمّام كل يوم لتغتسل كعادتها، غير عابئة بالغمز واللمز اللذين تُطلقهما النسوة من حولها، ثمَّ تجلس بينهنَّ ملتفة على نفسها ببراءة لامبالية. ستدور حكايتها في العائلة، وسيتذكَّر بعضهنَّ بعد ثلاثين عامًا لاحقة، أنَّ سهامَ «يا عيب الشوم» استحمَّت بعد وفاة جدِّها بيومين.

سيعود المعزّون إلى الكنيسة في اليوم الثالث، لإحياء قُدّاس صعود الرُّوح. وسيجهّزون صينية القمح المسلوق، «السليقة»، المرشوش بالسكّر الأبيض الناعم، والمزيَّن بعبارات طلب الرحمة للميّت. وستوزَّع «السليقة» على الحضور في أكواب وكؤوس بعد الصلاة حين المغادرة. وستُسمَع همهمات الترحُّم على الميت تباعًا. وفي بيت العائلة، يتمّ تجهيز «خبز

الرحمة» المعجون بالمستكة، ويُقدَّم للضيافة مع الشاي والقهوة المُرّة.

تسترجع سهام شريط الصُوَر الموغلَ في التذكُّر، وهي جالسة في عزاء وائل؛ الفقيد الذي سيخرج من البيت ذاته الذي شهد عزاء الجَدّ قبل ما يقارب عشرين عامًا مضت. الآن اختلفت الحال. لن تشمّ رائحة لحم الضأن ولبن «الجميد» يُطبَخ في البستان، بعد أن تمَّت الاستعاضة الآن بمناسف المطاعم الجاهزة. لن يتحوَّل البيت إلى خانٍ للمعزِّين، يَبيتون فيه ويقومون ويقعدون طوال أيَّام العزاء، بعد أن بات العزاء يُقام في صالات خارجيَّة مهيَّأة ومُجهَّزة لمناسبات كهذه، ومخصَّصة للجنسين، كلّ على حدة. اختُصرت «الأربعون» إلى ثلاثة أيَّام فقط، ولم يعد أحد يُكلَّف فوق طاقته، فيما يتعلَّق بالمؤونة أو الخدمة، بعد أن استقلَّت كلّ عائلة بمصاريف عزائها. فكَّرت سهام كم تتغيَّر الأحوال، وتدور الأيَّام، ويظلّ الموت باقيًا لا يتغيَّر. لملمت شتات أفكارها وما تبقَّى من دموع، ودخلت لتستحمّ.

بعد ثالث يوم عزاء، أجرت سهام مكالمتها الخارجيَّة مع مقرّ عملها في السّفارة. أخبرت مسؤول الموظَّفين هناك، بأنّ إجازتها ستطول أسبوعين آخرين، بسبب وفاة أخيها في المقام الأوَّل، وضرورة ترتيب أمور عائليَّة بعد الوفاة، في مقامات لاحقة.

الساعة العاشرة صباحًا. الهاتف يرنّ بإلحاح على طاولة القهوة، ومنال ترقبه بانقباض، وهي تقرفص في غرفة معيشتها، غيرَ عابئة بشعاع الشمس الذي يتسلَّل برخاء عبر شيفون السّتارة. لن يكون صباحًا كسائر الصّباحات. هكذا تهجس منذ أكّدت لها نجوى أنّ مقال ياسر سوف يُنشَر اليوم في صحيفة «المدى العربي». بعد أن كثر الرّنين، تحاملت منال على نفسها والتقطت السّماعة بيد مضطربة. كانت نجوى على الطرف الآخر، كأنّها متحفّزة للانقضاض: «ما بتردّيش ليه»؟ بادرتها باستنكار، ثمّ أردفت بأنّها تتّصل للحصول على تفسير عاجل فيما يخصّ المقال المنشور. «الدنيا مقلوبة» في مكتب مدير التّحرير، قالت. وياسر اتّصل بالجريدة مندهشًا وغاضبًا. «أنا برضو مش فاهمة»، قالت. ثمّ أكملت: «أنا استلمت منك المقال، هو كان لياسر ولّا لأ؟».

كانت منال صامتة، وهي تتلقّى سيل التساؤلات. ثمّ تمالكت نفسها، وسألت عن الوضع حاليًا. أعادت نجوى على مسمعها فحوى ما حدث، وأنّ ياسرًا اتّصل مستنكرًا أن يُذيَّل المقال باسم مستعار غير اسمه! وأنّه طالب مدير التّحرير بإعادة نشر المقال باسمه الحقيقي، إلّا أنّ طلبه رُفض لعدم مسؤوليّة إدارة التّحرير عن ذلك، مع وعد بنشر تنويه يشير إلى صاحب المقال الحقيقي لا غير. «بس أنا لسه مش فاهمة»! واصلت نجوى بنفاد صبر، ثمّ أكملت: «ممكن تفهميني؟»، مستحضرةً ما أصابها من توبيخ في إدارة الجريدة، بسبب ما جرى من سهوٍ لم يُعرَف المتسبِّب به إلى الآن.

حين لم تستوعب نجوى ما حدث من إرباك، وجدت نفسها تُغلق خطّ الهاتف أمام كلمات منال المتضاربة، وتذهب إليها مباشرة. «أنا جاية حالًا»، قالت. احتاجت منال إلى الكثير من رباطة الجأش لتفسّر ما حدث، والكثير من الاعتذار لترد الاعتبار إلى نجوى، التي وجدت نفسها في خضمّ مشكلة في دائرة عملها لم تكن طرفًا فيها. اتّسعت عيناها، وهي تستمع إلى تبرير منال لمسألة تزوير اسم ياسر في ذيل المقال. «إنتي إتجننتي؟»، «في حدّ يعمل كده»؟ أمام استنكار نجوى، وجدت منال نفسها تتهالك على الكنبة، التي لطالما استوعبت مناعبها اليوميّة وتقلّباتها وهواجسها. شعرت، وهي تطيل النّظر إلى وجه نجوى المحتقن، بأنّها تسيح تحت شمس حارّة، أو تُهرَس بين فكّي كمّاشة، وأنّها غارقة في بركة من الماء والوحل، كالتي رأتها في حلمها قبل يومين.

تمنَّت أن تظلّ نجوى معها بقيّة اليوم؛ ألَّا تخرج وتتركها وحيدة كطفلة ضائعة. تمنَّت أن تتجمَّد اللَّحظة، وتظلّ غائصة في حضن الكنبة. جفَّ حلقها، وارتخت أطرافها، وعاجلتها هبّة ساخنة تنذر ببداية حمّى. استسلمت لدبيب الحرارة يشعّ من رأسها، وتعرَّقت، وارتجفت. حين قاربت الثانية عشرة ظهرًا، تحاملت على نفسها، واتَّصلت بموظَّف المعمل في الكلّيَّة، تُنبئه بأنَّها ستتغيَّب اليوم بسبب وعكة صحّيَّة، وتطلب منه توصيل اعتذارها إلى مشرفها العلمي، قائلةً إنَّ النتائج المفترض تسليمها اليوم، ستتأجّل قليلًا ريثما تنتهي من إعدادها وترتيبها.

بعد هذا الاعتذار عن عدم الذهاب إلى العمل، أحسَّت منال بأنَّها في بحبوحة من العزلة، وأنَّها تستطيع أن تمرض كما تشاء، وتكتئب كما تشاء، وتُنهك نفسها بالتَّفكير والتَّأنيب إلى أقصى مدى. انتهى النهار وأتى المساء ولم يتَّصل ياسر. لم تستغرب ذلك. فلعلَّ إقرارها بما حدث قد وصله بطريق مباشر أو غير مباشر من إدارة الجريدة أو من نجوى، أو ربَّما خمَّنه بنفسه. وهذا الصمت المريب له دلالاته. تمنَّت فقط أن تكون نجوى قد ترفَّقت بها، وهي تفسّر «فعلتها» السَّمجة، وفهمت ما وراءها من نيَّات. فنجوى، بما اختبره قلبها من منغّصات الحبّ وإرباكاته، قادرةٌ على فهم ما يعتمل في القلوب، وما يفيض عن طاقتها في التحمُّل، فتنحو نحو الحماقات وسوء التدبير.

مضت ثلاثة أيَّام من الغياب والصمت والحمّى. لم تستطع منال خلالها أن تتحامل على نفسها لمباشرة عملها في الكلّيَّة. لم تستطع أيضًا أن تحمل جسدها المتداعي، وتذهب إلى سهام التي عادت منذ يومين من الأردن، وتعزِّيها بوفاة شقيقها. اعتذرت لها برسالة هاتفيَّة على «الأنسرينغ ماشين». مساء اليوم الثالث، كانت سهام تقف أمام «الإنتركم» تطلب الدُّخول والاطمئنان على المريضة. أخرجت من كيس تحمله علبةَ دواء خافض للحرارة، وشوربةَ خضار جاهزةً في علبة كرتونيَّة. بعد أن اطمأنَّت إلى تناول منال حبَّتي الدَّواء، توجَّهت إلى المطبخ تسخِّن الشوربة، وتفتح النافذة للهواء الطلق.

كانت منال في حاجة إلى ذلك القُرب الأليف، يشدّ أزرها ويطرد البلادة من المكان. لم تشجّعها سهام على الاسترسال في تأنيب الذات. بدلًا من ذلك، عليها أن تفهم جوهر تصرُّفها، ومسبّباته ودوافعه، ثمَّ إلامَ سيؤدِّي. ما دار بينهما كان حوارًا مسترسلًا يحلِّل ويعلِّل ويُطلق الأسئلة، أكثر من أيّ شيء آخر. كان السُّؤال الأكثر إلحاحًا هو: ما الذي يعنيه ياسر

لمنال؟ وما هي طبيعة تلك الصّلة؟ اختارت منال في وضع إجابة دقيقة عن السّؤال الأوّل. هي التي لم تعطِ نفسها الحقّ في امتلاك أحد قطّ. حتى المشاعر القلبيّة العميقة، لم تكن في رأيها تعني أنّ لها الحرّيّة في أن تسيّج الآخر بسياج التّملّك. وعليه، فياسر نفْسٌ حرّة، تقاربها متى ما أتاحت نفسها، وتلتزم المسافة الفاصلة متى ما تطلّب الأمر ذلك. هل هناك عواطف وتجاذبات روحيّة؟ نعم. ولكن يظلّ لياسر وضعه المعقّد، وأحواله العائليّة، ومعاناته من عدم الاستقرار، ونشاطاته المحفوفة بالمخاطر. هذه الأمور قد لا تكون موانع للتعلّق القلبي، ولكنّها لا تؤسّس للصّلات الرّخيّة المطمئنة.

أمّا الإجابة عن السّؤال الثاني بشأن طبيعة الصلة، فمنال لا تزال مشوّشة الخاطر. هناك في قعر روحها شيء ما يُشعرها بأنّها ليست مهوى لآمال أحد. لا تمتلك الكفاية ربّما؟ لا تملك الشّروط؟ على الرّغم ممّا هي عليه من اعتزاز بالذّات واستقلاليّة. إذ يبقى للحبّ حساباتٌ أخرى واعتبارات لا دخل لها بالاعتزاز بالذّات. ما الذي يربطها بياسر؟ لا شيء، سوى أهواء غائمة، وتجاذبات مترددة، ومخاوف غامضة، ووعي متوقّد بواقع فاقع. هو سينتهي من بحثه العلمي في غضون أشهر قليلة. ولا تدري ما الخيارات المتاحة أمامه. بقاؤه في لندن؟ أم لحاقه بابنته إلى هولندا؟ أم عودته إلى العراق؟ وهي، لم يتبقّ من مدّة بعثتها المتاحة لخمس سنوات غير عام واحد، تعود بعده إلى بلدها حالما ينتهي العقد التنازلي، وتتوقّف الرّواتب، ويستدعيها جهاز الخدمة هناك. هكذا هي، لم تُخلَق للأحلام، وأوهام اليقظة، ولا تصدّقها.

حين فكّرت في أحوالها بعد عام من الان، أخافتها الوحدة. استوحشت من الغرفة الوحيدة في الطابق الثاني في بيتهم هناك؛ من ملامح أبيها المجعّدة الجامدة؛ من لامبالاة زوجته، وهي تسحب عباءتها وتنطلق في سيارتها «الفورد». استوحشت من البيت الذي تقشّرت أصباغه وتشقّقت رفوف نوافذه، وانتفخت بلاطات حوشه وبرزت كأسنان متراكبة، من دون أن يوجد من يهتمّ بترميمه وانتشاله من غبار الإهمال. تشفق على الوقت الذي سيتمطّى باهتًا مملًا، يهاجمها في كلّ إجازة تُمضيها هناك بلا معنى، غير إعادة اكتشاف الضجر مرّة بعد مرّة: من أيّام الصيف المعبّأة بالرّطوبة والوهج، وصوت مكيّف الهواء ينفث القشعريرة؛ من الأسفلت يلهث تحت عجلات السيّارات، يسلّمها إلى طريق مكرّر بلا بهجة.

انثنت على قلبها تعزّيه برقّة، وتهش على أفكارها كأنّها تهش على سرب من الغربان. لا تريد أن تستسلم لليأس والقنامة. هي لا تزال تلاحق

الضوء؛ تتبع حدسها؛ تجتهد؛ تتفاوض مع الحياة؛ تتنازل؛ تهيّئ نفسها لتعيش بالمتاح والممكن. ما يُتعبها هو الوقوف في منعطف بلا حراك كفزّاعة طيور، تتراكم عليها الأوراق اليابسة وتنساها الأيّام. باتت تخاف الأماكن القديمة والمهمَلة كبيتهم، لأنّها تُشعرها بالموت والعفونة. وتحلم ببيت «جديد جديد»، يضجّ بالحيويّة والضوء والزرع والهواء.

كلّ ما تعرفه الآن، بعيدًا عن هذه التداعيات القاتمة، هو أنّها مَدينة لياسر باعتذار أكيد ومستحَق. كيف لها أن تتصرّف بما يخصّه؟ بل بأخصّ ما يخصّه، وهو اختيار التّعبير عن الرأي، أو بالأحرى التّعبير عن الضيم، وتحمُّل النتائج. هو اختار تحمُّل النتائج، فما لها ولاختياراته؟ بل ما لها ولحياته برمّتها؟ حياته التي لا تتوقّع قطّ أن تكون جزءًا منها. هكذا تتضاءل الاحتمالات وتنكمش، وتنام على وسادة من قشّ. ليس عن عدم إيمان بالاحتمالات، وإنّما لكونها ابنة للوهم والانتظار. حين ارتكبت تلك الزلّة، رأتها أشبه بالنغمة النشاز التي يرتكبها الموسيقيّ المحترف في لحظة سهو. بل لعلّها لحظة يقظة جامحة، خارج سياق الرّصانة والعقل المرتَّب البارد؛ لحظة اختطفتها من إطارها الرزين، وألقت بها في عين العاصفة. وها هي تمرض وتمضّها الحمّى لأنّها نظرت مليًا إلى جوهرها العميق، وكشفت عريه. لامست الجمرة الكامنة تحت رماد الاعتياديّة، واللّياقات، والمسافة المتوتّرة بالصمت والتردُّد، والكلمات التي لا تقول شيئًا، إلى أن ارتكبت فعلتها التي قالت كلّ شيء!

بعد الأيّام الثلاثة من الغياب والحمّى، توجّهت منال إلى مكتبها الصّغير في الكلّيّة، تتفحّص أوراقها المهمَلة. جالت في المعمل تتفقّد ياسرًا الذي حانت ساعة عمله، بحسب جدوله الذي تعرفه. حين لم تجده في مكانه، استفسرت عنه من عامل المختبر، الذي انغمس في مراجعة قوائم الأجهزة والمعدّات. أشار لها نحو مقهى الاستراحة الصغير، حيث يتردّد طلبة القسم وأساتذتهم، لخطف كوب من القهوة على عَجَل، كلّما سنح لهم الوقت.

رأته في مرمى بصرها حين دخلت، يفحص أوراقه ويسجِّل الملاحظات. وقفت برهة تراقب دخان قهوته التي لم تبرد، وإحدى كفّيه التي أسندها إلى صدغه، فبانت عروقها النافرة، كأنهار تمتدّ من القلب لتنتهي في الأصابع. يضع كفّه على الطاولة، فتخال الأنهار الصّغيرة تسقي خشبها فيورق. بدا وجهه جادًا ومستغرقًا. خشيت، وهي تقترب، أن تطيّر أسراب أفكاره، أو تغيّر مجرى الأنهار فتغيض. ردّ تحيّتها باعتياديّة باردة

تُخفي ما وراءها. أثنت على تقدُّمه في بحثه العلمي بابتسامة مرتبكة، كأنَّها بذلك تبحث عن مدخل يقودها في العتمة المتراكمة في رأسها. وجلست تنتظر أن يترك ما في يده، وينظر إلى وجهها؛ أن يرتشف من قهوته؛ أن يحك رأسه؛ أن يردّ نظّارته إلى الوراء؛ أن يبادر حتى بشتيمة أو تأنيب.

لم يفعل شيئًا من هذا. كلّ ما فعله أنّه أزاح كرسيّه إلى الوراء. نظر من خلال زجاج النافذة إلى الأشجار القريبة، التي تهتزّ الآن تحت رذاذ مطر مباغت. هرب سنجابٌ واختبأ بين الأغصان؛ دراجتان هوائيّتان تبتعدان نحو بوابة الخروج؛ فتاة، بشعر منفلت وحقيبة ظهر، تعبر في مجال نظرهما؛ رائحة فطيرة تُسخن. كيف باتت هذه المشاهد الاعتياديّة أكثرَ مدعاة للتأمُّل من إجراء حوارٍ مؤجَّل، كان قد نضج على مهل، وحان موعد قطافه. بادرت منال حين طال الصمت:

هل أستطيع أن أقدّم اعتذاري؟

عمَّ؟

أرجوك... دعنا نناقش ما حدث.

هل كنتُ مخطئًا حين سلّمتك الأوراق؟ كان يمكن أن أتصرَّف بطريقتي.

... لم تكن مخطئًا. عبَّرتَ عن طريقتك في الاهتمام.

...؟

وأنا عبَّرتُ عن طريقتي في الاهتمام، ولكن بأسلوب أخرق.

أضعتِ جهودي سُدًى.

ولكن، ألم يتمّ نشر التنويه في اليوم التالي؟

ماذا أفعل بالتنويه؟ طريقة سمجة لردّ الاعتبار.

كيف أقدّم اعتذاري عمّا تسبّبتُ به من أذى؟ أنا... لم أقصد... تعرف ذلك؟

أيُّ أذى تعتذرين عنه؟ أنتِ ألغيتِ اسمي... صادرتِني... تمامًا كما فعلوا بنا هناك... هل تعرفين معنى ذلك؟ معنى أن يكون الإنسان بلا صوت... بلا فعل؟

كنتُ خائفة... خائفة أن... يصيبك سوء.

هل تعرفين جاري وصديقي إياد الذي حدّثتك عنه؟ هل تعرفين ابن عمّي؟ إخوة الصّديق الذي اعتلى المنصّة يومها في ركن الخطباء؟ أنتِ لا

تعرفين هؤلاء. كلّ منهم ذاق الضيم على طريقته. هناك من قُتِل أو قُدِّم وَقودًا لأوهام الدكتاتور. هناك من اختفى أو نُفِي، أو نام بين الجثث في مقابر جماعيّة. هناك أسر بلا عائل، وأطفال بلا آباء، وأمَّهات يرتدين السَّواد والانتظار... من أكون أنا مقارنة بهؤلاء؟ مجرَّد كاتب كلمات منمَّقة يعيش وراء البحار. حتى الكلمات ضاعت في زحمة أسماء مزوَّرة، ولم تصل! هل تتصوَّرين ذلك؟ (يبتسم بسخرية).

حديثك يوجعني... أرجوك... أنتَ إنسان مناضل على طريقتك. كان مجرَّد مقال، وستكتب غيره حتمًا.

مجرَّد مقال؟ يبدو أنَّك لم تفهمي مقصدي. أنا أحيانًا لا أفهم ماذا أفعل هنا؟ متواريًا وراء منضدة المعمل. أنضّد جداول وقوائم، وأحلّل نتائج رياضيّة. أنشر مقالًا هنا وبحثًا هناك. أترك ابنتي تترعرع في أمستردام بين الوجوه الغريبة، وأبي يتأكّله الانتظار، وأمّي تتحامل على أوجاع أمومتها، لأبناء تشتاقهم وأحفاد لن تشمّ رائحتهم قطّ. هل هذا طبيعيّ في نظرك؟

صدّقني... أفهم معاناتكم... عاشرتُ صفاء... وعايشتك عن قُرب... و...

(قاطعها غاضبًا)... ماذا تعرفين عن المعاناة؟ أيّتها المترَفة المدلَّلة؟ هل تعرفينها حقًّا؟! (خلع نظارته، ثمَّ نظر مليًا إلى وجه منال الممتقع، وغادر).

عادت منال منكسرة الفؤاد، تلملم ما تبقّى من خيبتها. هل آلمته إلى هذه الدَّرجة، التي جعلته يقول ما يقول؟ هو الجنتلمان المهذَّب، الخفيض النبرة، العارف بلياقات الخطاب، المتلمِّس مواضع الإيماءة والكلمة والإشارة... هو ذاته الذي ينطوي على هذا الكمّ من الغليان؟! عاودها الشُعور بالتبكيت، وآلمها وصفه لها ب«المترَفة المدلَّلة»، وأدهشها، بل جعلها تفكِّر وتعيد التفكير. فلأوَّل مرَّة تعرف أنَّها في نظره «مترَفة ومدلَّلة». يا للعجب!

كرَّت الأيَّام التالية ثقيلة، تحمل في طيّاتها ظلال العَتَب والانكفاء. لم يتبقَّ بينهما غيرُ التحايا البعيدة التي تقتضيها لياقات الزمالة، وضرورات الوجود في مكان العمل. انطوت منال على كآبتها، تتحامل عليها بالانغماس في عمل روتيني مطّرد. وانطوى ياسر على شأنه الخاصّ وغموضه وبقايا مراراته. عاود نشر مقالاته في صحف ودوريَّات أخرى. ازدادت لهجته

وضوحًا ومباشرة، وإن لم يتخلَّ عن رصانته وموضوعيَّته، وإحالاته إلى البيانات والأرقام التي تؤيِّد وجهة نظره في أحوال بلده وشؤونه. تابعته منال أكثر من مرَّة في برامج إذاعة «بي بي سي» الإخباريَّة، معقِّبًا أو محلِّلًا لأحداث الساعة في المنطقة. بدا لها أكثر إصرارًا ويقينًا في رسالته، وأحرص على استغلال منابر الحرِّيَّة المتاحة، وأرقى طرحًا، وأقلَّ غضبًا. كأنَّ تجربة الإعلام أنضجته على مهل، وشذَّبت جموحه، وأوقدت موهبته.

هل كانت مشكلة المقال بين منال وياسر سببًا وحيدًا في الجفاء والتخلي؟ أم أنَّها مجرَّد شرارة لفتت انتباههما إلى اعتبارات أخرى، تجعل تقاربهما محفوفًا بالتحرُّز واللاجدوى. هكذا تحدث الأشياء في مواقيت غريبة أحيانًا، لتقطع الطريق وتغيِّر المسارات، على الرَّغم معًا في الأحداث من وجع ومباغتة غير محسوبين. لم يكن ياسر غافلًا عمَّا يحدث له ولمنال، لم يكن غافلًا حين يستجيب بتلقائيَّة لتجاذب الرُّوح والعقل؛ حين يتفقَّد أحدهما الآخر، ويشتاقه، ويترك له مساحة من الوقت والاهتمام؛ حين يستشعر السكينة والاكتفاء، وهو في دائرته ومعيَّته؛ حين يصمت أحدهما في حضرة الاخر ليشعَّ الصمت سلامًا وغبطة. يستعيد ياسر كيف ترك تلك التباشير تورق ثمَّ تزهر على مهل، من دون جلبة، إلى أن أتت مشكلة المقال لتدخله في مرحلة الجِدّ، وتضعه وجهًا لوجه أمام حالة تستدعي منه موقفًا جادًّا من العلاقة. نعم، كانت منال جادَّة وهي تعلن انحيازها المطلق إليه. وأمامه الخيار الآن، لأن يُرسِّخ هذه الجدِّيَّة، أو يخاتل قلبه ويغيِّر مسارها.

لم يعد هناك ما يُقال أو يُفعَل. ما بينهما الان مجرَّد بحيرة ساكنة. صفحة بخربشات أولى وجُمل متقاطعة لم يكتمل معناها. دائرة فاغرة كفمٍ أبله. لم يعد هناك ما يُقال، إلى أن رنَّ جرس هاتفها في أوَّل المساء. كانت منال عائدة للتوِّ في نهاية يوم بارد وثقيل. نفضت عن معطفها قطرات المطر العالقة، وخلعت القفَّازين، لتلتقط سمَّاعة الهاتف لاهثة. احتاجت إلى بضع ثوانٍ لتتأكَّد من أنَّ ياسرًا هو المتَّصل، ليس لأنَّها تجهل نبرته، وإنَّما لغرابة المفاجأة، بعد أن وطَّنت نفسها على تقبُّل ما حدث، والتعايش مع فراغ ممتلئ بالأسئلة. أصاخت السَّمع مليًّا، حتى كادت تسمع أنفاسه تتردَّد في مساحة الصمت العالقة بينهما:

أنا ذاهب لوداع أمِّي.

أمك؟

توفيت البارحة... أنا في المطار... طائرتي ستقلع بعد ساعتين إلى

بغداد.

... آه.. إنّا للّه وإنا إليه راجعون... أحسن اللّه مثواها... ستذهب هكذا فجأة؟

لا بدّ من ذلك... أن أحضر جنازتها ودفنها.

ومتى ستعود؟

لا أعرف... أنهيتُ بحثي، وتمّ تحديد تقديمه للتقييم بعد شهر... (بعد صمت) اسمعي يا منال، أنا أتّصل الآن لسبب آخر. مرّ زمن طويل من دون أن أتواصل معك. أنا آسف، كنتُ قاسيًا وفظًّا... لا أعرف كيف خرجت الكلمات.

أنا متفهّمة كما تعرف... ولا أزال أشعر بالندم... أحيانًا يُجرّ الإنسان لارتكاب الحماقات من دون أن يشعر.

أنا أقدّر حرصكِ عليّ، ونبلكِ، ومشاعرك السّخيّة، صدّقيني أفهمها الآن تمامًا، وأفهم كيف عبّرتِ عنها بطريقتك.

...

من يعرفُك عن قرب، يدرك كم أنت نادرة وراقية، وتستحقّين الأفضل.

...

قد أكون تصرّفت بغلظة. هذا صحيح. أنا لا أريد أن أجرّك معي إلى حياة لا تشبهك.

ماذا تعني؟

(أصدر الهاتف العمومي نغمات متقطّعة دلالةً انتهاء وقت المكالمة، فألقمه قطعةً إضافيّة من النقد المعدني) اسمعي، أنا أتحدّث من هاتف عموميّ في المطار، آسف للمقاطعة. أردتُ أن أبقيكِ بعيدًا عن مساري، هذا كلّ ما هنالك... أنتِ تستحقّين الأفضل... تستحقّين حياة طيّبة تشبهك وتليق بك... مَن هو مثلي لا يستطيع أن يؤسّس حياة حقّة.

لا تُجهد نفسك الآن، أرجوك... حين تعود سنتحدّث في الأمر.... متى ستعود؟

لا أعرف على وجه التّحديد.

هل ستبقي على رقم هاتفك إيّاه؟

بيييب... بيييب... بيييب... بيييب. (انتهى وقت المكالمة، وانقطع خط الهاتف).

احتاجت منال إلى ساعات من التأمُّل، حتى تستوعب ما سمعت. ثقُل قلبها وغامت أمامها المشاهد. كانت قد وطّنت نفسها على فراغ القلب ووحشته، فامتلأ الآن بحجارة الأسى، تجرّه إلى الحضيض والعتمة. كادت تعاودها الحمّى، فعاجلتها بحبّتي دواء تسكّن به أوارها. باتت الآن تعرف مواعيد الحمّى، وكيف تكمن لها في كلّ منعطف من منعطفات الوجع. أوّل عهدها بها، كما ذكرت أمُّها، كان حين توفّي توأمها كمال. كانت في الثانية من عمرها، لا تدرك معنى للفراق والموت. توفّي التوأم، وظنُّوها ستلحقه بعد أن اشتعلت حرارةً، ولكنّها تجاوزت الخطر، وعاشت. بيد أنّ متلازمة الحمّى، ظلّت علامة فارقة، تأتيها في كلّ منعطف للألم أو الفراق، تحزّ في لحمها وتُنضجه كما تشاء.

انصرفت منال إلى ما تبقّى لها من فسحة الوقت، بعد أن دخلت في العدّ التنازلي لانتهاء بعثتها الدراسيّة، والذي سيحين خلال أشهر قليلة. انغمست في أتون العمل، استشفاءً ممّا هي فيه. تعكف مساءً على مراجعة النتائج وتجميعها وطباعتها. والنّهار تُمضيه بين المعمل والمكتبة ومقهى الاستراحة. تقضم شطيرتها على عجَل، وتبلّل حلقها بقهوة بلا طعم. تتحامل أحيانًا على نفسها للتواصل مع الصديقات، تبديدًا للوحشة وكسرًا للرُّوتين، لئلًا تتحوّل إلى «روبوت». اعتادت أن تنهض باكرًا، بعد أن بات النوم مجرّد غفوات لا تأخذها بعيدًا. تستقلّ قطارها، مستسلمة لضجيجه ورتابته، مندغمة بهيئتها العمليّة ونظراتها الساهمة، مع صمت الرّكاب وانكفائهم على ذواتهم وهمهماتهم الخفيضة. حتى الهواء المكتوم في مقصورات القطار في ساعات الذُروة لم تعد تُلقي له بالًا. ستصل خلال دقائق، وستنطلق مع الأفواج في دهاليز المحطّة، وتعبر سلالمها المتحرّكة مع الجموع. لم تعد تراقب الإعلانات وتتفحّصها، وتُنصت إلى عازف الغيتار في الممرّات المعتمة، وتلقي له بما لديها من قطع نقديّة. لم تعد تلفتها باقاتُ الزهور اليانعة في الصباح، وهي تمرّ بمحلّ الورود الواقع على ناصية الشارع، بعد أن كان مصدر بهجة لصباحاتها البازغة وأنسًا. باتت المشاهد مكرّرة ورتيبة، والأوقات متشابهة. انطفأت الدّهشة والجِدّة، وانكفأت على نفسها تعدّ الأيّام.

بعد رحيل ياسر، داومت منال على الاتّصال برقم هاتفه بين أسبوع وآخر، تتحرّى وتنتظر. ظلّ الهاتف لا يجيب بغير الرنّات المعتادة. تطول الرنّات إلى أن تنقطع. ويطول الصّمت هناك، في المكان الذي تُرك للغبار والهجران، ويتمدّد. بعد مرور ما يقارب الشهرين، أدارت منال الرّقم الذي

حفظته الأصابع والذاكرة. لم يطل الرّنين هذه المرّة. أنصتت وقد تسارعت نبضات قلبها حتى أوجعتها. لا تدري إن كان الصمت قد طال، أم خُيّل إليها. بعد خشخشات متقطّعة، جاءها صوت فتاة، تجيبها بلكنة إنكليزيّة صافية. أوضحت أنّها لا تعرف أحدًا باسم ياسر. ثمّ عقّبت بأنّه قد يكون المؤجّر السّابق، وأنّها قد انتقلت حديثًا إلى الشقّة بعد إخلائها.

لم تتوقّف جهود منال بالاستقصاء والتّحرّي عند هذا الحدّ. وجدت نفسها مدفوعة إلى الاستفسار في قسم الفيزياء في الكلّيّة. ألم يتحدّد موعد تقييم بحثه العلميّ خلال شهر من سفره، كما قال؟ أمام سكرتيرة القسم وقفت منال لتلقي بالسّؤال الذي أرّقها وحيّرها. ولم تأتِ إجابة السكرتيرة بما يَشفي الغليل ويضع حدًّا للحيرة. أجابتها بأنّه، بحسب الملاحظة الواردة في ملفّه، اتّصل بالقسم بعد أسبوعين من سفره، يطلب إرجاء تقييم بحثه إلى أجَل غير مسمًّى، وأنّه لم يترك أيّ رسالة أخرى غير هذه منذ رحيله.

from:: manal_mosayyan@hotmail.com

to:: sihamnahhas@yahoo.com

سهام، الحاضرة في القلب...

في أجزاء من الفصول التي أرسلتها مؤخّرًا، حاولت المناورة مرّة أخرى حول عوالمك الحياتيّة والنّفسيّة. أشعر بأنّي إزاء عالمٍ خصب، سواء ما تعلّق بالخلفيّة الاجتماعيّة، أو بما أعرفه من سوانح عقلك وروحك الفائضة بالدفق الإنسانيّ. أتمنّى ألّا يكون، فيما أكتبه، شيءٌ من التّكرار، بقدرِ ما هو استطراد وتأنٍّ في التفاصيل التي تلحّ عليّ، لتظهر الصّورة أقرب اكتمالًا وإحاطة.

إن كنتِ تزوّدينني بين وقت وآخر بمعلومات وذكريات ثمينة، فآنسُ بها وأنا أسمع صوتك مُسجّلًا ورخيًا، إلّا أنّ سائر الشخصيّات تظلّ تراوح في ذهني بين الحضور والغياب. فما لديّ من معلومات عن أصحابها وقف بها الزمن، وما استجدّ لا يخرج عن العموميّات. لهذا، ستجدين أنّني أكمل الفراغات بالخيال والتصوّر. وهذا لا بأس فيه في استكمال خيوط الأحداث، ورسم مصائر الشخصيات. بل إنّ كاتب الرواية لا بدّ له من ذلك، لتخرج الشّخصيّة من نمطيّتها المعتادة، وتشعّ بالتّشويق والتوقّع.

في معرض الحديث عن سميحة وآية، هل قلتُ لكِ إنّي استضفتُ سميحة في بيتي في الكويت ذات مرّة؟ كانت في زيارةٍ لأختيها هنا، وفي شوقٍ إلى أبنائهما الذين كبروا وشبّوا عن الطوق. ما ألطفها وهي تتحدّث باللّهجة الكويتيّة مسايرةً لهم، فتبدو أقرب إلى شخصيّة «أبلة عطيات» في المسلسل الكرتونيّ الشّهير «قطعة 13». دخلت صالة الجلوس بروحها الجميلة، احتضنت لينة بحنان طاغٍ، ثمّ دلّلتها وأثنت على جمالها. كانت لا تزال في حينه متألّقة بالمَرَح وخفة الرُّوح، تلمع شفتاها بالأحمر القاني، وشعرها بصبغة الكستنائيّ المحمّرّ ملفوفًا كيفما اتّفق بإيشارب حريري، يسمح للخصلات الأماميّة بأن تبين باعتدال. ما بين الأحاديث واستعادة الذكريات، فاجأتني بسؤال أقرب إلى الاستشارة، عمّا إذا كان يمكن لها أن تتحدّث مع آية عن موضوع التبنّي، وكونها ابنة متبنّاة!

لا أذكر كيف راوغتُ السّؤال، لحساسيّته في المقام الأوّل، ولكوني لا أملك إجابة أو خبرة بالنصح في مجالٍ مثل هذا. كانت آية في بداية مراهقتها حينذاك، ولا أدري كيف أمكن لسميحة وهشام أن

يؤجِّلا البتّ في مثل هذه المسألة حتى تلك المرحلة، الأمر الذي كلَّفهما غاليًا فيما تلا من أيَّام وأحداث.

انتهت الزيارة، وأتت ابنة الأخت لتقلّ خالتها في سيَّارتها الخاصَّة. دخلت الفتاة لمرافقة سميحة التي انشغلت بوداعي، وقبلها قدمت ابنة الأخت لي. فتاة راقية وباهرة الحضور، ومتخرِّجة حديثًا بتخصُّص علميّ نادر، سيهيِّئها لوظيفة مميَّزة. وعلى غرارها كانت الأخوات والأخوة، يؤسِّسون حياة رضية ومستقرَّة. أقول ذلك وأنا أستعيد خلافات سميحة مع أمِّها بشأن زيجتَي الأختين في صباهما، وكيف أنَّ حساباتها لم تكن دقيقة، إذ ستظلّ للحياة مفاجآتُها وحساباتُها الخاصَّة، التي قد تطيح بالتَّصوُّرات والهواجس.

أرأيتِ كيف يفعل تداعي الأفكار فعلَه؟ حبل يجز آخر، لنرى أنفسنا نهيم في آلة الزمن، كبالونات متطايرة. أجمل ما في الكتابة أنَّها تلمّ شعث تلك الأفكار المتطايرة، ترتِّبها، وتتيح لها أفقًا موازيًا على مستوى الوعي المتيقِّظ، فيغتبط القلب لهذا الإنجاز، كأنَّه وجد للرُّوح مرساةً تحول دون تبعثرها في الفضاء. هكذا أكتشف أشياءَ لم أكن أعرفها عن نفسي؛ أشياء مخبَّأة ومتراكمة لا تخرج إلَّا بالكتابة! أليس ذلك غريبًا؟ نُمضي جلّ أعمارنا ونحن نلوك الكلام شفاهةً ونثرثر بلا نهاية، ثمَّ نكتشف أنَّ الكلام الشفهيّ ليس سوى عتبة أولى من عتبات التَّعبير، وأنَّ هناك آفاقًا بِكرًا لا نرتادها إلَّا بالكتابة. يقول المتصوِّفة «إذا اتَّسعت الرؤيا ضاقت العبارة». وأنا أقول إنَّ الكتابة توقٌ إلى تلك «الرؤيا» وفاتحةٌ لها، بمستواها الدُّنيويّ المتواضع، لا بمستواها الصوفيّ الشاطح.

من أفضال الكتابة أيضًا أنَّها تبني الذاكرة. تحيلها إلى جدار من الإسمنت بعد أن كانت كوخًا من القشّ. صحيح أنَّها ذاكرة انتقائيَّة، ومجبولة بالعاطفة ومزيج من الحقيقة والخيال، إلَّا أنَّها تظلّ طاقة خلاّقة، ودالةً أكيدة على أجمل وأعقد ما فينا، وهو «المخّ» البشريّ، وقدرته على التوليد والاستجابة للمهمَّات المطلوبة منه.

المهمَّة التي أطلبها من مخّي الآن، هي أن يُعينني على التذكُّر، وعلى خلق مهارة كتابيَّة أفرغ فيها تلك الذكريات والمشاهد. كان يستجيب سابقًا لمهمَّات أخرى مغايرة، متعلِّقة بفِصّه الأيسر، وبما يقوم به هذا الفِصّ من مهمَّات علميَّة ورياضيَّة محضة. وقد بعدت الشقَّة الآن بيني وبين هذا المزاج الرَّصين الصارم منذ تركت الوظيفة. بثُّ أهيم

بالموسيقى، وأراها لازمة من لوازم يومي. أسمعها عن بُعد تنبعث من إذاعة «أف أم» بلا انقطاع، فتخلق لي جوًا من النعيم والغبطة، وترمّم مزاجي على مهل. وبتُّ أقرأ بشغف، كأنّ الكتاب يستحيل إلى عالم موازٍ يُغري بالكشف، ويضجّ بالاحتمالات.

أقول لكِ هذا لأشجّع نفسي على المضيّ قُدُمًا نحو هذه المتغيّرات، التي أعانتني على تخطّي الانتكاسات النّفسيّة وآثارها، بعد تركي العمل، ثمّ مرض ابنتي، وما رافقهما من ضغوطات وأوجاع. للقراءة والموسيقى أفضالُهما في تخطّي تلك المرحلة. ثمّ جاءت فكرة كتابة هذه الرواية لتصنع لي متّكأً آخر من الرّاحة والانسجام الذاتيّ، والتواصل الصحّيّ مع الماضي وأطيافه المراوِحة.

لكِ الودّ الغامر

والدّعوات

منال مسيّان

الكويت، 2 نيسان/

إبريل 2018م

From:: sihamnahhas@yahoo.com

To: manal_mosayyan@hotmail.com

صديقتي الأعز منال...

ما أقدرك يا صديقتي على اختراق أرواح المتألِمين وتفهُم حواراتهم النَفسيَة، وأنت تصوغين حيواتهم في خلواتك مع الكتابة، تكادين تلمسين حشاشات قلوبهم وتغرفين منها. هذا ما يخصَ حديثك عن أوجاع أروى القلبيَة، ثمّ خيبات أفراد أسرة سميحة ومعاناتهم. رسالتك الأخيرة عن سميحة ذكَرتني بروحها الطليقة في الأيَّام الخوالي. اليوم، باتت تبخل على نفسها بالخروج للتبضُع أو لنزهة في الهواء الطلق. غدتْ أميَل إلى العزلة، وأغلقت أبواب التواصل.

قبل شهرين، دعوناها إلى الغداء في بيت يوسف وفاطمة مع لمَة من الأصدقاء القليلين. وَعَدَتْ ثمّ سوَفتْ، وأخيرًا اعتذرت بأعذار واهية. كنتُ أتمنَى وجودها، وخصوصًا أنَ فاطمة بدتْ متهافتة بعد تأكيد إصابتها بسرطان الأمعاء، وكأنَها أرادت أن تودِع الجميع، وتترك يوسف في عهدتهم. توفِيت المسكينة كما تعرفين بعد شهر. لا أعرف إذا حضرتْ سميحة الجنازة، لأنَني حينها كنتُ في إجازة في الأردن، ووصلتني الأخبار.

ممَا سمعته من هشام، أنَ أحوال «مطعم الوادي» تحتاج إلى إنعاش. هناك ترميمات مؤجَلة، وحاجة إلى استبدال الأثاث القديم، ناهيك عن ضرورة تحديث قائمة المأكولات بما يتناسب وأذواق الزبائن الجدد، الذين اختلفوا عن زبائن الماضي. فهمتُ أنَ الزَوجين يبحثان عن شريك ثالث، يساهم في رأس المال، ويُعين على المصاريف والإيجارات والفواتير المستحقَة. ويبدو أنَه بعد انقطاع سميحة إلى العزلة، عانى المطعم قلَةَ العناية وافتقد اللَمسات الجماليَة. أعانهم الله على أمرهم. بيني وبينك، أنا أبديتُ عدم الاهتمام والتَجاهل حين ذكر هشام موضوع الحاجة إلى شريك ثالث. لا أريد أن أفتح على نفسي هذا البابَ، فقد اتَعظتُ ممَا حدثَ سابقًا. وأدعو الله أن يوفَقهما بشريك مناسب.

أرأيتِ كيف تُعين الكتابة على التذكُر وترتيب الأفكار، كما قلتِ في رسالتك السابقة؟ بدأتُ مثلك أكتشف الزوايا الخبيئة في عقلي، وأستشعر متعة تنضيد الكلمات. أعجبني الخيال والحبكات الذكيَة في سياق حكاية ياسر ومنال. وقد بثَ في شوق إلى معرفة إلامَ سينتهي مصيرهما على مستوى القصَ. أتعرفين؟ أشعر بأنَ حياتنا أصبحت أجملَ

وأغنى بهذه الإفاضات والفضفضات، الآخذةِ بالاندياح نحو فضاءات موازية، كأنَّها تتماش مع أرواح وكائنات أخرى، كما تتماش زهور البزِّيَّة وتتلاقح.

أتركك في رعاية
اللَّه، ودمتِ للكتابة
سهام نخاس
لندن، 17 نيسان/
إبريل 2018م

في الطائرة المتَّجهة إلى جدّة، جلست أروى ونجوى في رحلتهما التي طال الجدل بينهما بشأن خططها وترتيباتها. كانت الخطة السّابقة أن تتّجه الصديقتان إلى مكّة أوّلًا لأداء العمرة، بناءً على رغبة نجوى، ثمّ تعودان إلى جدّة لحضور حفلة عرس أخت سلمان، التي تمّت دعوتهما إليها. ثمّ انعكست الخطّة، بعد تحديد إجازة الصديقتين، ليتمّ تأجيل العمرة إلى ما بعد احتفاليّة العرس، ثمّ العودة إلى لندن في نهاية المطاف.

منذ أن وصلت إلى أروى دعوةُ سلمان لحضور عرس أخته، وهي تعيش هواجس اللّقاء المرتقب، بعد طول غيبة وهجر. كان قد حدّثها عن ترتيبات يتطلّع إليها حين تأتي إلى مدينته. وعلى الرّغم من صدق لهجته، فإنّ مسألة الترتيبات بدت لها مشوبة بالغموض، وخصوصًا حين تعاودها مسألة اختفائه المفاجئ، وطولِ غيبته، ثمّ ظهورِه المفاجئ أيضًا، بعد أن دبّ اليأس في قلبها وتقطّعت بينهما الأسباب. والأغرب في الأمر دعوته الملحّة لها إلى زيارة مدينته، كأنّه يدعوها إلى أن تجرّب العيش في مدينة مختلفة، تختبر خلالها درجة تأقلمها، وقدرتها على العيش ضمن طقوس وملابسات لم تعتدها. هي الفتاة اللندنيّة النشأة، السائرة على حبل رفيع يهزأ بخطواتها المرتجفة، وهي تحاول أن توازن بين ذاتيها المتناقضتين، الذات المنغرسة بجذور النّسب واللسان العربيّين، والذاتِ المكتسَبة من التنشئة في بيئة غربية الملامح والسّمات. وها هو سلمان يضعها في هذا الاختبار الصعب، داعيًا إيّاها إلى أن تجرّب الانسلاخ من جوّها ووسطها ولكنتها الأجنبيّة المكتسَبة، وتأتي إليه.

وهي مدفوعة بحبّه، تتيح نفسها له ولخططه بأريحيّة بالغة. تتبع قلبها وهواها. تنطلق نحو مدينته البعيدة المحافظة كعصفور مشتاق. لا تدري من أين يأتيها ذلك الشّعور بالخفّة والفرح المباغت، فتعود إليها طفولتها وحبّها للمغامرة وانبهارُها بالأضواء والألوان. لحظة الحبّ لدى أروى هي لحظة الحياة الآنية التي تتشكّل بين يديها. كأنّ الحبّ عندها حالةٌ وليس خطّةَ حياة، وعلبةُ شوكولاتة لامعة وليس طبخةً تستوي على مهل، وتستلزم المتابعة والتّحريك بتأنٍّ لِئلّا تحترق أو تفشل. تطير أروى نحو سلمان مرتدية طفولتها وعفويّتها لا غير. جامحةً عواطفُها كجذوة في طور توقّدها. منقادة إلى العشق ينتابها كحمّى. كلّ ما تعرفه في لحظتها المتوهّجة تلك، هو حاجتها إلى أن تستشعر قربه وظلّه؛ أن تتكوّر كحمامة وادعة في حضوره، وتنسى ما عدا ذلك؛ تنسى كآباتها وذبولها في غيبته؛

تنسى ذوبانها في ليل الوحدة كشمعة تنتظر على رفّ؛ تنسى يأسها وشجرة الهجران التي اصفرّت ويبست على ضفّتها. ستذهب أروى إلى سلمان في جدّة ببساطة مدقعة، وليكن ما يكون، ما دام قلبها لم يَهدِها إلى تصوُّرٍ لما تريد، أو التّفكير فيما يمكن أن يخبّئه لها سلمان من مفاجآت.

وقفت أروى أمام مرآتها تتزيّن للعرس. وكان في قلبها عرسٌ آخر يضجّ، بعد مكالمة سلمان في إثر وصولها إلى الفندق ليلة البارحة. أفاض في التّعبير عن اشتياقه، ثمّ تواعدا على أن يلتقيا في اليوم التالي للحفل في استراحة العائلة على أطراف المدينة. تبادلت الصديقتان التّعليقات والنصائح عمّا يمكن ارتداؤه في مثل هذه المناسبة؛ عن مواصفات فستان الحفل؛ عن الحلي والأكسسوارات المناسبة؛ عن الماكياج ودرجته المقبولة. جدل طال وتمدّد أمام المرايا، حتى انتهى بهما الأمر إلى الاطمئنان إلى اكتمال هيئة كلٍّ منهما الجماليّة. قبل المغادرة أطلقتا رشّات من العطر الثمين وراء الأذنين، وانطلقتا إلى حفلة العرس.

حين هبطت الصديقتان من السيّارة أمام صالة الأفراح الفارهة، وجدتا نفسيهما مدفوعتين بأفواج من النّسوة وزوبعة من العباءات الحريريّة نحو المدخل. عباءات لا تكاد تتجاوز مدخل القاعة حتى تسفر عن كائنات باهرة، كأنّهنّ فراشات ليل مضيئة تخرج من شرانقها. ازداد المشهد حيويّة وهما تدخلان تحت نقر الكعوب العالية على رخام الأرضيّات المصقولة، ثمّ هبّات البخور تنعقد في الجوّ ممزوجة بالطّيب والصندل وروائح أخرى تستعصي على التّمييز. فاجأتهما الأضواء الساطعة والثريّات تتلألأ متهدّلة بفخامة من الأسقف العالية المنقوشة بأناقة بالغة. المقاعد المبطّنة بالمخمل تصطفّ بشكل نصف دائريّ وبلون كريميّ مرحّب. تشكيلات الورود البنفسجيّة والورديّة تتناثر في كلّ مكان بأناقة مدروسة، ثمّ تتكاثف برهافة حول «كوشة» العروسين الغارقة في الضوء والبهاء.

تلفّتت الصديقتان حولهما بارتباك الغريب، إلى أن استقرّتا في مقعدين متجاورين. جلستهما في الصفّ الأوسط أتاحت لهما موقعًا إستراتيجيًا لتأمُّل ما يحيط بهما من أبّهة وصخب. غمزت نجوى أروى مشيرة إلى تواضع ما تلبسانه، مقارنة بعروض الأزياء والمجوهرات الباذخة التي تخطر أمامهما. تسريحات شعر متقنة وعالية تجعل الأعناق تشرئبّ كأعناق الظباء؛ فساتين فارهة بأرقى التصاميم؛ أطقم ماسيّة وأحجار كريمة يُعمي بريقُها العيونَ؛ أجساد فارعة تتمايل وتميد كأغصان مثقَلة بالثمر؛ ظهور ونحور بزّاقة، وابتسامات وزغاريد تنسكب بسخاء. تاهت

نظرات الصديقتين وهما تلاحقان هذا المهرجان من الأضواء والأجساد والرّوائح، وتدوخان مع الأنغام التي بدأت تتصاعد بإيقاعات حادّة وسريعة. صدحت مطربة الحفل تغنّي من قعر روحها، مستحثّة الرّغبات الأنثويّة الكامنة على أن تظهر وتتجلّى، فاهتزّت الخصور مستجيبة، وتمايلت الرؤوس، وارتخت العيون بانتشاء. وبدا الحفل ومَن فيه كتلةً من الانسجام والحبور. الجميلات يلتممن ويتفرّقن، والأشربة تدور، والحلوى توزّع، والبخور يُطلق أبخرته في كلّ زاوية، و«الكوشة» تبدو الآن أكثرَ إغراءً وترحيبًا بقدوم العروس المرتقب.

أروى في مقعدها المطلّ على هذه البهجة السادرة، تحاول أن تتعرّف إلى تلك الكائنات الفارهة التي تهيم في المكان كأنّها تملكه وتقبض على مقدراته. في ذهنها بعض التصوُّر عن وضع سلمان الماليّ وطبقته الاجتماعيّة، ولكنّها لم تتخيّل أنّها طبقة بهذا المستوى الرّفيع من الوجاهة والرُّقيّ. تحاول أن تخمّن من هي أم سلمان بين الجموع. وأيّ منهنّ أخواته، أو قريباته. هناك امرأة فائقة الجمال بحضور أرستقراطيّ لافت، لا تنفكّ تدور في فلك تلك السيّدة الستينيّة، التي تبدو أنّها الأمّ لا محالة. أمّا الفتاتان الأخريان، اللّتان أكثرتا من الوقوف لالتقاط الصُّوَر التذكاريّة بمعيّة السيّدة الستينيّة، فتبدوان لأروى أنّهما أختا سلمان لقرب ملامحها منه. لم تستعجل أروى الرُّكون إلى تخميناتها، فلعلّ وصول العروس سيكشف بعضًا من هذه الصلات ويؤكّدها لاحقًا.

أقبلت العروس في هالة من البهاء والضوء. بلغ الفرح ذروته. واشرأبّت أعناق الحاضرات وأعينهنّ تلتقط أدقّ التفاصيل والطقوس المصاحبة لزفّة العروس. تواترت التّعليقات على مسمع أروى عن فخامة فستان العروس ومجوهراتها؛ عن جمالها وحُسن طالعها؛ عن إكليلها المبتكَر والذي ينسحب وراءها كأميرة خرافيّة؛ عن التّمنّيات بالسّعادة والرّفاه والبنين ممزوجة بحسد موارب. وامتدّت التّعليقات إلى نساء العائلة، وحُسن تنظيمهنّ، ورِفعة شأنهنّ. التقطت أذن أروى اسم «العنود» في مقام التّعليق على المرأة الفائقة الجمال؛ على طِيب محتدها وحُسن اختيار العائلة لها؛ على انسجامها مع أجواء العائلة التي تشرّفت بها. لم تُعِر أروى كثيرًا من الأهمّيّة لثرثرات النسوة عن «العنود» التي لا تمتّ إليها ولا إلى عالمها بصلة، اللّهمّ إلّا تلمُّس بعض المعلومات عن وضع أسرة سلمان، وإمكانيّة أن تكون «العنود» أميرة مثلًا! وهذا الأمر أيضًا لا يعني عالمها البسيط المتقشّف. ثمّ إنّها ليست سوى ضيفة طارئة، تجلس في مكان لا

تنتمي إليه، بملابس بسيطة وحلي مقلّدة، وبعينين مبهورتين بعالم خرافي، سينسدل عليه الستار ما إن تغادر إلى فندقها في نهاية السهرة.

عادت الصّديقتان إلى الفندق منهَكتين وممتلئتين بالحبور. لا تزال روائح البخور والطّيب تفوح من ثيابهما، والمشاهدُ طازجة تتمدّد في الذاكرة على مهل. اطمأنّ سلمان على أروى قبل أن تأوي إلى الفراش بمكالمة سريعة، وأكّد موعدهما في الغد في استراحة العائلة. قال إنّه سيرسل السّائق منتصفَ النهار، ليتيح لها هجعة مريحة وكافية بعد سهرة طويلة. وختم محادثته بأنّه يشتاقها كثيرًا، وأنّه سيكون بينهما كلام مؤجّل ومستحَق. نامت أروى وهي تهجس بما سيكون عليه ذلك الكلام «المؤجّل والمستحَق». ولولا أنْ صرعها تعب السفر ثمّ حفل العرس، لظلّت متيقّظة تجترّ أشواقها وآمالها المرفرفة.

لم تنم أروى إلى منتصف النّهار، على الرّغم من تعب البارحة. وجدت نفسها منتعشة ومتيقّظة باكرًا. التفتت إلى نجوى في السّرير المجاور وهي تغطّ في نوم عميق، وقد انتظمت أنفاسها وراحت حدقتاها تتحرّكان من وراء جفنين مطبقين. لعلّها الآن تلاحق صور أحلامها. ترى نفسها عروسًا تمسك بيد عبد المنعم وقد عاد إليه صباه؛ أو تجلس إلى أمّها وتضع على رأسها الحجاب، ثمّ تدعوها إلى المجيء لأداء العمرة المرتقبة معها. كلّ شيء ممكن في عالم الأحلام الذي يتشكّل على قدر الرّغبات المشتهاة، وعلى قياس اللّاممكن. لا تزال أكوام الثياب والحقائب المفتوحة وأدوات الماكياج متناثرة منذ يوم أمس. الأشياء المبعثرة التي لم تنتظم بعدُ، تحاكي حياة الفتاتين المسافرتين إلى مدينة غريبة؛ حياة مبعثرة ومفتوحة على الإمكانيّات كحقيبة سفر.

تنهض أروى نحو الحمام. تقف تحت الماء الدافئ الهادر فوق رأسها، الذي خلا من كلّ شيء عدا طاقة من النور تشعّ في خلاياه. تغسل جسدها من تعب البارحة، ومن متاعب أخرى وانتظاراتٍ ومشاعر آسنة وخيبات قديمة. تتخيّل الغثاثات تنزلق مع الصابون المعطّر نحو فتحة المجاري وترحل. وهي تقف بهيّة تغمرها الجِدّة، وتفوح من جلدها رائحة أنوثة عذبة. لم يتبقَّ الكثير على الموعد المرتقب، وصبرها يكاد ينفد وهي تراقب عقارب الساعة، وتجهّز نفسها للخروج.

انتقت بنطالًا من الجينز وقميصًا أبيض فضفاضًا بياقة عالية. هو الصباح ولا تريد أن تبدو فيه متبرّجة أو مبالغة في الأناقة. تكفيها تلك السلسلة الرّقيقة حول العنق مع قرطين منمنمين. تختم برشّة عطر خفيف،

وأحمر شفاه بدرجة الورديّ. ودَعت نجوى التي لا تزال تتململ في فراشها تحت تأثير نعاس طاغٍ. لفَت قامتها بعباءة سوداء، كما أوصاها سلمان، وكما تقتضي أعراف المكان، وانطلقت للقاء ترفرف بالحرير الأسود. لم تَطُل رحلة السيّارة، حتى وجدت نفسها تقترب من مبنى أنيق على شكل فيلّا أو منتجع. نظرت مليًا إلى النّخيل الباسق الذي يحيط بالمكان، ويحيله إلى غابة مسحورة يتخلّلها الضوء. هناك المظلّات القماشيّة أيضًا، تتناثر حولها مقاعد من القشّ. وطاولة بمفرش أبيض وصينيّة ممتلئة بالكؤوس والعصائر. تتساءل إن كانت هذه الجلسة الخارجيّة مجهّزة من أجلهما، أم أنّ للمكان ضيوفًا آخرين غيرها. سمعت أصوات طيور قريبة، وصهيل فرس بعيد، وهبّت رائحة عشب منعشة، واتّسعت أمام ناظريها رقعة السّماء وازدادت زرقة.

ترجّلت من السيّارة، ثمّ قادها السائق نحو مدخل الفيلّا. كان الباب مواربًا فدخلت. لم تَطُل حيرتها حتى برزت عاملة آسيويّة بملامح واثقة وزيّ أنيق، ترحّب بها، ثمّ تقودها إلى ركن جانبي، يطلّ من خلال نافذة عريضة على حديقة استوائيّة. تركتها العاملة مع كأس من اللّيمون المثلّج قبل أن تتوارى في دهاليز الفيلّا. لم يطل انتظار أروى حين سمعت وقع خُطى خفيفة تسعى إليها، ثمّ يبزغ سلمان أمامها بقامة فارعة، وقميص سماويّ فاتح، وخطوة واثقة كأنّه يهبط درجات الغيم.

لم تجد، تحت وطأة التوتّر الطارئ والخفقان، الكلماتِ المناسبةَ لتحيّة حبيب طالت غيبته وطال انتظاره. وقفت مبتسمة بارتباك. أمالت رأسها كطفلة تائهة في أوّل يوم دراسي، وتقدّمت نحوه. ارتطمت ساقها بطرف الطاولة الصغيرة، فاهتزّت كأس اللّيمون وسقطت. غاص قلبها وهي تتابع السّائل الشفّاف يسيل على زجاج الطاولة، وتتبعثر قطع الثلج، ثمّ ينسكب على السّجادة بقطرات متتالية. انكمشت كطفلة كسرت آنية، ولا تعرف كيف تلمّ شظاياها. جمدت في مكانها لا تعرف ما له الأولويّة في هذا الموقف. هل تعتذر عن الفوضى التي خدشت فيها أناقة المكان، أم تهرع نحو طقوس اللّقاء. أمسك بذراعها متجاوزًا بها محيطَ العصير المسكوب، وقرّبها إليه. ضغط كفّيها وأدناهما من وجهه. لثم أصابعها الصّغيرة واحدةً واحدةً، ربّما تكفيرًا عن الشهور العشرة الماضية المفعَمة بالهجر والصّمت. أطال النّظر إلى عينيها اللّائمتين واللّتين كادتا تغيمان وراء غلالة من الدّمع. قرّب أنفه إلى شعرها يشمّ عبقه، ويُطيل الشمّ، بينما كمنت هي في فجوة ذراعه مرتجفة، كحمامة أتعبها الطيران في الريح، فحطّت على

غصن. مسح وجهه بخصلات شعرها، ثمّ هبط يلثم عنقها لثمات متسارعة كمنقار طائر يلتقط حبًا. يغمغم بكلمات الاعتذار، وتغمغم هي بالعتاب، إلى أن غلبتها اللّوعة على أمرها، فشرقت بالبكاء، وانتحبت.

جلس يتأمّلها وهي تُفرغ طاقة الوجع. نظر إلى جسمها الضئيل متكوّمًا على الأريكة القريبة، ملتفة على أعضائها كجنين في رحم أمّه. تأمّل عينيها المحمرّتين وأنفها اللّامع وشفتيها اللّتين ازدادتا وهجًا وطراوة. رآها مزيجًا مغريًا من الأنوثة والطفولة، وصورةً للعشق حين تمضه التباريح، فيضوع محترقًا كبخور نادر. توجّس خيفة من الاقتراب منها، لئلّا تتهافت بين يديه كجناح فراشة، فراح يدسّ الوسائد وراء ظهرها لتعتدل وتنهض، وليبدأ حديثًا يتطلب انتباهًا ووعيًا.

قدّم إليها شرابًا ساخنًا لتنتعش وتهدأ. جلس قبالتها وأطال النظر إلى تقاطيعها التي عاودها الإشراق بعد نوبة بكاء مشبعة. كان كلّ شيء حولهما يبدو مسترخيًا، ومصيخًا برهافة إلى بوحهما، وإلى ما سيملآن به فراغات المكان. عاود اعتذاره عن تقصيره، ثم بادر:

أحيانًا يكون الإنسان مرغمًا، وعبدًا لظروفه.

كنتُ أعتقد أنّك رجل حرّ.

حتى الرّجل الحرّ يظلّ مقيّدًا بالأعراف؛ بالعائلة؛ بحبال ربّما لا تعرفينها. أنتِ أكثر حرّيّة منّي ربّما.

ولكنّك لا تحبّ حياتي.

أنا أحبّ نمط حياتك. جرّبته رَدحًا من الزمن، ولكنّني أردتُ أن تتعرّفي إلى حياة مختلفة هنا؛ حياة يولد فيها الكائن ليكون امتدادًا لذويه، لأعراف المكان، لحزمة التقاليد. وإن طار فبجناح واحد.

ماذا تريد أن تقول؟ أيّ حبال؟ وأيّ تقاليد تمنع الإنسان من أن يختار؟ أنت اخترتني حقًّا وصدقًا، أم أنّك لا تزال تراوح؟ نحن هنا في جلسة مصارحة: مصارحة أتمنّى أن تكون نهائيّة وقاطعة. أنا تعبت. لم أعد أحتمل المزيد من الشّقاء والوعود.

أنا اخترتكِ منذ البداية، ولا أزال، لكن...

لكن؟

هنالك أمر يجب أن تعرفيه، قبل أن نتّخذ أيّ قرار يخصّنا.

أعرف ماذا؟ وأيّ قرار تعني؟

- قرار الارتباط. أنا أحبُك، ولا بدَّ من أن نلتقي في عشّ يخصُنا. تعبتُ من التّسويف ومن بُعد المسافة. وقبلها لا بدَّ من مناقشة وضعي العائلي حاليًا. لا أريد أن أضلّلكِ.

وضع عائلي؟ هل تتوقَّع أن يرفض والداك زواجك بفتاة مثلي، ومن طبقتي؟

ليس بالضرورة...

رأيتُ أفرادًا من عائلتك الكريمة في حفل العرس. ما شاء اللّه، أصالة وعراقة وكرم ضيافة. أعتقد أنّي تعرَّفت عن بُعد إلى والدتك وأخواتك. طبعًا لم يُتَح لي الاقتراب أكثر. كنتُ مجرَّد ضيفة غريبة. موظَّفة في بنك أجنبي يعتني بأمور ابنهم الماليَّة.

أنتِ أكثر من ذلك بكثير...

إذن... ماذا تعني بأنّك لا تريد أن تضلّلني؟

...

سلمان، هل... تزوَّجتَ... في غيبتك؟

زواج تقليديّ... لأرضي أهلي.

كان إحساسي في مكانه... آه... «العنود»؟

كيف عرفتِ اسمها؟

كيف عرفتُ اسمها؟! كانت ساحرة الحفل... وكنتُ الفتاة الجالسة في الصفوف الخلفيَّة..

هذا لا يمنع.

لا يمنع ماذا؟

زواجنا..

زوجة ثانية؟

لمَ لا؟ إذا كان الحبّ موجودًا.

وزوجتك؟

عائلتي اختارتها لي، وقد استجبتُ لها وأرضيتُ تقاليدها. وحان وقت اختياري.

وما موقعي في قلبك بعد هذا الجمال الفاره؟

أنتِ مختلفة.

أنا؟ بضآلتي... وسُمرتي... وخلطتي المربكة... وغربتي عن وسطكم

وأعرافكم ورفاهيتكم التي لا أتقنها؟ كيف؟

أنتِ تملئين فراغي المتعطش إلى البساطة والبراءة... إلى العودة إلى الفطرة والتلقائية بعيدًا عن زحمة الرتوش والمظاهر. أحبّ ضحكة الطفلة فيكِ؛ وجهك الخالي من الأصباغ والزينة؛ عطرك اللّطيف الذي لا يصرع حاسة الشمّ؛ شعرَك المنسدل على عواهنه؛ أظفارَك المنمنمة وهي تحرث راحة يدي؛ روحك المجبولة بالقلق الجميل، والمتحفّزة لكلّ ما هو طليق وحرّ.

ولكنّك تريدني أن أكون مثلكم. ولهذا دعوتني إلى أن أزور مدينتك.

أردتُ القرب، وأردتُ أن تتعرّفي إليّ في عقر داري. ترين حقيقتي وقيودي ووسطي وبيئتي. ولكنّني أدركتُ أنّني أحبّكِ كما أنتِ.

وهل تحبّ مدينتي أيضًا؟

طبعًا. لندن مدينة غامضة ومغرية. لا أدري أيّكما تشبه الأخرى. عشتُ فيها ردحًا من أخصب سنوات حياتي. وأجمل ما حدث لي هناك أنّني عرفتكِ. أرجوكِ لا تدعي آمالنا تذهب هدرًا. يمكننا أن نبني عشنا أينما تشائين. هنا أو في لندن، أو فيما بينهما إذا رغبتِ.

أنا في حالة من الذهول. لا أصدّق ما أسمع، أو لعلّي أحتاج إلى وقت لأستوعب. تدعوني إلى أن آتيك بقدمي، ثمّ تلقي في وجهي هذا اللّغم. زوجة ثانية؟ أنا زوجة ثانية؟!

أقدّر مجيئك إليّ، حبيبتي. لا يفعل ذلك إلّا قلبٌ عاشق. وهذا القلب العاشق هو الذي يجعل الصّعب سهلًا وممكنًا. لن أطلب منك قرارًا الآن. سأدعك لنفسك. فكّري على مهل. استخيري مشاعرك وقلبك، ولا تدعيني أنتظر طويلًا.

عادت أروى إلى فندقها متضعضعةً، تتراقص الأشباح أمام عينيها المحتقنتين. لم تكن نجوى في الغرفة، وهو ما أعطاها مجالًا لتتأمّل خيبتها على مهل. اندسّت تحت اللّحاف ترتجف، وتستعيد كلّ ما حدث لها، منذ وطأت هذه المدينة: وعثاء السفر؛ العرس؛ «العنود»؛ استراحة العائلة؛ سلمان؛ كأس اللّيمون المسكوب كدمها؛ طلبها زوجة ثانية له. كانت الأحداث المتسارعة تدوس فوق جسمها الضئيل المنكمش، وتقرع في فراغ رأسها كمطارق ثقيلة مدوّية.

ودّت لو تنام نومة طويلة وثقيلة، ولا تستيقظ إلّا في فراشها هناك في لندن، حيث شقّتها الصّغيرة الحميمة. ودّت لو تهرب من كلّ هذا

الصَّخب؛ من المساحات الوسيعة الفارهة التي تُشعرها بضآلتها وارتباكها؛ من النسوة الفارعات المضمَّخات بالفتنة، واللَّواتي يبرقن بالألماس والسحر، فتبدو أمامهنَّ كأنَّها ترتدي الأسمال؛ من سلمان الذي بدا لها أكثر قسوة ووجاهة ممَّا كانت تتذكَّر، على الرَّغم من عطفه ورقَّته. حقًّا يريدها زوجة ثانية؟ كيف ستباري «العنود» التي بدت لها أميرةً خرافيَّة؟ كيف ستتحدَّث إلى أمِّه؟ وبأيّ لهجة؟ وأين ستجد نفسها في منظومة بروتوكولات الأعراف وتقاليد المنع والزجر؟ ثمَّ، كيف سترتدي «الشيلة» وتلف العباءة بإتقان كما يفعلن؟ هي الفتاة الكادحة، اللّندنيَّةُ النشأة، البسيطةُ، الراكضةُ وراء الحافلات ودهاليز الأندرغراوند، العائدةُ في نهاية اليوم وهي لا تحمل غير علبة حليب وخيارة وخبزة باغيت وحبّتي طماطم. ما الذي جعلها تظنّ أنّ سلمان صنوٌ لها وعلى قياس أحلامها؟ كان يبدو بسيطًا ومهذَّبًا، و«جنتلمان» وسيمًا حين عرفته. ربَّما هو كذلك. ولكنّ الفرق أنَّها رأته وسط بيئته وعائلته وامتداده، فاتَّسعت أمامها الرؤية واتَّضحت. وكانت قبل ذلك تعيش في دائرة من أوهامها، وفي صندوقها الصَّغير المغلَق على ذاته.

غفت أروى تحت وطأة التَّعب والهواجس، بل سقطت في نوم عميق معتم بلا أحلام. لم تشعر بنجوى حين دخلت محمَّلة بأكياس التبضُّع، وبجلبة وخشخشات وثرثرات جانبيَّة على الهاتف. تركتها نجوى تغرق في نومها وشقائها، بعد أن تأمَّلت مليًّا وجهها المكدود وبقايا دموع جفَّت وكحل يسيح. تنهَّدت بأسى، وهجست بأنّ خيبات أروى وأوجاع قلبها لم تنتهِ، وأنّ هذه البائسة الملتفَّة على نفسها كيرقة، موعودةٌ بطورٍ آخر من البؤس. كانت تطير فرحًا هذا الصَّباح، وتمنِّي نفسها بلقاء طال انتظاره، وأشواق، ومفاجآت. ولكن يبدو أنّ المفاجآت لم تأتِ على قدر التمنّي.

انشغلت نجوى بتفقُّد حاجيّاتها، وتجهيز كيس قطني صغير تضع فيه ما تحتاج إليه لمناسك العمرة: جرابًا أبيض، وسجادة صلاة، وخُفَّين من قماش. غدًا ستكونان في مكَّة. تتخيَّل صحن الحرم وسواد الكعبة فتجيش مشاعرها بالغبطة. استيقظت أروى في نهاية النهار منطفئةَ القلب. تحدَّثت الصَّديقتان طويلًا عن عرض سلمان ونياته. أروى تلوك الحديث بحيرة وشجن، ونجوى تصغي إليها حينًا، وتزجي لها آراءها ونصائحها حينًا آخر. قالت لها إنَّه لا بأس في أن تتبع قلبها، ولكن عليها أن تحذر في الوقت ذاته. ثمّ أردفت بأنّ الرجال، مثل سلمان ومن هم في طبقته ووضعه الاجتماعي، معتادون تعدُّدَ الزوجات. تبقى لهم زوجة واحدة للبريستيج

الاجتماعي، ثمَّ أخريات للتَّنويع والاستبدال كلَّما عنّت الحاجة. فهل أنتِ على استعداد لهذا اللَّون من الحياة؟ هكذا أطلقت نجوى رصاصاتها في قلب أروى بلا تروٍّ. ثمَّ شعرت بأنَّها تمادت، فتراجعت واعتذرت. وأخيرًا، نوَّهت بأنَّ الأمر تقرِّره وحدها، لكن عليها أن تطيل التَّفكير والمراجعة قبل البتّ في أمر مثل هذا.

ذكَّرتها نجوى بضرورة تجهيز نفسها ليوم غد. أن تكون حاضرة قلبًا وجسدًا لأداء العمرة، وتؤجِّل ما سوى ذلك إلى حين. اضطربت أروى وغامت أمامها الأشياء. لا تدري كيف ترتِّب خططها. هل من الضروريّ أن تبقى بعد أداء العمرة في جدَّة لبضعة أيَّام، لترتِّب أفكارها وتصل إلى قرار نهائيّ؟ أم أنَّ عليها المغادرة مباشرة، وتأجيل البتّ في أمر القرار إلى حين. وهو ما يعني المزيد من الانتظار والغياب والتَّسويف. سألت نفسها إن كانت نجوى صادقة الجوارح، وهي تحذِّر وتنصح كأمٍّ مشفقة؟ أمْ أنَّها الغيرة تفعل أفاعيلها، وتظهر بهذه الصيغة من المبالغة والهواجس المتوهَّمة؟ هزّت أروى رأسها لتطرد أسراب النَّحل الذي يطنُّ في داخله، وانصرفت تلمّ أشياءها المبعثرة، وتنتظر الغد.

بعد أداء المناسك، تجلس الصديقتان متجاورتين في صحن الحرم، ملتفَّتين بالبياض. الوقت قبيل السَّحر. نجوى غارقة في صلواتها، ركعة في إثر أخرى. وأروى سارحة في سواد الكعبة المشعّ، وفي طَواف المعتمرين ودوَرَانهم، كأنَّهم يلاحقون آمالهم المتطايرة فيدورون ويدورون. صامتة تتأمَّل الدَّفق البشريّ كنهر بلا نهاية. غلبها الوَجد ففاضت عيناها. لا تدري ما أبكاها: هيبةُ المكان؟ أم ضياعُها في رحابه؟ أم ثقلُ ما تحمل من مؤونة الفكر والقرار؟ أنهت نجوى سجودها الأخير، ثمَّ التفتت إلى ملامح أروى المبلَّلة بدموعها. اقتربت منها هاجسةً بما يمور في كيانها الملتمّ على نفسه بلا حيلة. دنت منها برفق، ثمَّ شرعت تلقِّنها دعاء الاستخارة. استجابت أروى من دون مقاومة، وطفقت تردِّد وراءها الدُّعاء كطفلة تتعلَّم الكلام، كلمةً كلمةً، وحرفًا حرفًا.

بعد يومين، كانت الاستخارة قد تركت أثرها في نفس أروى وعقلها. وكانت الحقائب مُعَدَّة للسفر، والصديقتان على متن الطائرة المتَّجهة إلى لندن.

في يومها الأوّل، بعد إجازة طالت، تدخل سهام مقرّ عملها في السّفارة، لتصدمها المتغيّرات. غرفة مكتبها الصّغير بدت لها أكثر ضِيقًا. تقلّص فيها ضوء النهار حين أسدلت السّتارة لتحجب أكثر من نصف النافذة. هي التي لا يطيب لها مزاج العمل إلّا حين يشعشع الضوء في المكان ويفيض. احتلّت أزهار بلاستيكيّة حمراء سطح المكتب، وفاح عطر نسائيّ ثقيل. لم يُسعفها الوقت لتفقّد الصُّورة العائليّة التي اختفت من المشهد، ولا أشيائها الصّغيرة التي لا تكتمل راحتها إلّا بها.

علمت منذ الصباح الباكر بأنّ مدير مكتبها، قد تمّت ترقيته من وظيفة مستشار ثقافي إلى منصب سفير. فرحت لإنجازه المستحَق الذي يليق بشخصه ومهاراته الدبلوماسيّة. كان قد انتقل إلى الطابق الأرضي، حيث يتوفّر طاقم متكامل من السكرتاريّة والإداريّين المؤهّلين. تاهت في يومها الأوّل واضطربت، واحتارت بين الصعود إلى الطابق الثاني، حيث مكتبها، أو التوجّه إلى مكتب السّفير لتقديم التحايا والتبريكات بالمنصب الجديد. ثمّ فكّرت في تأجيل المرور على مكتبه إلى نهاية اليوم، لعلمها بإيقاع العمل المطّرد هناك في ساعات الصباح الأولى.

لم يكن هناك بدّ من الذهاب مباشرة إلى مكتبها، لتفقّد الأحوال، والتعرّف إلى مديرها الجديد. شعرت بتشنّج مفاجئ في معدتها، حين تذكّرت فراغ المكان من الوجه الذي ألفته، والشخص الذي اعتادت بشاشته وإنسانيّته. ابتلعت ريقها، وخَطت إلى الداخل. باغتتها عتمة النافذة؛ الأزهارُ البلاستيكيّة؛ العطرُ النسائيّ الثقيل المعلّق في الجوّ؛ الكرسيّ الذي استدار نصف دائرة، ليدلّ على أنّ هناك من نهض منه في التوّ. كان الباب الفاصل بين مكتب السكرتاريّة ومكتب المدير مواربًا. تناهت إليها همهماتٌ، وخشخشة أوراق تُتصفّح، وصدى ضحكات مكتومة. انتظرت كأنّها غريبة عن المكان، تتحزّى ما سيأتي.

انفرج الباب، وبرزت «الموظّفة» تحمل ملفًّا ورقيًا. احتاجت سهام إلى بضع دقائق لتتعرّف إلى الوافدة الجديدة، التي عاودت الجلوس إلى المكتب، وانصرفت إلى استكمال تقليب الأوراق، ومَهرِها بالأختام. كانت التحايا المقتضبة بينهما، كافية لتذكير سهام ب«مليكة»، موظّفة الأرشيف في طابق السرداب في السّفارة. لكنّها بدت الآن مختلفة! الشعر المنثور؛ أحمر الشفاه القاني؛ البلوزة المهفهفة التي تشفّ عمّا وراءها، ثمّ التنّورة

الضيّقة بفتحة تصل إلى أوّل الفَخِذ. كانت هيئة مليكة الجديدة متماشية، بشكل تلقائي، مع الزهور البلاستيكيّة والعتمة المواربة والعطر الثقيل.

لم تكن سهام في حاجة إلى دليل آخر، لتفهم أنّ غيابها قد ترك فراغًا، لم يكن في الإمكان ملؤه بغير مليكة، عاملة الأرشيف، التي غدت الآن حسناءَ، و«لهلوبةً»، ومستميتةً لسدّ ما تركته وراءها من فراغ. رأتها تحدّق طويلًا في ملفات الطلبة؛ تطبع على الآلة الكاتبة بإصبع واحدة؛ تُعدّ دعوات لمناسبة ما؛ تردّ على مكالمة هاتفيّة عابرة؛ تفعل كلّ ما يمكن أن تفعله موظّفة بديلة، تطمح إلى أن تكون دائمة. طموح لا يقف عند محاولة إتقان المهارات الوظيفيّة فقط، وإنّما إتقان فنون أخرى ليست ذات صلة.

انتظرت سهام طويلًا، قبل الدخول إلى المدير الجديد. شعرت بالغربة، ووحشة المكان، وثقل الوقت، وبأشياء أخرى تجعل أحشاءها تتوتّر ونَفَسَها يضيق. لا تدري لماذا شعرت بأنّها فائضة عن الحاجة، حين أسَرَّ إليها المدير بأنّ هناك مجموعة من ملفّات الطلبة في عهدة مليكة الآن، ولا بدّ من أن تستكمل معهم الإجراءات بنفسها إلى النهاية، لأنّها الأعلم بأوضاعهم حاليًا. استدار بكرسيه جانبًا، والتقط الهاتف، ثمّ أكمل بنصف اهتمامه، قائلًا إنّها يمكن أن تساعد مليكة في الترجمة إذا أحبّت، أو تشتغل بالطباعة، وتترك شؤون الطلبة والتواصل مع الجامعات لها. وقفت متسمّرة في مكانها، كمن رُشّ وجههُ بدلو من الماء البارد. احتارت بين الانسحاب للجلوس في معيّة مليكة، والنّظر في الفراغ، كجملة تائهة ليس لها محلّ من الإعراب، أو العودةِ من حيث أتت وترتيب أفكارها على مهل، لتعرف كيفيّة التعامل مع هذا الوضع الصادم. هدّأت من روع مشاعرها، وهي تستذكر ضرورة المرور على مكتب السّفير للقيام بواجب السّلام والتّهنئة في نهاية اليوم، ثمّ صرفت النّظر عن ذلك، لعدم لياقتها النّفسيّة، وأرجأت المرور إلى يوم غد.

هبط عليها المساء ثقيلًا، وهي تتمدّد على الأريكة التي تفهم لغة جسدها، ومكامن الوجع فيه، فتتيح له متّسعًا من اللّيونة والاحتواء. تسلّلت إليها عتمة المغيب وهي في خضمّ هواجسها، فسهت عن إشعال الأنوار، التي لطالما أحبّتها ساطعة ومتوهّجة، لتجعل المكان أكثر اتّساعًا وبهجة. ولكنّها الآن في مزاج عاصف، تحتاج معه إلى التّفكير مليًا، وعدم استباق الأحداث. استعادت أجواء المكتب الجديدة التي لا تشبهها؛ سحنة المدير الجديد، الذي بدا لها طريّ العود، قليلَ الخبرة في مجاله، وتنقصه مهارات التعامل الدبلوماسي. استعادت الهمهمات وراء الباب الموارِب

والضحكات المكتومة، وكيف ترتّبت الأشياء طوال شهر من غيابها، بما يتناسب وذوق مليكة وقبول مديرها به. كيف لها أن تتلاءم الآن مع ذلك كلّه؟ وماذا تفعل؟ ومن أين ينبغي لها أن تبدأ السّجال الذي لا يليق بها؟ من البلوزة المهفهفة؟ أم التّنورة الضيّقة؟ أم الأحمر القاني والعطر الثقيل؟

نهضت تُشعل الأنوار لطرد عتمة روحها وعتمة المكان. حاولت أن تغيّر مسارات تفكيرها وتدع القلق جانبًا. استجارت بشجاعتها في مواجهة المواقف، وإعطاء نفسها فرصةً للتبصّر والصّبر. ستعاود الذهاب غدًا إلى مقرّ عملها لا محالة. ستحاول أن تفهم وتساير واقع الحال، إلى أن تتّضح الأمور. بدأت نهارها بالمرور على مكتب السّفير، الذي هشّ لقدومها، وأثنى على تعاونها معه سابقًا. لم يسعها المجال للإشارة إلى وضعها الحالي في مكتب الملحق الثقافي، فعجلة العمل اليوميّة كانت قد بدأت، وهي خير من يفهم مقامات القول وتوقيته.

مرّت أيّام، ثمّ أسبوعان، ثمّ شهر. مرتّبها الشهري لم يتغيّر، ولكن تغيّرت أشياء أخرى كثيرة. تأتي في الصّباح لتجلس في المقعد الجانبي. تطبع بضع أوراق؛ تحيل الملفّات القديمة إلى الأرشيف؛ تراجع ميزانيّات الصّرف؛ تتجرّع قهوتها بلا مزاج. بات مجال تحرّكها لا يزيد على مساحة المكتب الصّغير الذي تشارك فيه مليكة على مضض. لا تزال مليكة تحتلّ سطح المكتب بعمومه. تختصّ بالدّخول على المدير، وتستحوذ على المكالمات الهاتفيّة والبريد. ضاق المكان بهما معًا، واستعصت الرّاحة والحركة. وتيقّنت سهام من أنّ ما يحدث هو تكتيك متقن لإزاحتها من المكان، أو في أحسن الأحوال محاولة لدفعها إلى اتّخاذ هذا القرار بنفسها. وبعد شهر من التريّث والتأجيل ومراجعة النّفس، قرّرت سهام حسم الأمر.

تركت سهام في نهاية الشهر استقالتها على مكتب مديرها. لم تستسغ أن تشكو حالها إلى السّفير أو تستأنس برأيه. وذلك لعلمها بأنّه قد تسلّم منصبه منذ فترة وجيزة، وأنّ لديه من المهام والتكاليف ما له الأولويّة من دون شك، الأمر الذي يغدو فيه موضوع شكوى موظّفة تمّ الاستحواذ على مهامها من موظّفة أخرى أمرًا سخيفًا ومثيرًا للشفقة. وهي لا تريد أن تعرّض نفسها لمواقف تتداخل فيها المسؤوليّات والمصالح، ويصعب رصد المتسبّب بها. هل المتسبّب بمشكلتها هو مديرها الجديد؟ أم مليكة؟ أم مَن نقلها من الأرشيف إلى مكتب الملحق الثقافي، ومكّنها من فرض سلطتها على المكان؟ أم هي بذاتها كانت السبب؟ حين قضت المقادير بوفاة شقيقها، ثمّ تأخّرها في العودة بعد ما ينوف على الشهر؟

عادت سهام للوقوف في تقاطعات الطُّرق التي لا تنفك تخاتلها. كلّما انتهت من مسار وصَعُب عليها المضيّ قُدمًا، وجدت نفسها في المربّع الأوّل إيّاه. واقفةً تدير رأسها في الاتّجاهات، كطائر تائه في ظهيرة، ترك غصنه للتوّ، وتلفّت يبحث عن ظلّ آخر. حين التقتها منال ذات أمسيّة رائقة، تحدّثتا طويلًا عن متلازمة تقاطع الطُّرق. كانت منال أيضًا في نهاية مسارها، تلملم نتائج بحثها العلمي الذي أوشك على الاكتمال، وتهيّئ نفسها للعودة إلى البلاد مع توقيت انتهاء بعثتها الدّراسيّة. شاركتها في التأمّل في مساراتهما، وكيف تقاربت بينهما حتى التقت، ثمّ ها هي على وشك أن تفترق. باحت لها منال بهواجسها بشأن المتغيّرات التي تربض لها في منعطف الطريق: متغيّرات المكان والعمل والعلاقات؛ هواجس مواجهة الذات، ومخاوف الوحدة، وقلق المستقبل.

كان قد مضى على استقالة سهام ما يقارب الأسابيع الثلاثة، حين رنّ جرس هاتفها قبيل الظهر. كانت المتحدّثة من مكتب السّفير، تطلبها لترتيب موعد للقائه متى ما سنحت لها الفرصة. احتارت وهي تقلّب فكرة ترتيب الموعد. ماذا بقي لها هناك في السّفارة؟ على حدّ علمها، ليس هناك إعلانات عن وظائف شاغرة على مستوى مؤهّلاتها وخبرتها. أمّا مسألة العودة إلى المكان ذاته، فلم تعد من ضمن أمانيها بعد أن خبرت الأجواء والملابسات. نهضت تلملم شتات الفرضيّات التي ما فتئت تعاودها. اغتسلت، وارتشفت قهوتها على عَجَل، وخرجت للقاء أروى العائدة للتوّ من جدّة، وقد ران على قلبها شيء من الطمأنينة، كأنّها تسلّم نفسها مرّة أخرى لتدابير الحياة، تأخذها حيث تشاء.

في أحد منعطفات «نايتس بريدج» كانت الطاولات تلتمّ تحت مظلّات الأرصفة، تتهدّل فوقها النباتات المتسلّقة، وقد اختلطت ألوان زهورها وأينعت. شمس العصر تتسلّل شحيحة تحت الطاولات وقوائم الكراسي، وتترك بعض الألَق في كؤوس الشاربين وعلى صفحات الوجوه التي أقبل بعضها على بعض، يتشاركون في الأحاديث والوجبات الخفيفة. طلبت سهام صحنًا من السَّلَطة الخضراء، وأروى اختارت شوربةَ دجاج بالذرة. باتت أروى تكتفي بمثل هذه الوجبة، التي تكفيها طوال النهار، بعد أن ضاقت مساحة الشهيّة، وانشغل الفكر. كانت جلسة العصر في هذا الحي الهادئ، كفيلةً بأن تهيّئ أروى للفضفضة والتّفكير بصوت مسموع، وسهام للإصغاء الجميل والمشاركة في توجيه تلك الأفكار نحو مسارات أكثر حياديّة. كانت أروى لا تزال في عاصفة من الحيرة، تتلاطم بها

الأمواج بين مدّ وجزر. ولا يزال قرارها بشأن الارتباط بسلمان بحسب شروطه يمض قلبها، ويشلّ تفكيرها، فتقف كطفلة أمام لعبة تبعثرت أجزاؤها، فلا تعرف من أين تبدأ التّنضيد والتركيب. بعد إعادة لشرح ما حدث وما قيل بينها وبين سلمان، أردفت أروى:

هل تعتقدين أنّه يحبّني فعلًا؟

هذا الأمر يمكن أن يُحسّ، ويُعزَف قلبيًا. أنا لا أستطيع أن أحكم.

اختلط عليّ الأمر وبدأتُ أشك في كلّ شيء.

...

أخافتني نجوى بقولها إنّها قد تكون زيجة مؤقّتة لا غير.

أروى، اسمعي جيّدًا: حين يحتار الإنسان بين اتّجاهين عليه أن يحسب الأرباح والخسائر بعقلانيّة محضة، ثمّ ينظر إلى الكفّة الراجحة.

المعنى؟

اخرجي من مظلّة مشاعرك لوهلة من الوقت، ثمّ انظري إلى الموضوع من الخارج. ماذا ستربحين من هذه الزيجة، وماذا ستخسرين؟ مشكلتك أنّك تعيشين العلاقة برومانسيّة مفرطة. ولكنّ الزواج قرار عقلانيّ، في الدّرجة الأولى.

لا تنسَي أنّه عرض لزوجة ثانية... يا له من حظّ!

وهذا أدعى للتّفكير بوعي وانتباه أكثر... عزيزتي، حدّدي أهدافك رجاءً.

أهدافي؟

تعالي نحدّد قائمة بالأرباح أوّلًا، ثمّ قائمةً بالخسائر.

أحبّ أن أسمع تحليلك. أشعر بأنّ عقلي قد توقّف.

هدفك الأوّل، كما أفهمك، هو أن تستقرّي في بيت، وأن تنجبي أطفالًا. أليس كذلك؟ سلمان قادر ماديًا على أن يمنحك بيتًا، سواءً هنا في لندن أو هناك في جدّة. وأمنية الأمومة قد تتحقّق، فتكسبين سندًا معنويًا، سواءً استمرّت الزيجة أم لا. وبذلك ستخرجين بهذين المكسبين على أقلّ تقدير.

...

أمّا إذا استمرّت الزيجة، وأثمرت استقرارًا ومودّة ورحمة، فذلك هو المكسب الأكبر.

«والعنود»؟ زوجته الأولى؟

ما لنا وزوجته الأولى الآن؟ العرض المقدَّم إليك أن تكوني زوجة ثانية. ليس هناك عرض آخر. فَلْنَبْنِ على ما هو واقع، ولا تخرجي عن السِّياق، وتشتّتي أفكارك.

والآن دعينا نحسب الخسائر.

أوّلاها قبول الزوجة الثانية.

طبعًا، عليكِ أن تتعايشي مع هذا الوضع، وتقبليه كواقع. الشيء الآخر أن تتوقّعي ما تظنّ نجوى أنّها زيجة مؤقّته. أمّا الخسارة الثالثة المتوقّعة، فهي ما ستؤول إليه الحال، في حالة الانفصال، وتحمّل وضع المطلّقة، ثمّ التنازع على الأبناء إن وُجدوا. طبعًا هذه كلُّها احتمالات، ولكن لا بدّ من أن تضعيها في الاعتبار.

والخلاصة؟

الخلاصة أن تدرسي قائمتي الأرباح والخسائر، ثمّ تقرّري على مهل. هو قرار مهمّ فلا تستعجلي، واستفتي قلبك.

كان المساء يهبط متباطئًا، حين غادرت الصديقتان مطعم الحيّ الهادئ، ومضتا تتمشيان الهوينى وتستكملان ما تناثر من حديث. حين عادت سهام إلى مسكنها، كان أمامها متّسع من الوقت لإجراء بعض المكالمات المؤجّلة، كالاطمئنان على الدكتور عبد المنعم بعد وعكة صحيّة، وتهنئة نجوى بأداء العمرة، والتّحدُّث إلى أرملة شقيقها لتفقُّد أحوال الأبناء. أمام أبخرة شاي النعناع، التي تتصاعد إلى أنفها، فتجعل المساء أكثر حنانًا، استذكرت موعد السّفارة في الغد. نهضت تتفقّد ملابسها. علّقت سترة بلون كحليّ على باب الخزانة، ثمّ تناولت بلوزة قطن بيضاء، وشرعت تكويها بإتقان. في الخلفيّة كانت شاشة التلفزيون مفتوحة على قناة «آي تي في»، تعرض حلقة من مسلسل «مون لايتننغ»، بحيث يبدو الممثّل بروس ويليس شابًا يافعًا.

وهي تجلس في مكتب السّفير في اليوم التّالي، لمح إلى أسفه لكونها تركت العمل في السّفارة، من دون أن يتوقّف عند أكثر من ذلك. وهي بدورها شكرته على كياسته، ولم تستحسن الخوض في أمر لم يعد ذا أهمّيّة، وخصوصًا بعد أن حدست أنّ هناك موضوعًا آخر أُستُدعيت من أجله. بدأت الأمور تتّضح حين بدأ السّفير يلمّح إلى سيرتها المهنيّة، ثمّ يقف عند خبرتها في مجال تدريس اللُّغة العربيّة التي مارستها كعمل

إضافي في معهد بوليتيكنيك. قال إنَّ أبناءه وأبناء زملائه من الدّبلوماسيّين في السّفارة في أمسّ الحاجة إلى دراسة اللُّغة العربيَّة، كونهم ملتحقين بمدارس إنكليزيَّة كما تقتضي أحوال وجودهم في بريطانيا. وهناك خشية كبيرة من أن تفوتهم فرصة تعلُّم لغتهم قراءةً وكتابةً في الصِّغر.

أردف بأنَّه يعرض عليها عملًا حرًّا لا علاقة رسميَّة له بالسّفارة. وأنَّ هناك مرونة كبيرة في أوقات التدريس، التي ستكون خلال المساء أو في عطلة نهاية الأسبوع. وكذلك مرونة في التَّحرُّك في المكان، إذ من الممكن أن يأتي إليها الأبناء في مسكنها إن أحبَّت، أو أن تأتي هي إليهم في منازلهم. وفيما يتعلَّق بالمنهج الدّراسيّ، فإنَّه يفضِّل أن تتّبع معهم منهج وزارة التَّعليم في بلادهم، حتى يتمكّنوا من التّقدُّم للاختبارات لاحقًا من دون عوائق.

كانت تصغي إليه باهتمام، وهي تدير في رأسها بنود هذا العرض الذي لم يخطر لها على بال. وقبل أن تعقّب عليه، نوَّه بابتسامة مُطمَئنة تفترش وجهه، بأنَّ المناهج تحتوي على نصوص قرآنيَّة وأحاديث نبويَّة، ويعتقد أنَّ ذلك لن يشكِّل عائقًا بالنّسبة إليها. تماهت مع ابتسامته مؤكّدة له أن يعتبرها ثنائيَّة الدّيانة والثقافة، إذ لطالما كانت النصوص القرآنيَّة من ضمن ما حفظته في مناهج المدرسة منذ كانت تلميذة صغيرة. أما الثقافة الإسلاميَّة فهي مشاع في بيئتها ووسطها، وحوار متسامح ممتد نشأت عليه واعتنقته وطبَّقته. ودَت، وهي في خضم تفسيرها لهويَّتها الثقافيَّة، أن تسترسل في الحديث عن الوسط الذي ترعرعت فيه، وما حفل به من تناغم بين مسلمين ومسيحيّين ينتمون إلى الأرض والعشيرة واللُّحمة ذاتها. يتشاركون في الأعياد، ويحترمون التقاليد والمعتقدات، ويؤازر بعضهم بعضًا.

خرجت سهام بعد أن أنهت المقابلة، بنَفس رضية وقلب ممتلئ بالأمل. عليها أن تفكِّر باسترخاء في هذا العرض، الذي سيوفر لها متَّسعًا من الحرِّيَّة والوقت. تستطيع الآن أن تستمتع بما تتيحه لها الساعات المرنة من فراغات صباحيَّة، هي التي تعشق أن تكون بدايات يومها رخيَّة من دون عجلة ولهاث. تستطيع الآن أن تنهض من نومها على صوت الراديو الذي ضبطته على المنبّه؛ أن تتمطّى في الفراش إلى أن تنتهي نشرة الأخبار أو أغنية بوب تحبُّها؛ أن ترتشف قهوتها على مهل، وتنتظر منقوشة الزعتر حتى تتحمَّص في الشواية، وتنبعث منها تلك الرّائحة الزّكيَّة التي

تذكّر بالعافية. سيكون لديها متّسع للقراءة أيضًا. تأخذ كتابها إلى متنزَّه قريب وتستغرق فيه. تدوّن ملاحظاتها، وترتّب أفكارها للنقاش في ملتقى النادي الثقافي العربي. تذكَّرت كم تفتقد تجمّع هذا النادي، وتشتاق إلى حضور عبد المنعم هناك، وتعقيبات نجوى ومنال، والشلّة، والجدل الصاخب.

حين كانت منال تلملم نتائجها الأخيرة استعدادًا لاختبار التقييم النهائي لبحثها العلمي في «إمبيريال كوليدج»، كانت الأيّام المتبقية لها تتساقط كأوراق شجرة أكملت دورتها. لم تكن في عجلة من أمرها. تمارس حياتها اليوميّة بلا انتظارات أو توتّر، كأنّها تعقد هدنة مع الآتي، وتدع الأشياء تترتّب كما تشاء. الشقّة الصّغيرة بقيت كما هي: كلّ شيء في مكانه. الأريكة المستريحة؛ طاولة الكتابة؛ الطابعة؛ السرير؛ كلّها ستظلّ في أماكنها. حتى خزانة الملابس، لا تزال تزدحم بالمعاطف والشالات والأحذية. بعد يوم الاختبار النهائي، سيتبقى لها فسحة من وقت الصيف الذي ستطول نهاراته، وسيمتلئ بالمصطافين والشمس، ويتمدّد كما يحلو له حتى قبيل العاشرة مساءً.

خرجت من غرفة الاجتماع بعد تقييم بحثها العلمي وإجازته، والسّكينةُ تغمر روحها من دون صخب. كأنّها كويكب صغير أتمّ دورة في مدار مجرّته، وتاب إلى حضن الفضاء الكوني ينداح في الفراغ. التقت الصديقات وزملاء القسم في مقهى الكلّيّة للتّهنئة بالدّرجة العلميّة الرّفيعة، وهي تنقل بينهم نظراتِها بامتنان ورضًى. لم تستنكر شعورها المتبلّد بعد اجتيازها هذه العتبةَ الحاسمة، بعد مسيرة تنوف على السنوات الخمس، أمضتها بين المختبرات والمكتبة والطباعة. أضحى كلّ شيء حولها اعتياديًا الآن؛ ومجرّد تحصيل حاصل، وبات حصادًا مستحقًا لزرع تقت رعايته وسقيه.

لم تكن السّكينة المتبلّدة التي اجتاحت منال، وهي تتلقّى التهاني، علامةً من علامات الاتّزان والرزانة فقط، وإنّما كانت سكينة مموّهة بأسًى يُثقل القلب. شعرت بالفقد وهي تُنقل نظراتها بين الأصدقاء والزملاء، من دون أن ترى ياسرًا بينهم. مكانه الفارغ يُسقطها في هوّة صفراء فاغرة، وغيبته لا تزال علامة استفهام معلّقةً، كبندول ساعة هربت عقاربها في العدم. لو كان هنا الآن، يشعّ وجهه بالابتسام، ويهزّ رأسه تلك الهزّاتِ المتواترةَ التي تدلّ على الاستحسان، ثمّ يُرجع نظارته إلى الوراء كلّما انزلقت فوق أنفه، ويجلس متحفّزًا... لو كان هنا! مكتب السكرتارية في قسم الفيزياء لم يَشفِ غليلها. كلّما عاودت الاستفسار عنه، لا تجد غير إجابة: لا توجد رسائل أو استجابات منذ الإشارة الأخيرة والوحيدة.

مضت ستّة أشهر منذ رحل ياسر، وشهران منذ أنهت منال اختبارها

النهائي. مع وصول شيك الرواتب الأخيرة، كان عليها أن تحزم أمتعتها القليلة، وتبدأ مَدارًا جديدًا. في الطائرة العائدة إلى الوطن، كانت تجلس إلى النافذة وترى لندن تصغر وتصغر، ثمّ تتوارى وراء السُّحب المنخفضة، وتتلاشى. استدعت ذاكرتها رحلتَها الأولى المعاكسةَ، من الكويت إلى لندن. كانت تجلس إلى النافذة ذاتها، وترى مدينتها تصغر وتصغر، حتى تتلاشى. بكتْ لحظتها بحرقة، وهي تودّع حياتها هناك؛ حياة لم يكن فيها ما يستحقّ البكاء عليه، ولكنّها بكتْ على الرّغم من ذلك حتى غلبها الإعياء فنامت طوال الرحلة. والآن، تنظر إلى لندن وهي تتلاشى، وقد تجمّد فيها كلّ شيء. جفّت مآقيها وتحجّرت، وتوارى قلبها وراء فراغ موحش. تشعر بالإعياء فقط، وتريد أن تنام.

عادت إلى بيت العائلة في منطقة «الدسمة»، لتسكن في الطابق الثاني. بدا المكان متّسِعًا وفضفاضًا، يفيض عن حاجتها إلى الحميميّة والاحتواء، اللذين اعتادتهما في الشقّة اللّندنيّة الصّغيرة. الحوش يلفّ البيت من جهاته الثلاث، بأحواض لشجيرات غابرة زُرِعتْ لصق السور العالي، لم يتبقَّ منها الآن غير أعواد تقاوم الجفاف والإهمال. في الواجهة، تتمدّد شرفتان واسعتان تتدلّيان من الطابق الأوّل، تبدوان كبقايا خيال مهندس ظنّ أنّهما ستكونان مسرحًا للفُرجة والأنس. ولم يدرِ أنّه لن تطأهما قدمٌ منذ أقفل البابان المؤدّيان إليهما بالمفتاح والصدأ، فباتت الشرفتان مأوًى للغبار والنسيان وكراكيب من مخلّفات البناء. لا يختلف بيتهم كثيرًا عن بيوت الجيران، في منطقة كانت تشهد تحديثًا عُمرانيًا منذ ثلاثين سنة خلت. اختلطت خلالها الأذواق والأفكار، فأتى المعمار هجينًا، يتباين بين نظام البيت العربيّ المفتوحة غرفه على الحوش، والنّظام الغربيّ الملتفّة غرفه على نفسها، تاركة الحوشَ يحيط بها في الخارج. تقاربت البيوت عبر الشوارع الداخليّة التي تمتدّ وتلتوي، لتُفضي إلى دُوّار صغير، أو محلّ لخياطة السيّدات، أو كوّاء هندي يغالب الحرارة والضجر. تقاربت البيوت قسرًا في صفوفها المتفرّعة، وتشابهت في صمتها، وشرفاتها المهجورة، وانكفائها على العزلة.

اكتفت منال بغرفة واحدة، تُفضي إلى «كاونتر» لمطبخ مصغّر، لم يُطبَخ فيه شيء البتّة. تركت الطابق الأوّل لأبيها الذي طعن في السنّ في غيبتها، ولزوجته التي طعنت في اللّامبالاة، ولسائق وخادمة لا تراهما إلّا لمامًا. بهتت في ذهنها صور الطفولة، وانطلق الأخوة كلّ إلى شأنه. وكادت تنسى وجه أمّها، فتكدّ في محاولة استرجاع قَسَماته التي تلاشت،

وتلاشت معها همهماتها الخفيضة وسعالها اللَّيلي. باتت تستوحش المساء، في تلك المساحات الخالية، والأسقف التي تَقَشَّرَ طلاؤها، ورائحة الصدأ التي تنبعث من الصنابير. لم يعد هناك من يبالي ببيت قديم يدبّ نحو البِلى، وتتأكّله السنوات.

الحركة تكاد تكون معدومة في حيّهم، عدا عن أبواب سيّارات تُفتح وتُغلَق، أو خادم يرشّ الماء بلا رحمة على نخلتين عجفاوين تقفان أمام بيت الجار المقابل. في اللّيل لا يخدش الصمت الهامد سوى خشخشات القطط السّائبة، تمزِّق أكياس القمامة السوداء بحثًا عن رزقها، وسوى جَلَبة عمّال النّظافة يُفرغون الحاويات بعد السّاعة الثانية عشرة ليلًا. لا تجد منال ما تفعله في مساءاتها الطويلة، سوى الإنصات إلى هذه الحركات الرّتيبة تتكرّر كلّ يوم وليلة. تُطلّ برأسها من فُرجة السّتارة تراقب الرّتابة والعدم، والصيف الذي يندلق بلا نهاية.

الزمن مضى سريعًا في غيبتها. أبوها شاخ وتقلّص جُرمُه وقلّ كلامُه. والبيتُ فَقَدَ رونقه وبَهُتت أصباغه واستوطنته رائحة القِدَم. والشارع أمام بوّابتهم بات أضيق ممّا تتذكّر. وشجرة الكافور في بيت الجيران بدت أطول وأنحف وأكثر انحناءً، بعد أن هرَّت أوراقها أو كادت. هل حقًّا هذا هو الشارع ذاته الذي كان يقف فيه باص المدرسة؟ يطلق بُوقه مزمرًا، فتخرج في زيِّها المدرسيّ وحقيبةُ كتبها تقفز داخله، فينطلق. كيف تراكمت فيه السيّارات الآن حتى لم يبقَ له رصيف أو شاهد على رصيف؟ تجلس في مقعدها، ويسير الباص بضعة أمتار ويزمّر لتخرج نسيمة وعواطف؛ ثمّ بضعة أمتار أخرى لتخرج ابتسام. تزوّجت نسيمة وأختها عواطف في وقت متقارب في صباهما حين كانتا لا تزالان في المرحلة الثانويّة. عرس عواطف الذي أقيم في الحوش كان صاخبًا بالبهجة والأطفال وروائح الطبخ. مُدّت قطع السّجاد على الأرض، وغُلّقت قماشة بيضاء على الحائط، وُضعت أمامها كنبة عريضة. شُدّت ثلاثة أسلاك من الكهرباء تتدلّى منها اللّمبات الملوّنة. كانت عواطف تجلس بفخامة الأبيض وقد توهّج وجهها بالحُمرة والكحل، واستطال رأسها بتسريحة «الشينيون»، كأنّها لم تعد طفلة الخامسة عشرة. تلا ذلك زواجُ نسيمة بعد أقلّ من سنة. لا بدّ من أنّهما الآن تعيشان في معمعمة من الأبناء الذين كبروا وشبّوا عن الطوق. متى كان ذلك؟ ربّما منذ ما يقارب عقدين من الزمان.

أمّا ابتسام... فمسكينة! عامت في ذاكرتها مأساة أم ابتسام، حين

سكبت على نفسها «الكاز» وأشعلت ثيابها. يومها عادت أمّها إلى البيت لاهثة، تخبر بما سمعت من الجارات. قلن إنّ المنتحرة ظلّت تركض في الحوش شعلةً من النار، حتى إنّ جلد قدميها التصق ب «كاشي» الحوش. فضّلت أن تموت على أن تتحمّل ضرّة تصغرها عمرًا وفتنة. نهشتها الغيرة حتى قتلتها. من نافذتها لا ترى بيت ابتسام في عطفة الشارع. لم يُسمَع عنهم الكثير بعد المأساة. ظلّ بيتهم منطويًا على أسراره وساكنيه، إلى أنْ بيعَ أو أجّر لامرأة مُسنة وولدها الوحيد. كان للابن الشابّ سيّارةُ «فولكس واغن» زرقاء، ينحني بقامته الطويلة ليدخل فيها، معتمرًا «غترته» يلفّها كيفما اتّفق، وينطلق مسرعًا. هل كان يهرب من شبح أمّ ابتسام، وروحها التي لا تزال تركض في الحوش شعلةً من نار؟

تعود من ذكرياتها الموغلة أكثرَ وحشة. ما لها ولهذه الصُور الكالحة الآن. تفكّر في أن تقترح على أبيها زراعة الأحواض الجافّة في محيط البيت. لعلّ ذلك يضخّ بعض الحيويّة في المكان. ستطلب من السّائق أيضًا أن يساعد على تبديل اللّمبات المحروقة فوق السُور، فالعتمة لم تعد محتمَلة. شخصت من نافذتها في اللّيل الذي يربض في الخارج، وتابعت قطًا أسود يلوذ بحاوية القمامة، ويموء بصوت أجش.

في الطريق إلى العمل صباحًا، تفضّل أن تمرّ بشارع البحر، الذي يستغرق منها وقتًا أطول للوصول. بيد أنّه يبقى أكثر أنسًا ورأفة، وأليَقَ بمزاجها الصباحي، وأقلّ ازدحامًا. عكفت في الأيّام الأولى على التّعرُّف إلى إيقاع العمل، الذي بدا لها روتينيًا ورتيبًا. احتاجت إلى المزيد من الصبر لتتقبّل بيروقراطيّة الإدارة، ورخاوة النظام، وتداخل الاختصاصات؛ أن تتعامل مع غربتها في المكان، والوجوه التي تتعرّفها برويّة وتحفُّظ. عليها الآن أن تفكّر بطريقة مختلفة، وتُخفض من سقف توقُّعاتها، وتقلّل من حماستها بما يتناسب وواقع الحال.

في أيّامها الأولى، التمّت حُفنة من الأهل للتّهنئة بالعودة الحميدة. ثمّ كرّت الأيّام، وتباعد العهد بهم. كانت منال تحتاج إلى جهد مضاعف، لتستعيد لياقات التعامل مع الأقارب. يرمقونها الآن بشيء من التّحفُّظ، وترمقهم بشيء من الخشية، كأنّها تحتاج إلى أن تعيد تعريف نفسها، وتقديم جردة جديدة بالمتغيّرات التي اجتاحتها، فقطعت بينها وبينهم السُبلَ، أو كادت. هي أيضًا تحتاج إلى أن تستوعب متغيّراتهم؛ أن تفهم غربتها حين تضيع في الصَخب في حفلات ميلاد أطفال وُلدوا في غيبتها، أو آخرين شبّوا عن الطوق وصعُب عليها التّعرُّف إلى ملامحهم اليافعة.

تجلس بينهم كغيمة وحيدة ملتفّة بضبابها، بينما تنصرف النسوة للحديث عن أزواجهنّ وأطفالهنّ، وحيواتهنّ الأسريّة الضاجّة بالانشغالات والهموم. عليها الآن أن تعتاد النظرات الموارِبة، حين تجلس بشعرها المكشوف بمعيّة سرب من النسوة الملتفّات بالحجاب، لتبدو كنبتة ناشزة عن السّياق. نسوة كنّ قبل سنوات قليلة يرتدين «الميني جيب»، ويطلقن شعورهنّ للريح، ويطرقن بكعوبهنّ العالية أرصفة شارع فهد السالم وبحمدون لبنان. والآن، يوجّهن إليها دعوة إلى حضور احتفاليّة عائليّة، لتكتشف أنها مدعوّة إلى حفل «تحجيب» طفلة في التاسعة من عمرها، بلغت «سنّ التّكليف». وعليها أن تفهم المغزى من الدّعوة وتهضمه على مهل.

لم تكن متغيّرات الأقارب والمعارف وزملاء العمل، غيرَ جزء لا يتجزّأ من متغيّرات عامّة، تشهدها في كلّ مكان في محيطها. تراها في الإعلانات والجداريّات الممتلئة بعبارات الوعظ والزجر، والأمرِ والنهي، تتنافس في الغلبة والوفرة، وتتمدّد على أسوار المدارس، وتحت الجسور، وعلى مقاسم الكهرباء، وتتناثر في الكتيبات والبوسترات التي غزت الوزارات والمؤسّسات الخدميّة واستشرت. تشهدها في التلاوات القرآنيّة الصادحة، والتي خرجت عن مقاماتها المتعارَف عليها وأجوائها الخاصّة. وباتت تُدار في الأسواق، ومحالّ بيع الأحذية والملابس النسائيّة، وصالونات تجميل السيّدات، حيث تنشغل «الزبونات» عن التلاوة ب «المانيكير والباديكير»، ونتف الحواجب وإزالة الشعر. وتشهدها في الشباب الذين أطلقوا لحاهم، وقصروا أثوابهم، وتسيّدوا المنابر، يعظون ويتوعّدون؛ في وسائل الإعلام التي غدت خادمًا مطيعًا لخطاب ينحو نحو الغلوّ ويقود الجميع نحو حظيرة المحافَظة؛ في التكتّلات والجماعات التي تسمّت بمسمّيات أصوليّة، وباتت تقود المشهد العام لمجتمعِ أواخر الثمانينيّات ومطلع التسعينيّات، وتحثّ الخطى لصبغه بسمات الإسلام السياسيّ، تماشيًا مع الجوّ العامّ للمنطقة. كان المشهد بانوراميًا بحقّ، وكانت منال تحتاج إلى التروّي والمسايرة حينًا، وإطلاق الأسئلة وعلامات التعجّب أحيانًا أخرى، لتمرّر ما تشهده من تحوّلات بأكبر قَدْر من الصبر والفهم.

كانت منال، في أثناء إعادة اكتشاف مدينتها وناسها، تكابد مشاقّ التشكّل بما يتناسب وراهن حياتها. كانت تشتاق إلى ذاتها الحرّة المكتفية بذاتها؛ إلى الجدّيّة والنّظام والمهنيّة العالية التي اعتادتها؛ إلى دفق البشر في الطرقات، من دون أن يحدّق أحدهم في الآخر ليرى ماذا يرتدي، وماذا يفعل، وماذا يقول. تشتاق إلى الاختلاء بنفسها في متنزّه أو مقهًى، من

دون أن يستنكر أحد عزلتها المتفرّدة، ومن دون أن يسألها النادل إذا كانت تنتظر أحدًا. تتمنّى ألّا يسألها أحد لماذا لا تتحجّب، أو لماذا لم تتزوّج إلى الآن! كلّما عصفت بها هذه العواصف، انكفأت تستفتي قلبها، وأدارت راديو سيارتها على موجة «أف أم»، وانطلقت محاذيةً البحرَ تستمع إلى أغاني البوب التي عشقتها، ترمّم بها مزاجها وروحها المتهافتة؛ أو أدارت قرص الهاتف بادئة بالأصفار، وأصاخت إلى صوت سهام أو نجوى، تملأ به تقوب روحها.

حين تعود منال في آخر النهار إلى غرفتها في الطابق الثاني، يعاودها التّفكير في حياتها المضعضعة، على الرّغم من اللّقب العلمي والوظيفة المُجزية. ماذا تفعل هنا في هذا البيت القديم، والعلاقات الهلاميّة المتداعية، والقلب الفارغ، والعمر الذي يجري؟ هل يمكنها فعل شيء لوقف هذا الغثيان؟

لم يكن أمامها شيء تفعله، عدا الانتظار والترقُّب. وكان على مسارات حياتها المتواضعة أن تخط الطريق وتُكمل المشهد بما تملك من إمكانات. بدأت منال توطّن نفسها على ضرورة البدء بالتّفكير بشكل مختلف؛ شكل يتواءم مع المكان الذي لا بدّ منه، وناسه الذين لا مفرّ منهم، بعد أن جرّبت مرارة الاختلاف وطعم العزلة. كان عليها إمّا أن تبقى قنفذًا متوحّدًا يستعصي على التلامس، وإمّا أن تُنحّي جزءًا من ذاتها المتكوّنة جانبًا؛ تُنحّي متغيّراتها وما وعته وخبرته إلى زاوية خبيئة في روحها، وتباشر الحياة الواقعيّة بأصابع عارية وقلب جسور؛ أن تترك ما ينتمي إلى ذاتها الجوّانية في منطقة التذكُّر والحنين والاختمار على مهل، مدّخرة إيّاه لخلواتها الآتية من دون ندم.

منذ اختطّت منال لنفسها هذا المنحى، وهي آخذة بالتّشكُّل على منواله. فبدأت تشارك في التّجمُّعات العائليّة؛ تحمل الهدايا في مناسبات الزواج والولادة والتّخرُّج؛ تحضر «ختمات القرآن»، وحفلات «تكليف البنات»، ومجالس العزاء. تجلس منصتةً بتأدُّب إلى أحاديث النسوة عن الحسد والعين، والمسلسلات التلفزيونيّة، ووصفات صينيّة الدجاج بالفرن والمعكرونة بالباشميل. تُطيل الإصغاء إلى شكاوى زوجة أبيها من التهاب مفاصلها وارتفاع ضغطها، ومن أعباء العناية بوالدها في سنّه المتقدّمة. لم تعد تضجر وهي تسمعها تتذمّر من رعونة السّائق أو كسل الخادمة، فتلك هي الحياة في نسختها الأصليّة. كان عليها أن تعيش هذه الأجواء الفائحة برائحة الأهل وألوان الواقع الفاقعة، إلى أن وجدت نفسها تضع وشاحًا

ضافيًا على رأسها ذات يوم، وتلفُّه بعناية على شعرها، لتتحوَّل إلى واحدة منهم.

بعد أشهر قليلة من عودتها إلى الوطن، وجدت منال نفسها تستجيب لخطبة تقليديَّة، رتَّبتها إحدى القريبات. كان التوق إلى حياة أخرى وتأسيسِ بيت جديد، هو الهاجس الأعظم الذي طغى على ما عداه من حسابات ومخاوف. لم يعد للتكافؤ قيمةٌ تعلو على قيمة البيت والأمومة وما بينهما من كدح جميل، ستتذوَّق منال حلاواته ومراراته في القادم من العمر.

حين عادت إلى لندن سائحة بعد ثلاث سنوات، كانت تمسك بيدها طفلة في عمر السنتين، وتحمل في أحشائها جنينًا في شهره الثالث.

From:: sihamnahhas@yahoo.com

To: manal_mosayyan@hotmail.com

العزيزة منال...

وأنتِ تضعين ذكرياتنا متوازيةً حينًا، ومتقاطعةً حينًا آخر، تجعلينني أعيد على نفسي السؤال عن معنى الماضي ومعنى الزمن، ومعانٍ أخرى ذات صلة بنسق الحياة التي نحياها، وكيف تسير بنا قُدُمًا. أتساءل أيضًا، وأنتِ تضعين بين يدَيَّ هذا الكمَّ من الاسترجاعات والتَّحليلات للصُّور والمشاهد التي عَبَرتْنا، عن كيفيَّة تعامل الإنسان مع ماضيه، ورؤيته له من زاوية «الآن».

هناك من الناس من لا يُعير لذكرياته التفاتًا، كأن لا آصرة له من مكان ولا زمان، ولا بيئة ولا صحبة ولا أهل. وهؤلاء «الآنيّون» لا أعرف كيف أصفهم. ربَّما هم لا يمتلكون فنّ التذكُّر، أو يخشون الاقتراب من هذه المنطقة المراوغة، التي تختلط فيها الوقائع بالأوهام، والمباهجُ بالمخاوف الغامضة. كلُّنا لدينا هذا الصندوق الأثير، الذي يشبه صندوق الحواة. تختلج في عتمته الأرانب والحمائم والمفرقعات الناريَّة والمناديل الملوَّنة. إنَّ مهارة الحاوي في استخراج أيٍّ من محتويات الصندوق في اللَّحظة المناسبة، تشبه ما تفعلينه أنتِ في أثناء الكتابة، حين تستلّين الصورة أو المشهدَ المناسب في السِّياق المناسب. فتتَّخذ أتفهُ التفاصيل وأقلُّها أهمّيَّةً مواضعَ ناصعة، كأنَّك تستخرجين من أكوام الأنقاض جواهرَ تتعهَّدينها بالصقل والرعاية.

عزيزتي...

تسأليننى عن حالي مع داء المفاصل ومتاعب المشي والحركة. أحاول أن أكون متصالحة مع آلامي، أتعهَّدها بالأدوية المسكِّنة والصبر. لا أحبّ الشكوى، إذ ليس هناك مَن يحمل أوزار الوجع غير صاحبه، فلا أريد أن أزعج الآخرين بشكوى لا تنفع. بل على العكس، أحاول أن أبدوَ مَرِحة وممتنَّة للأيَّام التي لا تزال تشرق عليَّ فيها الشمس، وأن أبادر إلى العمل كلَّما لاحت لي بادرة من عافية أو نشاط. تعرفين أنَّ الترجمة للمرضى العرب، عملٌ يحتاج إلى مرونة وحنكة، وبات الآن، بعد سنوات من الممارسة، يحتاج إلى المزيد من الصَّبر والتفهُّم لمطالب المرضى وأحوالهم المزاجية؛ إذ لا يزال معظمهم يظنُّني «أمَهم الروحيَّة»، وقادرةً على إصلاح أعطاب العالم، بينما أكون أنا في قمة إحباطي، وتعبي من التنقُّل في الزحام، وآلام ساقَيَّ، وعراكي مع مزاج عَكِر، أو

غضبي من سوء ترتيب المواعيد. ولكنّني، على الرّغم من ذلك، أحاول أن أتفهّم حُسن ظنّ المرضى بي، وأدع الأشياء تمرّ بسلاسة.

في السنوات الأخيرة، بتُّ أقسم وقتي بين الراحة والعمل. لا أعمل حين أشعر بتوعُّك صحّتي، وحين تصبح الآلام مبرّحة. وتعرفين أنّني أصبحت أوزّع شهور السنة بين لندن والأردن، وأتنقّل بينهما. فلي بيت هنا، وبيتٌ هناك. ولي مطلق الحرّيّة في الذهاب والإياب، ما دامت مواعيد العمل مرنة ومطواعة، وما دامت حالتي لا تزال تسمح بممارسة هذا اللّون من العمل الحرّ. أنا حاليًا في الأردن، وليت وقتك يسمح بإطلالة قصيرة علينا. فقلبي يشتاق رؤيتك وصحبتك. وربّما أمكن لنا أن نراجع بعض أوراق الرواية معًا.

عزيزتي...

أعاود قراءة أوراقك المرسَلة بالبريد الإلكترونيّ تباعًا، فأجدها مصدر بهجة وحنين لا ينضب. وكثيرًا ما أقطع القراءة، لأنّني على قلبي وهو يعتمل بموجة من المشاعر، تهبّ عليّ من السطور، فتختنق حَنجرتي بالدّمع. لا عليكِ، فهي دموع العافية لا الحزن، وهو شجن التأمُّل لا الحسرة.

في السّياقات الأخيرة من الكتابة، رأيتُ كيف تنتقلين بسلاسة عبر الزمن قُدُمًا، من عقد الثمانينيّات إلى التسعينيّات، مارّةً بالتحوُّلات والمنعطفات التي تجعل لأعمارنا معنىً، ولزمننا بصماتٍ وملامحَ. وها نحن نعبر معًا إلى نهاية العقد الثاني من الألفيّة، أليس ذلك رائعًا؟ أحيانًا يغمرني شعور بالامتنان، لأنّنا عشنا مرحلة جميلة وغنيّة. وإنْ فاتتنا أمانٍ غالية لم نتحصّلها، فيكفي أنّنا استمتعنا بالفُرجة عليها وهي تعبر أمامنا.

كوني بخير دائمًا،

مع محبّتي الخالصة

سهام نخاس

عمّان، 6 أيّار/مايو

2018م

from: manal_mosayyan@hotmail.com

to:: sihamnahhas@yahoo.com

يا صديقتي الأغلى... سهام

تعقيبًا على ما انتهيتِ إليه في رسالتك الأخيرة، بشأن سَير الأحداث قُدمًا في الزمن، أقول إنّني شعرتُ بشيء من الاطمئنان، لأنّكِ كنتِ عيني الثانية وشخصي الاخرَ؛ إذ إنَّ الانغماس في الكتابة يُشعر بالتوحُّد مع الذات، وعدم اليقين بآليّة التلقّي، ومدى قدرة المادة المكتوبة على توصيل المعنى.

أستحضر الآن ما قلته لكِ في رسالتي الأولى، حين الشروع في كتابة هذه الرواية، بخصوص استلهامي نموذجَ العنكبوت، حين تغزل خيوطها وتبني بيتها متأنّيةً ومستغرقةً في النَّسج. وقلتُ أيضًا إنّني أقف عاجزة أو هكذا يَخيّل إليّ عن هندسة حكاياتي والتّصرُّف بذاكرتي، كما تفعل العنكبوت حين تهندس بيوتها المتراصّة، وتجعل لكلّ بيت مساحة، ولكلّ فراغ مدًى تهوي إليه مطمئنّةً إلى خطّة وغاية.

والآن، وأنا في صدد إغلاق الحكايات على نهاياتها، هل تعتقدين أنَّ نسجي للأحداث، ثمّ محاولتي ربطَ كلّ حكاية بأخرى بجُسور ووشائج، استطاعا أن يصنعا هيكلًا ذا معنى؟ أم تُرانا نحتاج إلى قارئ ثالث غيرنا، من خارج الحكاية ومن خارج الذاكرة، يُعين على الرؤية والتقييم؟

تلك هي بعض أسئلة الكتابة والقراءة، وما بينهما من سوانح الظنون. بيد أنّني بعد قطع هذا الشوط من الكتابة ما عاد يهمُّني السّبق في مضمار الإتقان، أو الدّخول في سجال مع مهارات الصّنعة، ومدى تحقُّقها أو الاقتراب منها. ما يهمّ الآن، هو تلك السّعادة التي تمنحنا إيّاها الكتابة، والتّوق الذي تحملنا إليه القراءة، غير عابئين بمؤونة الظنّ، أو منتظرين غنيمةَ التقريظ.

أتركك بحفظ الله،

ودمتِ بخير

منال مسيّان

الكويت، 10 أيّار/

مايو 2018م

لم تكن لينة الصغيرة تدرك معنًى لاحتفاليّة عيد ميلادها الثاني الذي سيحلّ بعد يومين، ولا كانت منال تعرف، وهي في حماسة تحضيراتها لحفل ابنتها في شقّتها اللّندنيّة الصّغيرة، أنّ الحفل لن يتمّ. منذ الصباح وهي تُجري اتّصالاتها لتنظيم حفل صغير و«ملموم» لإسعاد الصغيرة، وإضفاء جوّ من البهجة والمرح على المكان. هم في إجازة الآن، وقد احتاجت الشقّة المهجورة منذ ثلاث سنوات مضت، إلى بعض الجهد والتّنسيق لتعود إلى زواياها نفحةٌ من الرّوح والدفء بعد غيبة وهجران.

تعرف منال سلفًا قائمة الأصدقاء الذين ستُوجّه إليهم الدّعوة: سهام، وفايزة، وأروى، ونجوى، والزوجين سميحة وهشام. اكتفت بستّة أشخاص لمحدوديّة المكان، ولرغبتها في إضفاء الحميميّة على التّجمّع، وإعطاء فرصة للتقارب مع وجود افتقدتها في السّنوات الثلاث الأخيرة، وتاقت إليها. استشارت سهام بشأن مقترحات لأطباق عشاء خفيف، وأوصت على كيكة مرحة وشمعتين، ونوعين من الحلويات. في نهاية اليوم، مرّت على «متجر جون لويس»، لانتقاء بعض الزينة الورقيّة والبالونات. واتّجهت مباشرة إلى الطابق السفلي وهي تدفع عربة لينة، التي باغتها النوم وسط زحمة المتبضّعين، كأنّ الأمر لا يعنيها في شيء.

مرّ المساء هادئًا. لم يقطع اعتياديّته سوى أخبار مشوّشة تبثّها شاشة التلفزيون المضاءة على محطّة «بي بي سي». فالتقارير الإخباريّة، التي ما فتئت تَرِدُ عن الكويت منذ أيّام، لا تزال يلفّها الغموض. مناورات وجولات مكوكيّة. وفود يتنقّلون بين بغداد والرياض والقاهرة، ورؤساء دول يصرّحون ويتوعّدون ويحذّرون. اجتماعات مكثّفة لا تُفضي إلى شيء، وملاسنات بين الكبار واصطفافات، وفائض كثير من الكلام المدجّج بالعدائيّة والنيّات المبيّتة. في الشاشة المضاءة، حيث تحدّق منال بقلق، يقف محلّلون إخباريّون أمام خرائط مكبّرة للحدود الكويتيّة العراقيّة، يشيرون إلى مواقع عسكريّة ونقاط ومسالك، تبدو أمام المُشاهد كأحجيّة مُلغِزة، أو مسرحية تتصاعد أحداثها فصلًا بعد فصل، وتوشك أن تصل إلى قمّة عقدتها التراجيديّة، ما إن يأذن المخرج بذلك.

استيقظت منال صباح الخميس، ودلفت إلى المطبخ تسخّن وجبة الحليب بالبسكويت للصغيرة، وتتفقّد مهدها. عاودها غثيان الصباح، فعاجلته بشاي النعناع الدافئ، لعلّه يخفّف من اضطراب مَعِدتها الخاوية،

بعد أن باتت الرّوائح تزعجها كالعادة في بداية الحمل. حتى رائحة الحليب السّاخن ما عادت تطيق نكهتها، وعليها أن تتكبّد مشقّة إطعامه للصغيرة ما وسعها ذلك.

برنامجها اليوم لن يخرج عن الذهاب إلى السوبرماركت لجلب مكوّنات العشاء الخفيف ليوم غد. وستمضي بقية اليوم في تعليق الزينة، وإعداد أدوات المائدة، وربّما صنع طبق «كريم كاراميل» ووضعه في الثلّاجة ليبرد على مهل. وإن بقي لها متّسع من الوقت مساءً، فستأخذ لينة إلى ملعب الأطفال القريب في «كنسنغتون غاردنز»، قبل غروب الشمس.

أجلست لينة في حجرها، وهي تذكّر نفسها بضرورة تفقُّد تذاكر السفر، والتأكُّد من يوم العودة إلى الكويت، والذي سيكون في غضون أسبوعين من الآن. ضغطت على جهاز ال «ريموت كونترول»، لتتابع الأخبار التي أقلقتها منذ يوم أمس. خفضت صوت جهاز التلفزيون لئلّا يوقظ الزوج النائم. لم يزل الإرسال على محطّة «بي بي سي» منذ البارحة. بدا لها صوت المذيع أكثر جدّيّة وحدّة وهو يطلق عناوين الأخبار الرئيسيّة، في حين تناوبت لقطات الكاميرا على هيئة المذيع بوجهه الرّصين، وخارطة الكويت مكبّرة تملأ الشاشة. تبدّلت العلامات على خارطة اليوم مقارنة بالأمس، بينما المذيع يعلن تحرّكات الحشود العراقيّة من مواقعها السّابقة، مخترقةً الحدود الكويتيّة في اتّجاه العاصمة. وأكمل قراءة الخبر بلهجة تدلّ على حَرَج الحالة، وتصاعدها إلى مستوى الكارثة.

تلا ذلك عرضُ مشاهد مشوّشة ومتقطّعة لدبابات وآليّات عسكريّة تحمل العلم العراقي، منطلقة فوق شوارع أسفلتيّة. أرتال من الجنود، يطلّون من كابينات الدبّابات والآليّات، جماعاتٍ وأفرادًا، مموّهين بالدُّخان وصهد الشمس. وطائرات هيلوكوبتر متفرّقة تحلّق، في حين تلامحتْ أبنية لمواقع عسكريّة حدوديّة تائهة بالفوضى وأصوات إطلاق النار.

ارتجفت آنية الحليب بالبسكويت في يد منال، فوضعتها جانبًا. واستدرجت لينة إلى صندوق لُعَبها ذاهلة. دخلت توقظ زوجها، لعلّه يشاركها في الصدمة أو يفسّر لها ما يحدث. بحلق الاثنان في الشاشة يتابعان المشاهد الموجعة، ويتبادلان الأسئلة. ما هذا؟ متى حدث ذلك؟ وكيف؟ ولماذا؟ أسئلة لم يجدا من يجيب عنها، وهما في دوّامة حدث لا يُصدّق، وكَرْب نزل عليهما كالصاعقة. بحثا عمّا يُطمئنهما في محطّة تلفزة أخرى، كأنّهما ينكران ما يحدث، ولكنّ الأخبار كانت مؤكّدة وحقيقيّة.

أجرى الزوج بعض المكالمات اللّاهثة مع معارفه في لندن، كأنّه

يستمدّ عونًا على الإقرار والتّصديق بما يحدث. خطفت منال السّماعة منه ما إن انتهى، وضغطت على أزرار الهاتف، بادئةً بالأصفار، ثمّ المفتاح الدوليّ للكويت. جاءها الخطُّ مشوَّشًا ومتقطّعًا. ثمّ بعد محاولة أخرى التقط الخطُّ صوتَ زوجة أبيها، التي بادرتها لاهثة كأنّها على حافّة الانتظار. قالت إنّ الوضع غريب ومخيف، وإنّها وأباها لا يزالان في بيتهما، في انتظار قدوم أحد الأبناء. وأضافت أنّ الشارع العامّ في المنطقة تمّت السيطرة على مداخله بوساطة دوريات عسكريّة، وأنّ الحركة والتنقُّل بين المناطق السكنيّة باتا عسيرين ومحفوفين بالمخاطر. اختنق صوتها، ثمّ أجهشت بالبكاء. وأكملت بين شهقاتها، بأنّ أباها ليس على ما يرام منذ الصباح المشؤوم، ولا تعرف كيف تتصرَّف في حال استعصاء وصول الابن إليهم، في ظلّ الظرف الراهن. وأنهت مكالمتها معقّبة بأنْ لا أحد معهما الآن في البيت غير السائق، فماذا تفعل؟

بقي السّؤال معلّقًا في رأس منال، وهي تغلق خطَّ الهاتف عاجزةً عن فعل شيء، وهي ترى نفسها على بُعد قارات وبحار ومسافات من بؤرة الحدث، لا تستطيع أن تقطعها بغير الحيرة والقلق. أكملت يومها بإجراء مزيد من المكالمات مع الإخوة والأهل، في محاولة للإحاطة بالأوضاع المتصاعدة، والتي لا تبشر إلّا بالمزيد من المشقّة والعَنَت. لم يتسنَّ للصّغيرة لينة أن تحتفل بعيد ميلادها الثاني في اليوم التالي. اعتذرت منال إلى المدعوّين، وانكفأت على ذاتها، تتابع ما يحدث على الشاشة الصّغيرة. في اليوم التالي، أتت سهام تطمئنّ عليها وتشاركها في وطأة الأحداث المتسارعة. رأتها تحوم بملابس البيت، وقد رانَ على المكان جوٌّ من الانقباض، واختنق بدخان السجائر ينفخها الزوج واحدةً في إثر أخرى. احتضنت لينة وهي لا تزال بالبيجامة، وأجلستها في حجرها، ثمّ تناولت من كيس جلبته معها دميةً بشعر أشقر، وكيكة مصغّرة غرست فيها شمعتين نحيفتين. جلست معها إلى الطاولة ونفختا معًا شعلتين هزيلتين، مشيّعتين بأمنيات متقشّفة في أيّام حالكة.

لم تشهد الأيّام التالية غيرَ تأزُّم الحدث واستفحاله. أصبحت ملاحقة الأخبار هي الهاجس اليوميّ، بعد أن شحّ التواصل، وانقطعت خطوط الهاتف. باتت الشاشة الصّغيرة، والتّجمُّعاتُ أمام السّفارة الكويتيّة لتقصّي المستجدّات، والتحلُّق في ركن الخطباء في «هايد بارك» للتأسّي والتآزر، هي الوسائل الوحيدة المتوفّرة للكويتيّين الموجودين في لندن للتّعبير عن قلقهم؛ أولئك الذين أتوا للاصطياف، فتحوّلت سياحتهم إلى

محنة، ووجدوا أنفسهم محبوسين في المكان، وقد تقطَّعت بهم السُبلُ، وحِيلَ بينهم وبين أهلهم وعائلاتهم في الوطن، بعد أن أغلقت الحدود وتوقَّفت خطوط الطيران.

مرَّت أيَّام الشَّهر الأوَّل ثقيلةَ الوطأة على منال وأسرتها الصَّغيرة. الأخبار المتناثرة عن المدينة المحاصَرة تزيدها اضطرابًا. خلايا للمقاومة يقودها شبان ورجال وفتيات أيضًا، بينما انشغل الآخرون بتدبير شؤون الأهالي المحاصَرين، ينقلون إليهم المؤن، ويتفقَّدون الأحياء السكنيَّة، ويحرقون النفايات المتراكمة، ويَبيتون على الانتظار والتوقُّع. لم يسلم المقاوِمون من العسف والملاحقات. سقط بعضهم بين شهيد وأسير، وعُذِّب آخرون حتى الموت.

أمام هذا التصاعد للأحداث، لم تكن منال تملك غير أن تجلس أمام الشاشة، فارغةً من الحيلة، تمارس طقسًا من الحِداد الصامت، كأنَّها فَراشة رماديَّة محبوسة في زجاجة، أو سمكةٌ باردة توقَّفت لديها مَلَكَة التفكير والتدبير. تحوم أمام الشاشة باهتةَ الملامح، تتابع مشاهد الهاربين من الجحيم، يتدافعون في «منفذ الرويشد» الحدودي الأردني. أفواج من جنسيَّات وأعراقٍ شتَّى يتخاطفون أكياس الخبز وينشدون النجاة. أرتال الآليَّات العسكريَّة في أوضاع استعداد وتأهُّب، وقواتٌ أميركيَّة تتوافد وتحتشد، وخرائطُ لتحرُّكات وتكتيكات تتوالد طوال ساعات البثّ. خلافات مُرَّة وانقسامات بين الكبار، وسجالات سياسيَّة ومفاوضات تنتهي إلى طريق مسدود.

مرَّت شهور ثلاثة منذ اندلاع الأزمة. كانت شهورًا شديدة الوطأة على المحاصَرين في بلادهم، أو الموجودين في لندن أو غيرها من عواصم العالم، بعد أن تحوَّلت هذه الأمكنة إلى مَنافٍ قسريَّة، وتحوَّلت أرصدتهم ودنانيرهم إلى هباء. في الشقَّة اللندنيَّة الصَّغيرة، كانت أجواء الانقباض والتوتُّر تصنع بحيرات من الكآبة، سرعان ما تشتعل وتتحوَّل إلى مشاحنات وبوادر شجار بسبب أدنى ذريعة. يُمضي الزوج يومه في النوم المتقطِّع، وحرق السجائر بلا رحمة، كأنَّه يهرب من ضِيقه واحتباسه في المكان إلى دوائر الدخان ورائحة النيكوتين. وفي المساء، ينشغل بالبحث عن أصدقائه ومعارفه، ومَن بقي من أهله في الكويت أو في الخارج. يبسط أوراقه ومفكِّرته ويبحث في الأرقام، ثمَّ ينغمس في معالجة أزرار الهاتف الأرضي، يطلب الأرقام الدوليَّة، واحدًا وراء الآخر. يدير أحيانًا أحاديث متقطِّعة، وأحيانًا يؤوب بالخيبة والغضب حين يفشل في التواصل مع صاحب الرقم

المطلوب.

لم تعد منال تطيق رائحة الطعام، الذي تعدّه كيفما اتّفق، ليؤكَل بلا شهية. والأفدح أنّها لم تعد تتحمّل المزيد من دخان السجائر. تُجلس لينة إلى جوار النافذة، وتُطلق تهديداتها وقرفها من الجوّ الخانق، والجلوس بلا عمل. تُلقي بمنفضة السجائر في سلّة المهملات غاضبة، وتباشر بفتح النوافذ على مصاريعها، غيرَ مبالية بالهواء البارد والرذاذ، اللذين يحيلان المكان إلى مزيج من رائحة النيكوتين والرطوبة. تسعل الصّغيرة وتبدأ بالبكاء والتململ، فيتبادل الزوجان وصلة من الشجار والملامات المكرّرة. يدخل هو لينام في منتصف النهار، وتخرج هي تدفع عربة صغيرتها في المتنزّه المجاور، تستنشق الهواء الطّلق، وتعدّ الأيّام.

قلّة الحيلة، والانحباس في المكان، وتشوُّشُ الأخبار عن الأهل، وضِيقُ الموارد الماليّة، كلُّها كانت تفعل فعلها في انكفاء كلٍّ من الزوجين على نفسه. غاص كلٌّ منهما في ذاته، بحثًا عما يُعِين على التعايش وتمرير وطأة الأيّام الرّتيبة، بيد أن شرارات التوتُّر واحتدام المشاعر سرعان ما تفعل فعلها، لتشعل الأجواء وتدفع بها نحو حافّة الانفجار. وكانت لينة، بسنتيها الغضّتين، تتأرجح بينهما، هشّةً متهافتة، متواريةً وراء ما تبقى من حنان أمّها وشفقة أبيها.

لم يكن صباحًا عاديًا، ذاك الصباحُ الذي وصل فيه البريد اليوميّ. ما بين رزمة الظُّروف المتنوّعة، استلّت منال ظَرف شركة الهاتف الأرضي. بسطت أمام ناظريها فاتورة الهاتف، الذي لم يزل مسجّلًا باسمها، لتُفاجَأ بالرّصيد المطلوب سداده منقوشًا في الأسفل: تسعمائة جنيهٍ إسترلينيّ. شعرت بالدّماء تصعد إلى رأسها، وبنَفَسها يضيق. اقتحمت غرفة النوم حاملة الفاتورة، وقد اشتعلت ألمًا وغضبًا. استيقظ النائم على وقع صوتها المشروخ باللّوعة، وهي تدينه بسوء التّدبير، والاستسلام للعبث، حين يحمّلها أكثر ممّا تحتمل، ويسيء استخدام الهاتف ويُسرف في مكالمات لا طائل منها. اختنق صوتها وهي تذكّره بتلك اللّيلة التي سهر فيها وهو يستمع إلى صديق في عاصمة ما يدير له تسجيلًا بأغنية «صوت السهارى» لعوض دوخي. استلقى حينها يستمع إلى الأغنية ويثرثر لمدّة عشرين دقيقة، وينفخ سجائره غيرَ مبالٍ، بحجّة أنّه يفتقد أصحابه، ويشتاق إلى العودة.

ما كادت منال تلتقط أنفاسها، وتخرج من وصلة الشجار بلا غنيمة كالعادة، حتى رنّ جرس الهاتف. كانت المتحدّثة أخت الزوج، تتّصل بهما

من القاهرة للاطمئنان. وما كادت الأخت تبدأ بالسُؤال عن أحوالهم في ظلّ سُوء الأوضاع، حتى انفجرت منال ببكاء مرّ. شكت إليها، ما بين الشهقات والنشيج، ما آلت إليه الأمور من توتُرات وإدانات متبادلة وغثاثات. وأخبرتها بأنّ البقاء في لندن بعيدًا عن الأهل، وتحت رحمة الأخبار الموجعة والموارد الشّحيحة، بات أمرًا لا يُطاق. وأضافت أنّها يمكن أن تتدبّر أمورها هي، ولطالما فعلت ذلك طوال سنوات الدّراسة، ولكن مع وجود طفلة وزوج غير مدرك حدودَ مسؤوليّته، ومدمنٍ للنكد، ومصابٍ بمرض الحنين إلى أهله وأصحابه، يصبح الأمر أكثر تعقيدًا.

بعد أن قالت منال ما عندها، وهدأت بعد اندفاعة الغضب تلك، اقترحت عليها أخت الزوج أن يفكّرا في الانتقال من لندن إلى السعودية أو الإمارات، حيث سيكون الزوج قريبًا من أهله وأصدقائه الذين يفتقدهم، والذين خرج معظمهم إلى هناك على فترات متفرّقة منذ الاجتياح. قد يكون ذلك حلًّا مُرضيًا في ظلّ الوضع الراهن. ثمّ أضافت أنّ الأسر الكويتيّة بدأت تتلقى إعاشات ماليّة وعينيّة، تمّ تأمينها من قِبَل الحكومة الكويتيّة المُؤقّتة في الطائف، وأنّ الصّرف يتمّ من الاستثمارات الكويتيّة في الخارج، التي لم تتأثّر بما يحدث في البلاد. وأكّدت لها أنّ أمورهم ستكون أفضل هناك، بوجود الدّعم المعنويّ وبسبب القربِ من الأهل ورائحة الوطن. ناولت منال زوجَها السّماعة، بعد أن استوفت شكاتها وأصغت إلى محدثتها باهتمام. حملت لينة إلى الحمّام لتغتسل، وتركت الأخوين يديران حديثًا خاصًا بينهما.

لم يبقَ من وسائل ترفيه أمام منال في حينها، غير أن تأخذ صغيرتها إلى المتنزّه القريب كلّ يوم. تدفع عربتها إلى زاوية لُعَب الأطفال، وتتركها تلهو بأحواض الرّمل. تفعل ذلك طلبًا للسكينة، وهربًا من الصّدام والجوّ الخانق في الشقّة، التي أخذت تضيق على روحها، وتتحوّل إلى جحيم من الترقُّب والانتظار. تصطحب غالبًا كتابَها، لتغرق في صفحاتٍ تأخذها إلى البعيد، وتصنع ذلك الحاجز الزجاجي بين أفكارها المضطربة، وعالمٍ من البهجة والدّعة باتت تفتقده بفداحة. تنظر إلى لينة وهي تملأ دلوها البلاستيكيّة بالرمل، ثمّ تسكبه لتصنع منه تلًّا صغيرًا، سرعان ما تبعثره مرّة أخرى. تقترب منها لتسقيها جرعات من العصير، ثمّ تفكّر في عمليّة الملء والتّفريغ والبعثرة التي تمارسها الصّغيرة من دون ملل. تتأمّل كم تشبه هذه العمليّة حياتَها. تمتلئ، ثمّ تَفرَغ، ثم تتبعثر. وها هم الآن مبعثَرون في عواصم العالم، ينتظرون ويترقّبون ويخاتلون الأمل. ولندن،

مدينتها الأليفة، ومخزنُ ذكرياتها، وباقةُ الوجوه التي حفظت ملامحها، باتت الآن سجنًا ومنفًى، وشوارعَ صفراء، وفراغًا وانتظارًا.

منذ أحداث الاجتياح لبلدها، الغارق الآن في الفوضى والعنف، وهي منكفئة على العزلة. لم تعد تستسيغ أن تلتقي أحدًا. تتّصل الصديقات بين آنٍ وآخر، فتردّ بكلمات مقتضبة ومزاج فاتر. تشعر بالعجز حين يسألنها عن الأوضاع، وعن الأهل. باتت تختصر الشرح وتتحاشى التفاصيل. لا تريد أن تحيلهنّ إلى هموم سرعان ما يُلقينها وراء ظهورهنّ، ويستأنفن حيواتهنّ بتلقائيّة تغبطهنّ عليها. من زاوية عزلتها، كانت ترى كيف تنجرف الأحداث في وحول الاصطفافات والمواقف المتذبذبة والانقسامات الحادّة، الأمر الذي يغدو فيه مجرّدُ الخوض فيما يجرى مدعاةً للألم والمكابدة. هي لم تفتقد التعاطف والتفهُّم، ولكنّ التوجُّس من النقاشات والجدل بات مفرطًا، وباتت تفضّل الصمت والانكفاء.

تصفّحت كتابها وهي جالسة على كرسي الحديقة، مستغلّة انغماسَ الصّغيرة في اللّعِب: تبني وتهدم كما تشاء. تنتظر انكسار الضوء لتعود قبل أن تدبّ البرودة في الجوّ. شعرت ببلل يتسرّب تحتها. ظنّته بقايا ماء ينضح من خشب المقعد. لكن حين شعرت بالبلل بين فخذيها، أدركت أنّ الوضع يستدعي النهوض في الحال. لفّت جذعها بمعطف المطر الملقى على ظهر المقعد، وانطلقت تدفع عربة الصّغيرة عائدة إلى مسكنها القريب. دقّت جرس «الإنتركم» طالبة من زوجها النزولَ سريعًا لمساعدتها في حمل الصّغيرة. وما إن دخلت تغتسل حتى اكتشفت نزفها المفاجئ. وقفت تتأمّل وجهها الممتقع في المرآة، محاولةً أن تستوعب ما يحدث، وتفهم ما يُنبئها به هذا النزف: جنين الأشهر القليلة على وشك السُقوط.

في غرفة الفحص الأولي، أخبرها طبيب قسم الطوارئ في «سينت ميريز هوسبيتال»، بأنّ لا أمل في بقاء الجنين، وعليها أن تخضع سريعًا لعمليّة الإجهاض، لئلا يستفحل نزفها ويعرّضها للخطر. تركها الطبيب هائمة في ضباب مخاوفها، وأغلق الباب وراءه. نظرت منال إلى زوجها وهو يُجلس لينة في حجره، وقد رانت عليه الحيرة إيّاها كلّما حزّ بهما أمرٌ ما. طمأنته إلى أنّ العمليّة بسيطة، وأنّها ستخرج من المستشفى في الغد، وما عليه إلّا أن يأخذ لينة معه ويعود إلى الشقّة. فالصّغيرة تبدو متعَبة وجائعة، وتحتاج إلى رعايته ريثما تعود.

في صباح اليوم التالي، كانت منال في غرفة العمليّات تفيق تدريجيًا من غفوة المخدّر، وقد تشوّشت في رأسها الصُور. شعرت

بالممرّضة تسألها إن كانت قد استيقظت، ثمّ تدفعها وهي ممدّدة في السّرير المُدَوْلَب نحو غرفة الجناح. بعد وقت لم تعرف مدّته، تفتح عينيها على المكان. كان الصّباح لمّا يَزَلْ في أوّله، وهي ممدّدة على ظهرها، تلمس بطنها الخاوي، وتنظر إلى الضوء الشّحيح المتسرّب من الخارج. عاجلتها كآبة مبرّحة، وهي ذائبة في الصمت والبياض ورائحة المطهّرات. أغمضت عينيها وتمنّت أن تنام، أو تنسى، أو تدخل مرّة أخرى في غيبوبة هانئة من دون ذكريات أو صور. انسكب من بين جفونها المغمضة خيطان من الدّمع، رأت في غبشهما طيف أبيها، وبيتَ «الدسمة»، وكورنيشَ البحر، وحديقةَ الجابريّة القريبة من بيتها، ومَهْدَ لينة ولُعَبَها التي تركوها هناك. لم يقطع سحابات شجنها المتلاحقة، غيرُ رنين الهاتف في الرَّدهة، والممرّضة تدعوها إلى التّحدُث إلى زوجها، لإتمام إجراءات الخروج.

استقرّ رأي الزوجين على أفضليّة مغادرة لندن إلى دبي. عَلِما لاحقًا بأنّ عددًا من أفراد عائلتهما قد استقرّ بهم المطاف هناك، واضعين في عين الاعتبار قرب دبي النّسبيّ إلى الوطن، وإلى مَن بقي صامدًا فيه، ومتعايشًا مع ما يحدث وما يستجدّ. ولم تمضِ بضعة أيّام على خروج منال من المستشفى، حتى كانت وأسرتها الصّغيرة على متن الطائرة المتّجهة إلى دبي.

ترجّلوا من سيّارة تاكسي المطار أمام فندق يعجّ بالأُسر الكويتيّة النازحة، لكأنّ المكان قد خُصّص لهم، ولمحنتهم التي ستمتدّ شهورًا من الشتات المُرّ. أطفال يلعبون في صالة الاستقبال؛ مراهقون يتسكّعون في الجوار من دون هدف؛ أصوات شجار ولغط عالٍ تنبعث من وراء أبواب الغرف المغلقة. شاشات التلفزة مفتوحة على الأخبار طوال ساعات البثّ، تعرض مشاهد الجنود والطائرات الحربيّة وتقارير المحلّلين العسكريّين؛ رجال عاطلون بلحًى نامية، يتجادلون وينهرون الأطفال، ثمّ يلوذون في الغرف لتفريغ أمزجتهم العكرة بتقريع الزّوجات والبنات.

في اللّقاء الأوّل مع زوجة الأب، تأكّدت منال من أنّ أباها دفع زوجته دفعًا إلى الرحيل مع أهلها، وأصرّ هو على البقاء. قال لها: «أريد أن أموت في بيتي». بعدها قدِم الابنان للإقامة مع أبيهما، بعد أن سهّلا أمر الرحيل لأسرتيهما وأطفالهما. لم يعد بيت «الدسمة» في ظلّ الظروف صالحًا لسكنى النساء والأطفال. أصبح ملجأً لنشاطات الشباب، يلتقون، ويجمّعون المؤن، وينظّمون شؤون الأحياء السكنيّة المجاورة. ينطلقون منه لتوزيع المساعدات الماليّة والعينيّة على الأُسر المحاصَرة التي فضّلت

البقاء، وإيصالِ الأدويةِ إلى المرضى وكبار السنّ. ويجتمعون لتداول الرأي والمشورة كلّما اقتضى الأمر. أبوها يصارع ضَعفه ومرضه، ويتعزّى بالوجوه الشابّة والجهود الطيّبة، التي تجعل للحياة معنًى على الرّغم من كلّ شيء.

ما إن استقرّت منال وزوجها وابنتها في غرفتهم في الفندق، حتى أقبلت زوجة أبيها تطرق الباب. دلفت ثمّ رمث في حجرها صرّة ثقيلة من القماش. بادرت بالقول أمام دهشة منال: «هذا مصاغك»، ثمّ أردفت: «كان من الممكن أن نهلك بسببه ونحن نعبر النقطة الحدوديّة». استفسرت منال منها عن مزيد من التّوضيح، وهي لا تزال في دائرة الدّهشة، فأجابتها بأنّ والدها أصر على ضرورة أخذ المصاغ معها، خوفًا من ضياع الأمانة. تذكّرت منال حينها أنّها تركت مفاتيح بيتها وخزنتها في بيت «الدسمة»، قبل أن تغادر إلى لندن في إجازة الصيف، فاعتذرت إلى المرأة الواقفة أمامها، وهي تقرأ في ملامحها ما تركه التعب والمخاطرة من بصمات الكدر، وما يعتمل في جوانحها من ألم الفراق والافتقاد للبيت وطمأنينة البال. وحين أوشك صوتها على التهدّج، نهضت لها منال، واحتضنتها بحنان. غاصت كلّ منهما في حنايا الأخرى، تستمدّ الشعور بالأمن وطمأنينة القلب. وقبل أن تغادر زوجة الأب، التفتت إلى منال فجأة، كأنّها نسيت شيئًا. مدّت يدها في جيبها قائلة: «آه، نسيت أن أعطيك مفتاحَي سيّارتك وسيّارة زوجك. هما من ضمن الأمانة أيضًا. لكنّهما لا تزالان في الكويت». ضحكت منال بمرارة، ثمّ عقّبت: «ماذا نفعل بمفتاحي السيّارتين، وقد خلّفنا هناك ما هو أثمن منهما؟!».

تعود منال مع أسرتها الصّغيرة إلى الكويت بعد شهور أخرى من الانتظارات والسّأم؛ تعود لترمم بيتها وحياتها، وتشهد كيف تستعيد البلاد عافيتها، وتغسل عن أرضها السّمومَ، وعن سمائها سوادَ الدُّخان والحرائق. احتاج الأمر إلى الكثير من الجهد، ومن التأنّي في القراءة في دفاتر المحنة، والقدرة على التّسامح والتعايش مع الجروح والإحَن، حتى تستأنف الحياة مسيرتها من جديد.

رُزقت منال بعد فترة من الزمن ابنةً أخرى، ثمّ صبيًا. وسارت بها الحياة كعادتها في المراوحة بين صعود وهبوط. لكنّ، ظلّت لندن موئلَ استجمام وآصرة قُربى، تعاود الرُّجوع إليها كلّما وجدت فسحة من الوقت أو متّسَعًا من الحنين. وفيها ستتكشّف لها بقايا حكايات لم تكتمل، وأسئلة لم تُستَوفَ إجاباتها.

يأتي عقد التسعينيّات ليأخذ ثلّة الصديقات إلى آماده الرّحبة، يدفع بهنّ قُدمًا في العمر، ويرتّب لهنّ الأيّام كما يشتهي. حدائقهنّ لم تزل معلّقة ومراوِغة، ولم يزلن يرمقنها عن بُعد، تقذف لهن الثمار بين فجّ وناضج، فيلتهين بالتقاطها لا محالة. منال، تستقرّ بها أحوال العمل وروتينه، فتبادره بتلقائيّة المستجيب من دون أن تتأكّلها الرّغبة في إصلاح العالم. تُرزق صبيًا وهي على مشارف الأربعين بعد بنتين، وتنشغل بمباهج الأمومة وأعبائها.

أروى في زيارتها الأخيرة لسميحة في مصر، تقتنع بفكرة شراء شقّة هناك. تجادلت الصديقتان كثيرًا بشأن هدف الشراء وفحواه. وكعادتهما في إدارة الجدل، بين الخشونة والرّعونة، وتبادل اللّكمات اللفظيّة، ثمّ التهدئة والتّصالح، أمكن لموضوع الشقّة أن يتمّ. سميحة، بعد خيبتها بما آلت إليه أحوال ابنتها آية، باتت تُكثر من التردُّد على القاهرة، هربًا من الأجواء الرّاكدة بينها وبين هشام من جهة، ورغبة في تجنُّب النكد والشقاق اللذين سرعان ما يشتعلان بينها وبين آية تحت أدنى ذريعة، فوجدت في صحبة أروى وجيرتها في القاهرة سببًا يدفعها إلى تشجيعها على اقتناء الشقّة.

أروى، من جهتها، وجدت في شقّة مصر متنفّسًا لروحها القلقة، ورصيدًا عقاريًا قد ينفعها في أيّامها القادمة. كانت حكايتها مع سلمان قد وصلت إلى طريق مسدود منذ ثلاث سنوات خلت. أكلتها الهواجس وأخافتها العواقب المحتملة، من زيجة غير مضمونة النتائج، فتركت كلّ شيء وراءها، واستسلمت لليأس كالعادة، ثمّ تصالحت مع أيّامها، إلى أن ظهر في سمائها الباهتة وجهٌ جديد. سيخاتلها هذا الوجه كثيرًا، وسيدفعها إلى فكرة شراء شقّة القاهرة أملًا وتطلُّعًا إلى حياة، قد تُفتَح فيها نافذةُ ضوء.

لم تكن أروى تعلم بأنّها ستلتقي زيادًا، الغزاويّ الأصل، المصريّ النشأة، في ذلك التجمُّع السلميّ الذي التمّ فيه الفلسطينيّون وأخلاط من العرب في «هايد بارك»، لإطلاق الآراء بشأن «اتّفاق غزة أريحا»، ربيع 1994. لم يكن الملل هو الذي دفعها، في ذلك الأحد، إلى الذهاب، بل أيضًا إصرار سهام المعلّقة القلب دائمًا بالقضية الفلسطينيّة وشؤونها. لم يكن زياد من المتحدّثين البارزين في التجمُّع، لكنّه كان يُحسن الإصغاء، فتأتي تعليقاته المبتسرة في مواضعها الملائمة. حاورته سهام حين تفرّق الجمع

مجموعاتٍ صغيرةً، بشأن الآمال المعقودة على اتّفاق كهذا، وإمكانيّة استمراره في ظلّ تقلُّبات الحكومة الإسرائيليّة ووعودها الهشّة. كانت أروى تقف على هامش المشهد وقد أرهقتها الوقفة الطويلة، فاقترحت الجلوس إلى طاولة كشك المشروبات الخفيفة، ريثما يستكمل المتحدّثان حوارهما. تركتهما، ونهضت لجلب مشروب ساخن في ثلاثة أكواب ورقيّة.

كان العصر يأذن بالرّحيل، حين نهض الثلاثة بعد أن تبادلوا معلومات أوليّة عن بعضهم البعض. لم تغفل أروى عن محاولات زياد إشراكها في الحديث، كما لم تغفل عن نظراته الجادّة وحماسته وهو يناور بشأن أوضاع الفلسطينيّين في غزّة ومصر، والتّحوُّلات التي اجتاحتهم منذ النكبة. كان يجيل نظراته في ملامح سهام المتحفّزة، ثمّ يلتفت مليًا ناحية أروى ليكمل فكرته، على الرّغم من أنّها لم تكن تستوعب الكثير ممّا يقول، أو تتحمّس له. كلّ ما تعرفه أنّها تعبت، وتريد العودة. تفرّق الثلاثة، كلٌّ إلى مقصده، من دون أن يطوف بخيال أروى أنّها ستلتقي زيادًا مرّة أخرى، مصادفةً، بعد بضعة أيّام.

حين ظهر رقم الانتظار على اللّوحة الكهربائيّة، في الدّقائق الأخيرة قبل أن يغلق البنك أبوابه، نهض زياد من كرسيّه في البهو، وتوجّه عابرًا الباب الزجاجي، إلى مكتب الحسابات الشّخصيّة. رفعت أروى رأسها نحو الزبون الذي أتى لاستلام دفتر شيكاته، فإذا به زياد. كان الاسم مدرَجًا سلفًا على الظرف الجاهز أمامها، ولكنّها ما كانت لتربط بينه وبين شخص رأته يوم الأحد الفائت، والتقته لقاءً عابرًا. ضحكت ضحكتها المرحة وهي تتعرّف إليه، ثمّ وهي تسلّمه دفتر شيكاته الجديد. وأردفت مستدركة بأنّه كان في الإمكان ألّا يتجشّم عناء المشوار، وأن يطلب توصيل الظرف بالبريد الخاص. ردّ على ضحكتها بضحكة أكثر إشراقًا، شارحًا أنّه في صدد الانتقال من عنوان إلى آخر، وأنّه يخشى أن يضيع الظرف بين العنوانين. وأكمل بأنّ ذلك من حُسن طالعه، فقد قُدّر له أن يراها مرّة ثانية. قال ذلك ولمعت عيناه ببهجة طارئة، واتّسعت ابتسامته.

في القادم من الأيّام، ستتعرّف أروى إلى المزيد عن أحوال زياد وشؤونه. ستتعلّق بابتسامته، ونظراته الجادّة، وإشارات يده حين يعبّر عمّا يفكّر ويهجس به. ستعرف أنّ وجوده في لندن مؤقّت، وأنّه بعد استكماله دوراته التدريبيّة، سيعود بعد عام إلى مصر حيث يقيم مع أمّه وأختيه. قال لها بلهجته المصريّة المطعّمة ببقايا لكنة فلسطينيّة، إنّه مرتبط بعائلته، ويهمّه أن يكون له جذورٌ ورائحة أهل وأرض يأوي إليها. هو لا يحتمل

الغربة الطويلة عن مكانه، منذ أن اكتسب هذه الفطرة في جيناته، التي ورثها من أهل ذاقوا مرارة اللُّجوء وفَقْدِ الوطن. أكَّد أنَّه يحبّ مصر التي أتاها طفلًا رضيعًا بمعية والديه، وفيها نشأ وترعرع، ويَدينُ لها بما هو عليه الآن، كما تَدينُ الشجرة للتربة والماء والشمس. كانت تنصت إليه من دون أن يهمّها قِصَرُ قامته، أو مقدَّمة شعره الخفيف الذي ينبئ بصلع قادم. فقد بدا أن أروى آخذة في إعادة التَّفكير في اشتراطات الحبّ، وتقديراتها القلبيَّة لقيمة الرجل.

كانت اللِّقاءات المتفرِّقة بينهما كافية لإنضاج عاطفةٍ ما، أخذت تهبّ وئيدة في قلب أروى، فتمنحها مساحات من هناءات منعشة وحذرة. عاودها الخَدَر اللَّذيذ وهي تنصت إلى مكالماته، أو وهي تحاذيه فيلامسها طرف معطفه، أو وهو يمرّ قربها فيترك نفحة من عَبَقه. كثر بينهما المزاح والمرح والضحكات الطليقة، وذاب التَّحفُّظ والتَّحرُّز، وبات كلٌّ منهما يسمع كيف يفكِّر الآخر، ويقرأ لغته جسده وإيماءاته. لم يفت أروى أنَّ زيادًا ما انفكّ يراها في إهاب الفتاة اللَّندنيَّة النشأة، المنطلقة ببراءة تلقائيَّة، مستجيبةً لاندفاعات روحها المرحة. فقد أومأ إليها، أكثر من مرَّة، بأنَّها «زهرة لندن» الغضَّة، والتي ربَّما لا تستطيع العيش خارج الحوض الأنيق والتربة النديَّة. يطلق هذا الحُكم في إطار المزاح المغلَّف بالريبة، فتلتقط أروى إيماءاته وتفهم إشاراته إلى «التغريب» الذي شاب كيانها، فما عادت تعرف من هي، وإلى أيّ جذر تنتمي. وكان هذا مثار قلق ما انفكّ يمضّ روحها، ويُشعرها بضيم كظيم ثُواريه، وتشفق على قلبها من عبئه.

كلَّما أعادت أروى شريط حياتها وخيباتها، وقفت مليًّا عند تلك التهمة الجاهزة التي تُلقى في وجهها من دون تحرُّز؛ تهمة النشأة اللَّندنيَّة، ثمَّ الشك في قدرتها على تجاوز هذا الإطار والتماهي مع الجذور. يُوجعها هذا الحُكم، فتتوق روحها إلى الخلاص. ألا يمكن للحبّ والتعلُّق القلبيّ أن يعيدا البوصلة إلى اتِّجاهاتها؟ والنهرَ إلى منبعه؟ والطيورَ المهاجرة إلى أغصانها؟ هي الطير الذي أتعبه الطيران، فما وجد عشًا أليفًا بحجم أحلامه المتقشِّفة. وها هو زياد يظنّ بها الظنون، ويدحرج على مسمعها تحرُّزه من المضيّ قُدُمًا في عَلاقة يشوبها الحذر، وتغشاها الخشية من عدم التلاؤم مع فتاة مثلها. فماذا تفعل لتدحض مخاوفه وشكوكه؟

لم تكن فكرة شراء شقَّة في القاهرة مجرَّد استجابة لتحريض من سميحة، بل كان وراء ذلك دوافعُ أخرى تحتدم في ذهن أروى، وتدفعها دفعًا إلى تحقيق هذه النية. لم يكن الأمر يتطلَّب غير سحب وديعتها

البنكيّة، ثمّ طلب قرض طويل الأجل لاستكمال الدّفعات الأولى. أمّا ربع القيمة المتبقية، فستسدّدها بعد الاستلام على شكل أقساط شهريّة مريحة. هكذا تحوّلت الفكرة إلى خطّة، والخطّةُ إلى إجراءات نافذة. ستثبت لزياد حينها أنّها تتوق إلى الارتباط مثله بأرض وجذر ورائحة أهل، وأنّها مثله أيضًا تحبّ مصر، ولها فيها أصدقاء وصحبة، وأنّ روحها تتوق إلى أن يكون لها مستقرّ وبيت هناك، وجيرة وحُبّ.

حين استلمت أروى شقّتها الجديدة في أحد أحياء القاهرة، كان زياد على وشك العودة. كان قد فوجئ بالخبر الذي أبقته سرًّا إلى النهاية، فدُهش، ثمّ استفسر، ثمّ صمت. هنّأها على الصّفقة وهو لمّا يَزَلْ في حيرته، ثمّ ارتبكت مواعيد اللّقاء بين لندن والقاهرة، وتعرّضت للتّسويف والتّأجيل. استمرّت المكالمات الهاتفيّة ردحًا من الزمن بعد عودته إلى القاهرة، ورجوعها إلى لندن، ثمّ تقلّصت، وتباعدت، واستوحشت روحاهما عبر الأثير. لم يتحدّث زياد بجدّيّة قطّ عن ارتباطهما، ولم يُثِره موضوع شراء الشقّة، التي بقيت مجرّد شقة لإجازات أروى واستجمامها في القادم من الأيّام. وهي، كالعادة، لم تكن تُخسن قراءة إشارات الحبّ، وإلامَ ستؤدّي، ولم تكن حساباتها صحيحة، أمّا خيبتها فكانت أكيدة ككلّ مرّة.

حمل عقد التسعينيّات بعض المتغيّرات في حياة كلٍّ من نجوى وسهام أيضًا. لم تعد الصحافة هاجسًا ملحًّا لدى نجوى. فأجرها للعمود الأسبوعي، الذي ظلّت تكتبه على مدى سنوات في «المدى العربي»، بقي كما هو، بينما غلاء المعيشة في تصاعد. ولم تُجدِ مطالباتها برفعه، فانسحبت من كتابته، واكتفت بتقارير ومراجعات ترسلها كلّما تجمّعت لديها مادة صحافيّة كافية. أمّا نشاطاتها الجانبيّة وخدماتها للسّيّاح العرب والمتردّدين على لندن، فكانت موسميّة ومتقطّعة، ولا يمكن الرّكون إليها كمصدر رزقٍ معتمَد. ووجدت لاحقًا في الترجمة للمرضى العرب، المتلقين للعلاج في مستشفيات لندن، عملًا مساندًا يُعِين على سدّ مطالب المعيشة. وبمرور الوقت، تأقلمت مع هذا اللّون من الكدح اليومي، الذي أصبح نمطًا لحياة لاهثة، تتبع الرزق أينما كان.

في فراغاتها القليلة، تحرص نجوى على الظهور في النادي الثقافيّ العربيّ، مشارِكة في الحضور، أو التّقديم لإصدارات، أو صياغة رأي وقراءة في مستجدات السّاحة الثقافيّة. كانت قد اكتفت بصحبة الدكتور عبد المنعم عن بُعد في لقاءات النادي، بعد أنْ لم يعد لها أمل في القرب القلبيّ. ظلّت المسافة بين الاثنين مراوِغة ومؤلمة، ومتأرجحة في فراغٍ خاوٍ.

وظلّ هو في لامبالاته الحَذِرة، وحرصه على ألّا يخدش الخيط الرَّفيع الذي يتأرجح بينهما. كانت في مطلع أربعينياتها تخاتل أيَّامها، وكان هو يغذ الخطى نحو أواخر ستينيَّاته، غيرَ آبه بوحشة العمر ووطأة الفراغ. وبينهما كان يمتدّ جسر من الاتِّفاق الضمني الزَّهيف، المفتوح على الترقُّب والانتظار.

ستمرّ عشر سنوات أخرى وهما يتناوبان الحِلّ والتَّرحال بين مصر ولندن، من دون الوصول إلى قرار مكين بشأن العودة والاستقرار، إلى أن يُلزم المرض والشيخوخة عبدَ المنعم بالخضوع للأمر الواقع، فيؤوب إلى سرير المرض في بلده مستكينًا. وهناك ستزوره نجوى للتفقُّد والاطمئنان كلَّما راودتها حالة من حاجة أو حنين. ستجلس قرب سريره تتأمَّل يديه المعروقتين، وأنابيب التغذية تضخّ السَّوائل في جسده الواهن. ستبتسم مشجِّعة بعينين رطبتين، ثمَّ تسند رأسها إلى طرف السرير لئلَّا يغلبها الدَّمع. وهو سيمدّ كفَّه الهزيلة يربت على كتفها قائلًا باستسلام: «ما كانش ينفع يا نجوى».

في أواسط التسعينيَّات، كانت سهام قد استنفدت بعضًا من طاقتها في تدريس أبناء الدبلوماسيِّين، أو كادت. كان الصِّغار يأتونها إلى مكانها أحيانًا، فتوسّع لهم سطح طاولة الطعام، توزِّع عليها الأقلام والأوراق، وتجلس معهم بسعةٍ من البال وفائض من الحنان، تمازحهم وتحتويهم طوال وقت الدَّرس، وتعدّ لهم السندويشات الخفيفة والعصائر. وفي أحيانٍ أخرى، كانت تنطلق في مشاوير إلى بيوتهم، مستأنسة بأجواء التَّرحيب والألفة، التي ما انفكت تتذكَّرها بالكثير من الامتنان. كان التدريس يدرِّبها على الصبر، ويشدّ أزر أمومتها، ويغذِّيها بنفحاتٍ تسدّ فراغاتٍ ظلَّت كامنة في الظلّ. أحبَّها الصِّغار، وظلُّوا يتذكَّرون إرشاداتها، وزوايا بيتها، وأين تضع «مس سهام» علبة البسكويت وحبَّات ملبس اللَّوز.

حين عرضت عليها نجوى اقتسام مواعيد الترجمة للمرضى العرب، فكَّرت في الأمر أوَّلًا، ثمَّ وجدت فيه تنويعًا مقبولًا في مجال العمل الحرّ. فهي قد بدأت تخفِّف من حصص التدريس، وعليها أن تملأ هذا الفراغ بنشاط آخر يعزِّز ميزانيَّتها، ويُعين على الحياة في مدينة باتت تكلفة المعيشة فيها باهظة، ومستحَقَّة الدَّفع من كدح الإنسان وعرقه. كانت سهام تدرك، كما سائر الصديقات، أنَّ خيار الغربة ممزوجًا بالعصامية، له ثمن مستحَق، وأنهنَّ لا يَنينَ يدفعنه من المداومة على الكدح، والتَّعلُّق بفكرة تحقيق الذات. فكرة كانت حلمًا من أحلام الشباب وحديقة معلَّقة

في الخيال كحدائق بابل، ثمَّ تحوَّلت إلى صخرة من صخور الواقع. وبات التسلُّق قُدُمًا تحت وطأة التعب والعمر يذكّرهن بسيزيف، الذي كلَّما حمل صخرته شوطًا نحو القمَّة، سقطت منه، وأجبرته على المحاولة من جديد. وكنَّ وحيدات مثل سيزيف أيضًا، يمرضن ويُنهَكن، ويمتلئن بالغثيان، محاوِلةً في إثر محاولة.

في حال يوسف وفاطمة، بدأ السَّعي للعيش يأخذهما إلى مسارات أخرى. ظلَّ يوسف يعمل في لندن، بينما أخذت فاطمة تفكِّر في اقتناص فرصة عمل متاحة في دبي. وشجَّعها على هذا الأمر انتقالُ والديها إلى هناك، وهو الأمر الذي سيضمن لها مستقرًا عائليًا متاحًا. كان الزوجان قد رزقا أوَّل ولدين، وهذا يعني المزيد من الأعباء الماليَّة للتَّعليم والعيش، فاستقرّ رأياهما على عمل فاطمة في دبي، وبقاء يوسف في لندن بعد أن بدأ الولدان أولى مراحل التَّعليم. كانت العناية بطفلين في غياب أمِّهما اختبارًا عسيرًا ليوسف، علّمه القبول بالمتاح والممكن من وجوه العيش، والتعوُّد على التفاوض مع الظروف الحياتيَّة بمرونة. وهكذا، توزَّعت لقاءات العائلة بين لندن ودبي، تأتي خطفًا، كلَّما سمحت الإجازات وفرص الأعياد والمناسبات.

عودًا إلى أحوال «مطعم الوادي»، فقد بقيت بين مدّ وجزر. تزدهر الأحوال في الصَّيف مع قدوم السائحين العرب غالبًا، وتتراجع في مواسم أخرى يشحّ فيها الزبائن ومحبو الأطباق الشرقيَّة. وبين هذا وذلك، كان الزوجان سميحة وهشام يعوِّلان على مَلَكة التذوُّق المتطوِّرة مؤخَّرًا لدى أخلاط الأجانب في لندن، ممن بدأت تستهويهم المذاقات اللَّاذعة والحامضة للباذنجان المقلي والحمّص والكباب. بحثا طويلًا عن شريك ثالث، يتحمَّل معهما أعباء المطعم وتكاليفه الآخذة في الارتفاع عامًا بعد عام، إلى أن وُفّقا به بعد لَأي. ولا تزال الإجراءات جارية لاستكمال الأوراق والمستندات اللَّازمة لدى المحامي. كان الزوجان يحلمان بلين العيش وسعة الرزق من وراء مشروع أحبّاه وسعيا إليه بما يملكان من جَهد ومال. والآن، اكتفيا من الحلم بما يسدّد الفواتير المستحَقَّة، ويضمن عيشهما يومًا بيوم.

احتاجت سهام، في ذلك الصباح الخريفي، إلى المزيد من الانتباه، لتتعرّف إلى المتّصل وتميّز صوته المنهك والآتي إليها عبر سماعة الهاتف. هبطت على الأريكة ب«روبها» البيتي، وهي منكفئة على السّماعة، مانحةً المتحدّث مساحةً من الوقت والتأنّي ليستكمل جُمله المتقطّعة والمشوبة بالتلعثم. كان نجيب نحّاس على الطرف الآخر من الخطّ، يحدّثها من فندق «هلتون بيز ووتر» الأقرب إلى مسكنها، ويخبرها بأنّه في مرحلة من المرض الخبيث، تُلزمه دخول المستشفى من دون إبطاء، وقد وصل إلى لندن البارحة، ويريد رؤيتها.

كانت سهام على علم بمرض نجيب منذ زيارتها الأردن قبل عام، ولكن ما كانت تحدس أنّ حالته ستتدهور إلى هذا الحدّ، وتستلزم التماس العلاج في مشافٍ أخرى، استجداءً لبصيص من أمل في حلكة العتمة. استغرقها الأمر بعض الوقت لتتأمّل كيف يمكن للمرض الخبيث أن ينتشر ويستفحل في الحنجرة وما حولها من أعضاء الكلام؟ وتساءلت طويلًا لماذا يحدث ذلك لشاعر غُدّته وعتاده حنجرة ولسان، يطلق من خلالهما ما يعتمل في جوفه من كلام ومشاعر؟ امتلأت بالأسى وهي تراه الآن غير قادر على النُّطق إلّا بجُمل عرجاء ثقيلة، يكدّ ليجعلها مفهومة وواضحة.

اشتعل رأسها بالتذكّر. كم صيفيّة مضت الآن منذ أن كان يأتي إلى بيتهم في إربد، مشتعلًا بالشوق والترقُّب؟ ثلاثون عامًا؟ ربّما أكثر قليلًا. يجلسان في غرفة المعيشة للمذاكرة، استعدادًا لدخول اختبارات الثانويّة العامّة، بينما تطلّ عليهما أمّها بين الفينة والأخرى، بعين متفقّدة، حاملةً العصائر والهواجس. ينتظر أن تختفي أمّها ليطوقها بالنّظرات كيفما التفتت، ويحاصرها بالحبّ حتى تتورّد ملامحه، منتظرًا استجابة أو إشارة من دون جدوى. إلى أن غلبه الوجد على أمره، فلثم شفتيها خلسة وقد تسارعت في قلبه العواصف، منتظرًا أن تنطق ب«الجوهرة»، وتقول: «أحبّك». ولكنّها لا تفعل.

ما تتذكّره أنّها اضطربت وغار لونها، وباغتها الخوف. انتصبت واقفة وطلبت منه المغادرة. لم ييأس، وعاد في المساء يطرق الباب مستفسرًا وآملًا. انتابتها نوبة الهلع مرّة أخرى وهي تقف بالباب، طالبة منه أن يغادر. ووراءها كانت تتعالى أصوات الجالسين في غرفة المعيشة، يستفسرون عن سبب بقاء «ابن العم» متلكّئًا عند الباب، ولمَ هي شاحبة اللّون.

كانت قد عوّلت على الصداقة البريئة الصافية منذ مطلع صباهما، تتبادل وإيّاه الكتب عن كولن ويلسون وغيفارا وسيمون دي بوڤوار وسارتر، وكلّ ما يقرأه الشبيبة حينذاك من كتب مترجمة، عن الوجوديّة والأدب الجديد. كانت تفهم بعضًا ممّا تقرأ، وتترك ما يصعب عليها لتحليلاته وشرحه. ثمّ ينصرفان للاستماع إلى ما يبثّه المذياع الوحيد في بيت العائلة من أغاني الروك والتانغو والموسيقى الكلاسيكية على المحطّة الأجنبيّة، أو أغاني عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة وهي تئنّ بعذوبة: «أيظنّ أنّي لعبةٌ بيديه!» وإن اجتمع الأخوة وأبناء العمومة، فتلك فرصة للانغماس معًا في الألعاب الجماعية، كلعب الورق والفوازير وسجالات الشّعر المحفوظ وما شابه. دنيا من البراءة كانت تتشرّبها على مهل، إلى أن بدأت الأمور تأخذ منحًى آخر. بدأت بملامسة ساخنة ليدها، اختلسها من وراء ظهور الملتقين في قدّاس الأحد في كنيسة الحي. يومها أجفلت من كفّه المضطربة وهي تدسّ وريقته المنقوشة بكلمات الحبّ. لمحت وجهه المحتقن بغرابة، ولامته بصمت على رعونة ليست في مكانها ومقامها المناسبين.

في ذكرى ميلادها التاسع عشر، أهداها قصيدة من شعره كُتبت لها. لم يجد أوقع من ذلك إعلانًا عن حبه الذي وُلد، ثمّ تبرعم، ثمّ تفتّح في وردة القصيدة. كانت طريقهما على وشك الافتراق، هو إلى جامعته في القاهرة للدراسة، وهي إلى الكويت تجرّب حظّها في العمل. قلبه المعلّق لم يعرف اليأس حين أمعنت هي في الغياب، وأمعن هو في الدرس، وفي تلمّس طريق موهبته البازغة في عاصمة الشعر والأدب. أرسل إليها رسائله خاطبًا ودّها، شريكةً للحبّ والحياة، فتأكّلتها الحيرة حدّ الإنهاك، وطفقت تمزّق رسائله هربًا من ظلّه الذي يحاصرها أينما حلّت. كانت أمّها حينها في زيارتها الوحيدة والأخيرة لها ولشقيقها في الكويت، تعاني بوادر المرض العُضال، وتستعدّ لما هو أسوأ. لمّحت لها الأم، وهي تراها في خضمّ الحيرة، بأنّ نجيبًا شاب لا غبار عليه، وله مستقبل واعد، ثمّ إنّه من أبناء العمومة الأقربين، فلمَ الحيرة؟ أطلقت تساؤلها كأنّها تبرّئ نفسها من ظنون التّردّد في قبول الخاطب، وتدع لسهام حرّيّة اختيار الطريق.

حديث الخطبة والقربى العائليّة، جعل سهام تسبح في مشاهد بيت أسرة نجيب: في جلساتهما أحيانًا للدراسة؛ في حَوَمان أمّه تستطلع وتتفقّد عن بُعد؛ في دخول أبيه وخروجه عليهما مطلقًا نوادره ومداعباته. ولعلّ ألطف ما قاله لها أبوه، تعبيرًا عن محبّته الغامرة وإعجابه بصباها الغضّ،

أنّه لو كان شابًا في عمرها، لساق لها مهرًا عشرة آلاف دينار. يقول ذلك ثمّ يُطلق ضحكته المجلجلة، كأنّه يغمز لابنه نجيب من طرف خفي، لئلا يضيّع الفرصة الذهبيّة. لا تدري لِمَ شعرت بعدها بأنّ نجيبًا لم تعد تقف حدود غيرته عند ملاحقتها فيما تفعل وتقول، وهذا في حدّ ذاته مصدر ضِيق واستنكار، وإنّما امتدّت غيرته عليها من أبيه أيضًا، فما عاد يستسيغ اهتمامه ومداعباته.

في خضمّ عواصف المدّ والجزر، تعود سهام مع أمّها إلى إربد، لتتيح للمريضة أيّامًا أخيرة تُمضيها في سريرها، تشمّ رائحة بيتها وأنفاس الأبناء. جاء نجيب للاطمئنان في مساءٍ متأخّر، فتحدّثت إليه سهام أمام الباب وقد غلبها الهمّ والدمع. سألها عمّا يُضنيها، فأجابت بأنّ عبوة الدّواء قد نفدت، وأمّها تكابد ألمًا مبرّحًا، وأبواب الصيدليات قد أغلقت في هذه الساعة المتأخّرة، فلا تدري ماذا تفعل! خطف العبوة الفارغة من يدها، وطمأنها خيرًا. غاب لأقلّ من ساعة، ثمّ عاد بعبوة جديدة. قال لها لاهثًا إنّه يعرف صديقًا على صلة بصيدلاني الحي، وقد أيقظه من نومه وأجبره على فتح الصيدلية. وها هي العبوة الجديدة بين يديها. نظرت إليه بامتنان مقدّرة شهامته، وشيّعته بما يليق من عبارات العرفان. ليلتها ستنام وقد حارت في عينيها الدّموع، وفي قلبها السّوانحُ المعذّبة.

سيطول انتظار نجيب لاستجابة لن تأتي، وستمرّ عليه بضع سنوات من اليأس قبل أن يقرّر الزواج بأخرى. هنّأته سهام بقلب جَسور، وتنفّست الصّعداء، بيد أنّه بقي في دائرة فضائها كلّما عادت إلى إربد في إجازات لاحقة. يطلبها هاتفيًا حالما تصل، ويذهب للزيارة، أو يدعوها إلى بيته للحديث والاستئناس بقربها، مستعيدًا الآمال الغاربة والذكريات، وممتنًا لزوجته التي تفهّمت مسارات العلاقة ومنتهاها، واعتادت وجود أشباح الحبّ المضمحلّة، والتي استحالت إلى صلة نفسيّة معتّقة، تحتال عليها الزوجة بالقبول والتسليم.

تستعيد سهام هذه الصّور التي هبّت عليها تباعًا، وهي تعيد سمّاعة الهاتف إلى مكانها، وتصغي إلى صدى الكلمات المتلعثمة التي يغتصبها نجيب اغتصابًا. تلقي برأسها المشوّش إلى الوراء وتغمض عينيها. تعيد التساؤلات القديمة التي ما انفكّت تراودها، من دون أن تصل إلى إجابة عن الأسئلة القديمة المتجدّدة. تُرى، ممّ كانت تخاف؟ ولِمَ تنتابها تلك الرّغبة في الهرب منه؟ هل الأمر يخصّه هو كشخص؟ أم هي خشية من العلاقة والارتباط؟ بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى الرّبط والارتهان للواقع،

والانحباس في الشخص والمكان. هي التي لطالما تاقت إلى التّحرُّر من سجن المكان، ومن الوقوف في النُّقطة ذاتها والدَّوَران معها؛ هي بروحها المتطلِّعة إلى الذهاب بعيدًا، الهائمة بالسَّفر والترحال والاكتشاف، وإنضاج العقل والحواسّ على مهل. هل كان نجيب والارتباط به يستطيعان أن يقدّما إليها هذا كلّه؟

فهمت من حديثه المبعثر، أنّه سيأوي إلى المستشفى مساء اليوم، ويطلب رؤيتها باكرًا صباح الغد. سألته عمّا يحتاج إليه لجلبه معها، فأومأ إلى احتياجه إلى الأوراق والأقلام، يستعين بها على تمرير طلباته وحاجته وهو رهين السَّرير، حين يُتعبه التلعثم وتستعصي الكلمات على الإبانة. طمأنته بكلمات مقتضبة، آملة ألا يُجهد نفسه، أو يقنط من رحمة الله. بعد إنهاء المكالمة، وجدت المكان يضيق على أنفاسها، ورأسها يضيق على سيل المشاهد والوجوه والأمكنة التي تغزوها بلا هوادة. خطفت معطفها المطريّ، وخرجت تعبّ الهواء برئتين نهمتين. كرّرت الشّهيق والزفير، وتأمّلت مليًّا في مزيج الرطوبة الذي يصنعه الهواء والرذاذ، ويهمي راشقًا وجهها برقّة. الشوارع مبلّلة ولامعة، والأشجار تهتزّ مستسلمة للماء، والمظلّات تعبُرها بهمهمات خفيضة، وقد ارتوت وتهدّلت. وأفكارها المتزاحمة تستجيب لطقس البلل، فتنتفض بين الفينة والأخرى كحمامة باغتها المطر. يا لهذا النّجيب! لا يزال يتحرّى وجودها ويلاحقه. كانت خطّة علاجه قد رُتِّبت لتكون في أميركا، كما نما إلى علمها، ثمّ على حين غِرّة يحوِّلها إلى لندن. وها هو يأتي إلى لندن وقد برَّح به المرض، وربّما الشوقُ أيضًا. وها هو يطلبها من دون إبطاء، كما يفعل دائمًا كلّما قرُب المزار. ماذا يتوقَّع منها أن تفعل؟ وماذا يريد بعد ردح من العمر والمسافة والزمن؟

أتعبها السَّير في الطرقات بلا هدى، إلى أن أخذتها قدماها إلى محلّ قرطاسية على ناصية الشارع. نفضت مظلّتها ودلفت إلى الدفء المكتوم في الداخل. أجالت بصرها في معروضات المكان، إلى أن انتهت إلى ركن الدفاتر والمفكّرات الصّغيرة. انتقت ثلاث باقات من الأوراق الملوّنة الصّغيرة، التي تصلح لكتابة الملاحظات السّريعة، ويسهل انتزاعها. حرصت على أن تختار الأجود والأرقى ممّا هو معروض، وأن تكون الألوان مبهجة، والملمسُ مريحًا لانسياب القلم. التفتت إلى ركن الأقلام، وانتقت الأخفّ والأكثر ليونة ومرونة. وأنهت جولتها في المحل بانتقاء كيس هدايا مناسب، ينفح المريض ببعض البهجة، ويدلّ على الاهتمام.

حملت كيس الهدايا الصغير، باكرًا، صباح اليوم التالي، واعتمرت قبّعة مستديرة تُغنيها عن المظلّة في حال استمرّ المطر رذاذًا. فكّرت في جلب باقة من الورد تعود بها المريض المنتظِر. ستشتريها حالما تصل إلى هناك، فجوار المستشفى لا يخلو من محالّ الورود التي تجعل الصباح أكثر نضارة وقبولًا. في الممرّ المؤدّي إلى غرفته ارتدت ابتسامتها، وحاولت أن تبدو طليقة ورائقة. انتظرت أن تنهي الممرضة ملاحظاتها للمريض المسجّى في سريره، قبل أن تدلف بهدوء، وتقترب من السّرير محيّيَة بصوت خفيض، كأنّها تخشى أن تكسر رقّة الهواء. احتاج نجيب إلى بضع ثوانٍ ليعتدل ويدسّ الوسائد تحت رأسه، ثمّ ليملأ عينيه الكابيتين بمنظر الزائرة على مهل. خلعت قبعتها فبدا وجهها أكثر وضوحًا، وجلست قبالته فأمكن له أن يرمق جرمها بزاوية مريحة. كان في منتصف خمسينيّاته وكانت في مثل عمره. شعره لم يزل خليطًا من الرّمادي، ولكن المرض امتصّ ما بقي في ملامحه من نضارة، فغلبه الشحوب والإنهاك، وذوت خصلات شعره وتفرّقت.

لم تُرد سهام أن تتحدّث عن المرض، فقد عرفت تفاصيله منذ العام الفائت في زيارتها الأخيرة للأردن. أمّا تطوُّرات المرض فيمكن أن تشهدها في وجه نجيب الماثل أمامها الآن، وفي كلامه الذي يغتصبه اغتصابًا، وفي وقفات الصمت التي يعبّئها بأنفاس ثقيلة متقطّعة، وفي العمر الهارب الذي ينسلّ من جسده المسجّى وئيدًا. عوضًا عن أسئلة المرض، سألته عن أبنائه، وكتاب أصدره مؤخّرًا، وعن احتفاليّة ثقافيّة بتجربته الشّعريّة سمعت بها، وعن إربد وأمّه المسنّة وأصدقاء القلم. شعرتْ بأنّها ثرثرت كثيرًا، كأنّها تهرب من مشاعر غير مريحة، فعاجلها بجملة بدت خارج السّياق، وخارج الثرثرة، قال: «أعتقد أنّ حياتي ستكون أفضل لو كنتِ فيها». رنّت عبارته المنهَكة في بياض الغرفة، ثمّ دارت كزوبعة صغيرة، وحطّت في الفراغ الممتدّ بينهما. رنا إليها بعينين ذابلتين، ثمّ أكمل مغالبًا ثقل لسانه: «انتظرتكِ في ذلك المساء قبل سفرك... هل تذكرين؟ كنتُ مريضًا... ولكنّني حرصتُ على أن أرتدي قميصًا جديدًا وأمشّط شعري بإتقان، لأبدو أجمل حين ترينني. ولكنّكِ لم تأتي!».

نهضت سهام إليه، وردّت اللّحاف على كفّيه الباردتين، وعدّلت من وضع الوسادة. ثمّ وقفت إلى النافذة تنظر إلى رؤوس أشجارٍ وسماءٍ رصاصيّة وحمامتين تتجوّلان على إفريزِ مبنًى قريب. غابت في تأمّلاتها الصامتة، وتركته وحيدًا مع كلماتٍ لا تملك إزاءها تعليقًا ولا استطرادًا.

تبادلت مع الممرّضة حديثًا مختصرًا، وأمضت ما تبقى من وقت الزيارة في مساعدته على تناول غدائه، ثمَّ انصرفت.

حين عادته في زيارة اليوم التالي، فوجئت سهام بهياجه وتوتُّره. رأت نجيبًا يشتم الممرّضات ويكدّ في محاولات العراك مع كلمات لا تستجيب له، فيزداد توتُّرًا وهياجًا. كانت الأرض ممتلئة بكرات الأوراق المكرمشة، التي استعملها في كتابة طلباته للممرّضين المناوبين. ويبدو أنَّ هياجه ناتج من سوء فهمهم له، أو بتأثير من جرعات الأدوية الثقيلة. أدركت سهام أنَّ الأوراق الفاخرة التي اشترتها له، باتت مجرَّد قمامة، وأنَّه لم يملأها بأفكاره وخواطره، أو ربَّما شِعره، كما كانت تظنّ. بدا لها أن نجيبًا لم يعد هو، وأنَّ المرض قد اغتال أجملَ ما فيه، فاستسلم للغضب والخواء.

عرفت سهام أنَّ زوجته ستصل في الغد، لترافقه في رحلة المرض والعلاج. سيمضي نجيب في لندن بضعة أسابيع يصارع أوجاعه، إلى أن يستعصي العلاج. وسيعود في أيَّامه الأخيرة إلى إربد ليموت هناك. لاحقًا، سيُسمَّى شارع من شوارع إربد باسم «نجيب نحّاس». وستمرّ سهام بهذا الشارع كلَّما ذهبت إلى هناك. وستلمع لوحة اسمه تحت الشمس ومصابيح الشارع، كلَّما رَنَت إليها ساهمة. وسيبدو لها الشارع طويلًا ومنهِكًا، ومزدحمًا بالأسئلة والمنعطفات كحياة سَمِيِّه.

تظلّ منعطفات «كوفنت غاردن» مهوًى لشغف منال منذ اكتشفت المكان في بدايات عهدها بمدينة لندن. تجلس الآن على حافة مقهى مفتوح في الهواء الطلق، في صبيحة لندنيّة، تراقب صغيرتيها عن بُعد، وهما تضحكان وتشيران لها نحو المهرّج المرح، الذي يستطيل بساقين عاليتين ويمشي رشيقًا. في المكان شيء من السِّحر والبهجة، تراهما في المشغولات اليدويّة، والمنمنمات، واللّوحات التي يرسمها الهواة، وفي العروض المَرِحة، والمأكولات اللّذيذة، والتداخل الجميل بين مظلّات الماركت العريق وبوتيكاته المبتكرة.

هنا، في منعطف ما، استوقفت منالَ في أيّامها البعيدة، لوحةُ «التائهة». هكذا سمّتها، أو لعلّ الأفضل تسميتها «الباحثة في التيه»، أو «الرّوح العارية». هناك معانٍ كثيرة استوقفتها في تلك اللّقطة الباهرة، مرسومة من زاوية رؤية منخفضة، بالأسود والأبيض وما خلقاه من تدرّجات الرّمادي الشفيف. فتاة عارية، تُولي ظهرها للعالم، وتكدّ في المشي في صحراء من تموّجات الرّمل، صاعدة قُدُمًا كأنّها تتسلّق الطريق، تاركة وراءها آثار قدمين محفورة في الرّمل. بدا عريها نبيلًا وبريئًا، كأنّ الصحراء التي تقطعها قد ولدتها في التوّ. الأفق الرّمادي في اللّوحة، والصمت السادر، وظلّ الفتاة الضئيل في ظهيرة قاسية، وخطواتها التي تكدّ صاعدة، ومعانٍ أخرى تتوالد، جعلت منالَ تتسمّر أمامها وتهيم بها شغفًا، ثمّ تقتنيها وتحملها إلى شقّتها، وتعلّقها في صالة معيشتها في مكان بارز. وحين تضيق الشقّة بالأسرة والأبناء في سنوات لاحقة وتُباع لساكن آخر، وتُخلى من أثاثها، تنتقل لوحة «الروح العارية» إلى شقّة سهام، لتواصل خطواتها على الرّمل، وصعودها الشاقّ قُدُمًا.

تعود منال من شرودها وراء الصور الغاربة، وهي تشير لفتاتيها بضرورة العودة إلى الطاولة حيث تجلس، واستكمال وجبتهما الخفيفة، قبل الانطلاق إلى المسرح القريب. كانت قد وعدت الصّغيرتين بحضور مسرحية «البؤساء» الغنائيّة، وحجزت التذاكر في المسرح القريب من «الماركت». حين تهيّأت منال للنهوض، لم يخطر في بالها أنّ تلك الأمسية ستحمل لها مصادفة نادرة، وستستكمل قطعة ضائعة في صفحة من صفحات حياتها. قطعة ضائعة ظلّت لغزًا محيّرًا وسؤالًا مفتوحًا على الاحتمالات.

ينتهي الفصل الأوّل من المسرحيّة الغنائيّة المبهرة، وتخرج منال مع ابنتيها إلى «لوبي» الاستراحة لتناول المرطّبات، وسط الهمهمات والأحاديث الجانبيّة والرشفات المنعشة. لا تدري كيف شعرت بعينين تطيلان النّظر إليها كلّما التفتت وتحرّكت. ذلك الشعور الذي يداهم المرء بأنّه مرصود، حتى وهو يُولي ظهره للناظر. لم تكن النّظرات سوى لفتاة عشرينيّة بصحبة شابٍ وسيم يضاهيها عمرًا. تلامحت النّظرات المتبادلة، والتي بدت تلقائيّة وغير متعمَّدة، يقطعها مرور الحاضرين وتنقُّلاتهم وهمهماتهم الخفيضة. انتهت الاستراحة، ومضى كلٌّ إلى مقعده لاستكمال ما تبقّى من العرض.

انتهى العرض، وأمسكت منال بحرص بيدَي الصّغيرتين، ريثما تتفرّق الجموع. وما إن خرجت إلى ضوء الطريق مغادرةً مبنى المسرح، حتى سمعت من ورائها من ينادي: «من فضلك». التفتت، فإذا هي الفتاة العشرينيّة ذاتها، يقف وراءها الشابّ الوسيم منتظرًا. اقتربت الفتاة، ثمّ بادرت مستفسرة: «أنتِ منال؟ أليس كذلك؟» احتاجت منال إلى بضع ثوانٍ لتردّ بالإيجاب، ثمّ لتتأمّل هذه الغريبة التي لا تعرفها. مالت إلى جانب الطريق لتترك المجال للعابرين، ولتدع لنفسها فرصة إضافيّة في محاولة التعرّف إلى هذه الفتاة اللّطيفة التي تنطق اسمها بعفويّة وثقة. أمام حيرة منال، خالج صوتَ الفتاة شبهُ اعتذار وهي توضّح أنّه، على الرّغم من مرور السنين، فإنّها لا تزال تتذكّرها. ثمّ أردفت لتضع النقطة الأخيرة على السطر: أنا جنى، جنى ياسر أعظمي.

بعد الدّهشة الأولى، والأسئلة السّريعة المرتبكة، والوقفة المرتجلة في طريق عام، اتّجه الجميع إلى مقهى قريب، في محاولة للمّ شتات الكلام المرسَل والذكريات المبعثرة. بعد أن عرّفت جنى منالَ بزوجها، البريطاني الذي تقيم معه الآن بلندن، انتحى الشاب جانبًا وانغمس في جريدته وفنجان قهوته، بعد أن شعر بأنّ بين المرأتين حديثًا طويلًا لا يخصّه. بينما انشغلت الطفلتان بتلوين رسوم مسرحيّة «البؤساء»، في دفاتر مشوّقة.

كان الحديث عن استكمال جنى دراستها في جامعة بريطانيّة، ثمّ تعرّفها بزوجها، مجرّدَ مقدمة لحديث أهمّ عن ياسر، كانت منال تعيش قبله على حافّة الترقّب القصوى. أخذت جنى تغتصب الكلمات اغتصابًا، ما إن فُتحت السيرة. كأنّ غمامة حامت فوق رأسها. فشوّشت الرؤية وبعثرت الأفكار، ثمّ رشقت عينيها التائهتين بالرذاذ. شدّت على كوب القهوة بين

كفّيها، كأنّها تستمدّ منه الدفء ليدين دبّ فيهما الصقيع. قالت، وكأنّها تستنجد بشجاعة هاربة، وتقدّم خلاصة أخيرة لحديث موجع: «لا نعرف عنه شيئًا أكيدًا إلى الآن». أمالت منال رأسها علامة التّساؤل، وسدّدت نظرة مستغربة. أوشكت أن تستفيض بمئة سؤال عن المعنى المكنون وراء «لا نعرف عنه شيئًا أكيدًا»، مستحثّة محدثتها على أن تقدّم شهادة تفصيليّة عمّا قبل تلك «المعرفة» المفتقرة إلى اليقين، وعمّا بعدها.

قاطعت منال محدّثتها، وهي توشك على الاستئناف، بعد إلقاء ذلك اللّغم الغامض. أعادت على سمع جنى ما تعرفه سلفًا، من مغادرته إلى بغداد لحضور عزاء أمّه، ثمّ انقطاع أخباره، وتأجيل موعد تقييم بحثه العلمي. «لم تعلم الجامعة ولا أنا خبرًا عنه بعد ذلك»، قالت منال. كان ذلك أوائل عام 1988م، ونحن الآن في أواخر عام 1997م، فماذا حدث خلال السنوات العشر؟ حثّ السّؤال القاطع جنى على الاسترسال وراء أفكارها المضطربة، التي باتت تتوافد على رأسها خطفًا مثل ومضات البرق، ساطعة ولاذعة. قالت: «كان أبي قد عاد إلى الوطن. مشى وراء جنازة جدّتي. ثمّ التزم بالإقامة الجبريّة بالبيت؛ تلك التي فُرضت عليه حين دخل مطار بغداد. قيل له إنّ مركز الأبحاث التابع لوزارة الدّفاع، في حاجة إلى تخصّصه العلمي، وإنّه سيتمّ استدعاؤه للانخراط في الخدمة المدنيّة خلال أسبوعين. بعد أيّام قليلة، قَدِمت قوات الأمن باللّباس المدني لأخذه إلى جهة غير معلومة. استفسر جدّي بعدها عن مكانه في الكثير من الهيئات العلميّة والحكوميّة، وما كان يسمع غير أقوال متضاربة عن مكانه، وعن سرّيّة المهمّات المنوطة به، الأمر الذي يستلزم منا الكفّ عن التّحري والاستفسار».

تجرّعت جنى رشفتين من قهوة باردة، كأنّها تبلّل بها حنجرة خدشتها الكلمات، وأكملت: «بعد نشوب حرب الكويت... العفو...» استدركت، كأنّها تعتذر عن ذنب لم تقترفه، وهربت بعينين مبلّلتين نحو الشارع المزدحم، ترمقه عبر الزجاج. أكملت: «بعد حرب الكويت اختفت أخباره تمامًا، وما عادت هناك جهة ما يمكن الرّجوع إليها بهذا الشأن. قيل إنّ فِرَقًا من العلماء العراقيّين تمّ تجنيدهم لخدمة الحرب رغمًا عنهم. وأشيع القول عن تمرّد في صفوفهم بعد بوادر الهزيمة، وعن فرار البعض، وإعدام البعض الآخر. وقيل... وقيل... عن اعتقالات، ومقابر جماعيّة، وفوضى، وإشاعات. في الوضع الرّاهن، أصبح الأمر أكثر تعقيدًا، فيما يخصّ التّقصي والبحث عن مفقودين، كأنّنا نبحث عن إبرة في كومة من

القشّ، والقش وسط كومة من الأنقاض، والأنقاض وسط كومة من الهزائم، والاصطفافات المخزية، والإرهاب الطائفيّ».

حام الصمت فوق رأسَي الجالستين، كأنّهما تخشيان أن تخدشا غشاء الحقيقة الموجعة، أو تهشا على طيور الأفكار السوداء التي تنقرهما بلا رحمة. رنّ سؤال جنى الاستنكاريّ يقطع حبل الصمت: «أين يمكن أن يكون أبي وسط هذا الخراب؟ إن لم يمت اغتيالًا ويُدفَن في مقبرة جماعيّة، فمن الأكيد أنّه مات قهرًا ممّا يحدث. لم يعد البحث عن رفاته مُجديًا. هو لن يختلف عن آلافٍ مثله. لندعهم يرقدون بسلام أينما كانوا».

كان العصر يسحب أذياله حين ودّعت منال جليستها. حضنتها بحنوّ غامر، كأنّها تطفئ جمرة كامنة في أحشائهما، آن لها أن تخمد وتتحوَّل إلى رماد. أمسكت بيديّ الصغيرتين، وأشارت إلى سيّارة التاكسي السوداء. عبرت بهنّ التاكسي أزقّة «كوفنت غاردن» و«ليستر سكوير» و«ريجنت ستريت»، وسبقت حافلاتٍ حمراء، ومحالّ، وعابرين يهرولون، ومشاةً، وإشاراتِ مرور، وهي سارحة وراء ما سمعت وتخيّلت. لا تدري أيّ لون من الحزن يداهمها الآن بعد مرور عشر سنوات من الأسئلة المعلّقة، ثمّ تبزغ جنى من اللّامكان، لتضع لها النُقطة في نهاية السطر.

ما إن دلفت إلى الشقّة، حتى رنّ جهاز الهاتف. على الطرف الآخر سميحة تذكّرها بدعوة العشاء في «مطعم الوادي»، كما هي العادة حين تأتي في إجازة الصيف. اضطربت منال حين تذكّرت الموعد، ثمّ صمتت بضع ثوانٍ تبحث عن عذر مناسب. لم تكن الحال والمزاج يسمحان بتلبية دعوة مثل هذه، تحتاج إلى طاقة من المرح واللّياقة النّفسيّة والاندماج. اعتذرت منال إلى المتّصلة، وطلبت التأجيل.

بعد أسبوع، كانت منال وعائلتها على متن الطائرة المتّجهة إلى الكويت. فقد انتهت الإجازة، وأُغلقت بعض القصص على النهايات، وبقي البعض الآخر يستكمل دورته، مستجيبًا لترتيبات الأيّام وما تحمل في جعبتها. نظرت من نافذة الطائرة وهي تقلع، تاركة لندن وراءها، تغفو تحت نديف الغيم، يغلّفها رقيقًا، ويَعِدها بالمطر.

From: sihamnahhas@yahoo.com

To: manal_mosayyan@hotmail.com

صديقتي الغالية منال....

استلمتُ الملفَ الأخير للرواية عبر الإيميل، ورأيتكِ كيف تصوغين الكلمات الأخيرة، لتُنهي بها تلك العهود الغالية من العمر التي طوتها الأيّام.

على الرّغم من مداومتي في الشهور الأخيرة على التسجيل الصوتي حينًا، وقراءة ما يرد منكِ حينًا آخر، فإنّني أشعر الآن بمزيج من الحزن والسّعادة: السّعادة لأنّنا استطعنا إنجاز هذا العمل معًا، يدًا بيد، وقلبًا بقلب، حتى استوى وأينع. والحزن لأنّني سأشعر بالفراغ، أو بالأحرى ما يشبه الفراق، الذي يعقب انتهاء مرحلة شغفٍ وكدّ جميل.

تحدّثنا كثيرًا وثرثرنا عن المعاني المختفية في أثواب هذا النصّ الرّوائيّ، ولن أعيد الآن ما قلناه، وما تمثّله لنا تلك المعاني على المستوى الشّخصيّ. ولكن تبقى حقيقة ناصعة لا تني تشرق في رأسي، كلّما استعدتُ التّفاصيل. الحقيقة التي تتجلّى في قدرة هذه الرّواية على المحافظة على السّمت الأصيل لشخصيّاتها، ووضعها في قالب من الثبات، مغلّفةً بعناية في صندوق من الزّجاج الشفيف، يقيها عاديات الزمن.

تعرفين، يا عزيزتي، أنّنا نحن الكائنات المضمحلّة بدأنا نتبعثر في دائرة العمر. بدأنا ننسى، وتغيم الأشياء في الذاكرة. بدأت أجسادنا تتهلهل وتتهاوى. ومزاجنا يميل إلى الحدّة والتّوهان أمام أشياء صغيرة وبسيطة، كنّا نمرّرها من دون التفات. أخذنا نفتقد اللّباقة والأناقة والأناة في فهم مجريات يومنا. فقدنا الدّهشة والاكتشاف، وباتت الأشياء متشابهة وبليدة، والمُتع صغيرةً ومتهافتة، وبلا طَعم.

هذا ما يفعله الزمن، أو سيفعله لاحقًا. ولكن تأتي هذه الرّواية لتضخّ فينا البريق، وتعيدنا إلى الدّهشة. يكفي أنّها ستبقى شاهدة على جواهرنا قبل أن تتشوّش، وأنانا قبل أن تغيض وتتبعثر. أنتِ، يا عزيزتي، جمّدتِ الزمن، أوقفتِ بنا جريان اللّحظة، والتقطتِ لنا هذه اللّقطات، وأودعتِها في صندوق العجائب الذي لا يبلى، لتظلّ نابضة بالحياة الحقّة في عنفوانها.

فما أسخى الكتابة،

وأكثرَها ولاءً،

وأبدعَها وسيلةً لمراوغة الإنسان، ومراودته عن وعيه.

في انتظار تلقّي نسختي الأولى من الرّواية بعد الطبع،

ابقي بخير دائمًا، وعطاءٍ ووصل.

سهام نخاس

لندن، **3** حزيران/

يونيو **2018**م

صدر للكاتبة :

- الإنسان الصغير (شعر) ، 1998م
- طقوس الاغتسال والولادة (شعر) ، 1998م
- مجزة الماء (شعر) ، 2000م
- تتكسّر لغتي ، أنمو / سيرة شعرية وشواهد 2004م
- صباحُ يشرب البرتقال (شعر) ، 2017م
- على قيد الكتابة ، نصوص ، 2016م

الدراسات :

- الأجنحة والشمس / دراسة في القصة الكويتية ، 1998م
- خليفة الوقيان في رحلة الخلم والهمّ / 2002م
- مأزق المرأة الشاعرة / قراءة في الواقع الثقافي ، 2018م

البريد الألكتروني : najmaidrees88@gmail.com